٢٢٨
تاريخ المصريين

تاريخ العالم الإسلامى

الجزء الأول

د. حسن حبشى



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب



تاريخ العالم الإسلامى

الجزء الأول

د. حسن حبشى



الهيئة المصرية العامة
٢٠٠٢

الاشراف الفنى :

محمود الجزار

تقـــــديم

يسرني أن أقدم للقارئ الكريم الجزء الأول من كتاب تاريخ العالم الاسلامى الذى كتبه العالم الجليل الأستاذ الدكتور حسن حبشى أستاذ تاريخ العصور الوسطى والعالم الاسلامى بجامعة عين شمس ٠

والكتاب يتناول التاريخ الاسلامى منذ هجرة الرســـول عليه الصلاة والسلام ، وما ترتب عليها من آثار شملت كل مرافق الحياة الفكرية ، والدينية ، والعقائدية ، والاجتماعية ، والعمرانيـــة ، والأخـــلاقية ، والاقتصادية ٠

وقد اتخذ المؤلف من تاريخ الهجرة نقطة انطلاق لدراســـة تاريخ العالم الاسلامى قرنا بعد قرنا ســـواء فى الشرق أو فى الغـــرب ٠

وتعرض للشعوب التى دخلت الاسلام فى الشرق والغرب ، والدراسة كما يقول مؤلفها الدكتور حسن حبشى ليست دراسة عن الاسلام وليست تعريفا به ولكنها المامة موجزة عن مسيرة العالم على اختلاف شعوبه على مدى أربعة عشر قرنا من عمر الانسانيـــة منذ الهجرة النبوية أى منذ أن خرج محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) ، من مكة الى المدينة فكانت هجرته منعطفا هاما وخطيرا فى تاريخ العالم ٠ والدراسة هى عبارة عن عرض أفقى للعالم منذ

السنة الأولى من الهجرة حتى الوقت الحاضر وعلى مدى خمسة عشر قرنا .

وأملى أن يجد القارىء الكريم فى هذه الدراسة العلمية المهمة ما ينشد من فائدة علمية ومتعة ذهنية .

رئيس التحرير

أ. د. عبد العظيم رمضان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

حين شرعت فى استخراج مادة الكتاب الحالى وجدت أمامى كما هائلا من الجزازات التى دونتها وجمعتها فى أوقات مختلفة ومن أماكن شتى والتى استغرقت منى أعواما طويلة ، ونقلتها من مراجع ومصادر متباينة منهـــا ما هو مطبوع ومنها لايزال رهن المخطوطات ... أقول حين شرعت فى هذا العمل كان فى نيتى أن تتوفر بين يدى ـ وانا أهم بتسجيل ما بين دفتى هذا الكتاب من أحداث ـ مادة صحيحة موثقة ، تدعمها الأسانيد التى تليق بالاحتفال بمرور خمسة عشر قرنا من عمر الانسانية منذ ظهور الاسلام ، وهى مناسبة كريمة زادتها الهجرة أهمية وخطورة ، فهذه الهجرة النبوية هى التى وضعت البشرية على سلم الارتقاء ، وكانت بعثا لشخصية الفرد أيا كان هذا الفرد الذى أخذ منذ تلك اللحظة يبنى ويعمر ، ويرفد الحياة بروافد طيبة غير آسنة ولا آجنة ، ينهل منهـا الناس جيلا بعد جيـل ، وقرنا بعد قرن حتى نما الغرس وطابت الثمرة . ثم كانت مسيرة الاســلام هادية بفضل نتاجها الذى شـمل أرجـاء العالم : شرقيه وغربيه ، قديمه وحديثه ، وهو نتاج لازلنا حتى اليوم نحس بآثاره التى يتلقاها المتلقون الذين ان أحســنوا تلقيها وأدركوا فحـواها كانوا وكانت أعمالهم لبنة كريمة فى صرح الانسانية .

لقد أسفرت الهجرة عن نشاط دفاق وحركة بناءة صادقة فى تكوين « الانسان : أيا كان هذا الانســان : جنسا وموطنا ولونا

وتقيدة ولغة وثقافة وتفكيرا . هذا بالاضافة الى أنها حركة كان غرضها « الاحياء والبعث » والبحث عن « الحقيقة » التى ينشدها هذا الدين وينشدها العاملون والآخذون بالفهم الصحيح والذين يدركونه ادراكا غير مغموز .

★★★

لقد كانت ضخامة هذه الذكرى الاحتفالية التى تتبلور فى مرور ألف وأربعمائة ونيف من السنين هى التى دفعتنى الى الاحتفاء احتفاء لا يشبه ذلك النمط التقليدى الذى جرينا عليه ولازلنا نجرى عليه كل عام من القاء خطب تكاد تكون منبرية ، أو عقد اجتماعات يتبارى فيها الخطباء والبلغاء وأصحاب الحناجر العالية فى الوعظ والانشاد ، ثم ينفض السامر كأن لم يكن ، وكما ينفض كل سامر ، وسرعان ما يسدل النسيان ذيوله عليه فلا يبقى منه شىء سوى ما يشبه الخيال العابر الذى يتلاشى تلاشى الصدى فى الصحراء الشاسعة بعد قليل . ولقد صار هذا النمط تقليدا فى الاحتفاء بالهجرة وغيرها . وربما سواها من الأحداث الكبرى كما صار نهجا ممجوجا ، لا يتفق وسنة « الانسانية » التى لها دستورها وأقانيمها الداعية اليه من « التجديد » وعدم التقوقع وما درجوا على نعته من أنه ليس فى الامكان أبدع مما كان . بل لابد من مسايرة التطورات التى لا بد لها من الحدوث ، وهى تطورات أشبه ما تكون بالموجة العنيفة تكتسح ما فى طريقها من عشب لا يستطيع أن يفرض نفسه بل يكون هو الزبد الذى يذهب جفاء . وأرى أنه ان لم نقابل هذه المسيرة الزمنية الحية بهمة قادرة على استيعابها استيعابا صحيحا سليما ، ونتفاعل ايجابيا مع هذا التطور فالخاتمة هى الضياع فى لجة هذا المحيط الثائر والأمواج العاتية العارمة فى اندفاعها .

ان هذا الوضع هو الجمود بذاته ، وليس من طبيعة الاسلام الذى استمر خمسة عشر قرنا من عمر الخليقة والذى يدعو أصحابه ومريديه ومؤيديه الى النظر الى ما فى أنفسهم وفيما حولهم فيتحاشون تعطيل العقل عن مسيرته التى لابد لها من أن تصل الى الخير ٠

★★★

اذا وضعنا هذا المفهوم أمام ناظرينا كان لابد أن يكون الاحتفاء بمرور هذه الألف وأربعمائة عام احتفاء يليق بقدرها وبما تمثله هذه القرون من نهضة ، وما جرى خلال هذه الفترة الزمنية من آثار شملت كل مرافق الحياة : الفكرية والدينية والعقائدية والاجتماعية والعمرانية والأخلاقية والاقتصادية ، ولم تنس الارث الذى ورثناه من معاملات الفرد مع نفسه ومع غيره ، ثم ترقت الى معاملات هذه الشعوب ـ التى قدر لها الوجود ـ مع بعضها البعض ، وذلك كله يمثل نشاطا دفاقا مليئا بالحياة البناءة التى تهدف لخلق « الانسان » القوى السوى ٠ ومن ثم كان التعمير فتنفض التراب الذى أخفى هذه القرون وراءه ٠

لقد كان هذا فى ذهنى حين أطل القرن الخامس عشر الهجرى ورأيت أن يكون الاحتفاء به مضارعا لأهمية الأحداث التى شهدتها هذه القرون ، وكان فى ذهنى أيضا عظمة هذا الزمن الطويل من عمر الانسانية فدفعنى هذا الاحساس الى أن أدون مسيرة الانسانية وأن أبذل ما فى طوقى كفرد فى هذا المجتمع العظيم والهيكل الانسانى الشامخ ، وأن أقدم ما جنته الانسانية خلال هذه القرون ، وكان ذلك منذ عشرين سنة وكنت اذ ذاك رئيسا لقسم الدراسات العليا وأستاذا للتاريخ فى جامعة الملك عبد العزيز بجدة فألفت بين أحداث التاريخ عامة منذ الهجرة ، وألقيت سلسلة من المحاضرات اليومية باذاعات مكة وجدة ولرياض وظلت موصولة متتابعة لمدة استغرقت عاما وبعض عام لم تنقطع يوما واحدا منذ

اليوم الأول من محـرم ١٤٠١ هـ ، (= ٢١ نوفمبر ١٩٧٩ م ، فكانت نواة لما أقدمه اليوم ، وان كان ثم اختلاف فى الصـورة اقتضاه الفارق بين ما يكون للاذاعة وما يكون لكتاب يضع بين يدى الدارسين والناظرين الأحداث جيلا بعد جيل فكان العمل هو الكتاب الحالى ٠

ولما علم الصديق المؤرخ الأستاذ الدكتور عبد العظيم رمضان بهذه السلسلة من الأبحاث والدراسات طلب الى أن أقدمها للمطبعة فوافقت اشارته هوى فى نفسى ، وأجبته الى ما سأل فعكفت على أضابيرى وجزازاتى أستلهمها العون ، وكان التنسيق بين هذه المادة الغزيرة التى تضمنتها الجزازات وبين خروجها فى صورة كتاب أمرا بالغ الصعوبة يكاد يفل العزيمة اذ احترت أى هذه المواد آخذ وأيها أترك ، ثم تصورت ما أنا مقدم عليه فرأيت ذلك أشبه بهوة سحيقة يكاد لا يكون لها قرار ، ثم كان أخوف ما أخافه أن يتسع الخرق على الراقع كما يقولون فيؤدى بى الأمر الى أن يكون العمل موسوعة اضل فى جوانبها ويضل معى ومعها مطالع هذا الكتاب ، فالموسوعة أمر لا أحبه فى هذا الموضع حتى ولو توفر لى عصبة من التلاميذ والمساعدين والأعوان ، فذلك عمل هيهات أن ينهض به فرد ولا جيل ، وحسبنا نظرة الى دائرة المعارف الاســـلامية فى لغاتها الانجليزية والفرنسية والألمانية والتى يحررها ويشرف عليها علماء أجلاء من شتى أقطار العالم فقد قاربت قرنا من الزمان الا عقدا ولم تكمل بعد رغم الجهد الموصول فى اخراجها ٠

★★★

لذلك كانت خطتى فى هذا الكتـاب ان اتخذ الهجرة نقطة انطلق منها فأدخل « بحر تاريخ العالم » الذى سايرته فى هذا السفر قرنا بعد قـــرن واستعرضت الأحـداث فى الشرق والغـــرب ، وسيجد القارىء نفسه ينتقل من بلد الى بلد ومن حدث الى حدث انتقالا عرضيا أفقيا ، وراعيت الايجاز جهد الامكان حتى لا يخرج

الكتاب « موسوعة » ، والا كنت كما قلت مضلا وضالا وأستعيذ بالله أن أكون احدهما ٠

ثم رأيت ألا يقتصر الكتاب على الجانب الاسلامى وحده بل لابد أن يتضمن اشارات موجزة الى أحداث أخرى فى عالم كل قرن فى الشرق والغرب معا فالتاريخ العام وحدة متصلة لا تعرف دينا ولا شعبا معينا وانما أحداثه تؤثر ويتأثر بعضها ببعض ٠

★★★

ان العالم وقد انصرم منه اليوم قرابة ربع قرن من قرون الهجرة يفرض علينا أن نقف وقفة نستعرض فيها ما حدث أثناء هذه المسيرة وما صحبها من جوانب : بعضها نير مضىء وبعضها مظلم كريه ، ولكنها فترة من عمر الانسانية لا يمكن تجاهلها ، وكان لابد لهذه المسيرة أن تصطدم بالعدو وتلتقى بالصديق ، أى تلقى الصالح والطالح ، ولكننا نراها على وجه العموم قد أفرزت فيما أفرزت أمما وشعوبا ودولا لم يكن بعضها موجودا ، أو كان بعضها موجودا ولكن بصورة أو بأخرى لا يحس لها أثر ، وقد اكتشفت خلال هذه القرون أمم وشعوب وأراض لم تكن معروفة من قبل ، غير أن هذا الجهل بها لا يمكن أن يطمس وجودها ، ونلاحظ أن الاسلام سرعان ما جاهد ليجد له موضعا بين هذه الشعوب وتلك الأمم الجديدة دون محاولة منه فى أن يفرض نفسه بالقوة ، ولكنه عرض عليها خصائصه التى هى كل ما يملك وهى خصائص تزين ولا تشين ، وتنفع ولا تضر فقبلها البعض بالترحيب وأنكرها آخرون ٠ وربما كان هذا الانكار نتيجة عدم الرؤية الواضحة أو الجهل أو بسبب أغراض معينة ، الا أن مرور السنين ربما حمل بعض هذه الجماعات على موادعته والتعايش معه تعايشا أفضى أحيانا الى اعتناق البعض منها له والدفاع والذب عنه ، وما لنا نذهب بعيدا وها هى

بعض شعوب وسط آسيا والقوقاز وتركستان وطبرستان ـ على سبيل المثال ـ تجاهد منذ معرفتها بالاسلام أن يكون لها موضع فعال تمثل ظهور علماء وفقهاء وأئمة وقادة فأدانوا العالم بمؤلفاتهم فى شتى الميادين الفكرية • ثم عرفت هذه الشعوب ذاتيتها وكينونتها فهى تسعى جهدها الى الاستقلال ، فكان هذا تطورا فى حياة هذه الشعوب ، كما كان تفاعلا للرقى والسمو وليس للانخفاض والتدهور •

ان الشعوب والأمم التى اعتنقت الاسلام ـ كما سيتجلى فى صفحات متناثرة من هذا الكتاب ـ قد أصبحت لها ذاتية يطورها وضعها الجديد الى ما هو أفضل ، ولا عبرة بما قد يعتور بعضها من ضعف ، ذلك ان الكراهية والأنانية والأحقاد التى تعشش فى نفوس البعض والتى وجدت منذ هابيل وقابيل لا تزال موجودة ، وهى تعمل سرا أحيانا وعلانية أحيانا أخرى وتتخذ صورا شتى لعل أقلها هو العمل على افقار « الانسان » وتجريده من « انسانيته » روحيا وفكريا وثقافيا ، وقد ينتهى بتجريدها اياه ماديا حتى لا يعود يفكر الا فى اللقمة التى تشبع بطنه الجائعة •

★★★

وبعد فان هذه الصفحات التى أقدمها وأضعها بين يدى القراء العرب ـ وأحتمل وحدى تبعيتها ـ ليست دراسة عن الاسلام وليست تعريفا به ولكنها المامة موجزة عن مسيرة العالم على اختلاف شعوبه على مدى أربعة عشر قرنا من عمر الانسانية منذ الهجرة النبوية أى منذ أن خرج محمد بن عبد الله (ﷺ) من مكة الى المدينة فكانت هجرته منعطفا هاما وخطيرا فى تاريخ العالم •

ان هذا الكتاب ـ كما قلت ـ عرض أفقى للعالم منذ السنة الأولى من الهجرة حتى الوقت الحاضر وعلى مدى خمسة عشر قرنا

وهو كتـــاب اقـــرر أنه جمـع بين التأريخ والتاريخ وســـنرى ان هناك أمما تبلورت ذاتيتها بظهور الاســـلام فيها وباعتناقهـــا اياه ، ثم اتسعت رقعته الجغرافية مع اتساع المساحة الزمنية بمرور القرون يتلو بعضها بعضا ، وظهرت على الساحة ـ شرقا وغربا ـ جماعات ودول كان لها جميعها نشاطها الايجابى ، وقد يكون لهذا النشـــاط بعض جوانبـــه السلبية التى لا يستطيع أحـــد انكارها أو تجاهلها فى جزء من التاريخ وحلقة من حلقاته .

ان الظاهرة العجيبة هى أن الاسلام الذى ظهر فى الجزيرة العربية ـ وفى مكة بالذات ـ سرعان ما اتخذ من مصر منطلقا كريما الى القارة الأفريقية أولا ، كما اتخذ من المدينة المنورة ثم دمشق فبغداد منفذا آخر حتى وصل الى تخوم الصين والى شواطىء بحر الظلمات وأوربة ، ثم الى القارة الأفريقية حتى أقصى جنوبها وكذلك فى آسيا بل انه وجد سبيله الى كل هذه الآفاق وما وراءها .

ثم ان هناك ظاهرة أخرى نستمدها من صفحات هذا الكتاب الذى تضمن تاريخ العالم منذ الهجرة هو أن استعراضنا لهذا التاريخ من مختلف نواحيه وفى مختلف القارات يوقفنا على أن تفاعلات حضارية صاحبت هذه المسيرة الكبرى تحملنا على التمعن فى النظر على مدى تفاعل الحضارات بعضها مع بعض .

اننى لا أطمع فى أن يكون هذا الكتاب موسوعة فذلك أمر ـ كما قلت ـ لا أسعى اليه ولا أحسنه ، وانما هو الملم بأبرز الأحداث التى اثرت (بسكون الثاء) وأثرت (بتشديد الثاء) فى التاريخ والانسانيـــة .

وان المساحة الزمنية لهذا الكتاب هى أربعة عشر قرنا ولكن مساحته الجغرافية تتسع وتتسع بتوالى القرون وما يتبع ذلك من ظهور شعوب جديدة استطاع بعضها أن يكون لنفسه حضارة ، بيد أن كل حضارة لابد أن تختلف عن الأخرى فى شكلها العـــام

رقيبا وتأخرا ، لكنها في جميع الحالات شغلت حيزا من تاريخ الانسانية ومن عمر التاريخ ولا يمكن اسقاط هذه السنين من ذاكرة التاريخ لأنها هي التاريخ ذاته وقد يكون لبعض هذه الشعوب أثر .

★★★

ولما كانت مادة هذا الكتاب بأجزائه المختلفة المتتالية قد اتخذت الهجرة نقطة الانطلاق للعرض التاريخي فقد كان لابد لنا أن نقدم للقارىء صفحات موجزة عن ظهور الاسلام ، وسطورا أخرى قليلة منهوبة من سيرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وديدننا في كلا الأمرين أن لا يكون العرض في ايجازه مخلا ، ولا في اسهابه - حين يقتضي الاسهاب - مملا .

وليست هذه الصفحات دراسة للسيرة النبوية فلذلك كتاب آخر - قد يكون ضخما - هو كتابنا « الرحمة المهداة » ، والذي أرجو أن يرى النور قريبا .

★★★

وبعد فان رأى القارىء في الكتاب الحالي تقصيرا فليرشدنا اليه ، ولست أعتبر هذا الكتاب الا ملخصا لمسيرة قرون طوال ، وما يبلغ أحد حد الكمال فالكمال لله وحده والله ولي التوفيق .

ربيع الأول ١٤٤٣

مايـو ٢٠٠٢

دكتور / حسن حبشي

القرن الأول

بسم الله الرحمن الرحيم
والصلاة والسلام على أشرف خلقه سيدنا ومولانا
محمد عليه الصلاة والسلام

قـــرون الهجـــرة

أطل(*) على أفق الحياة المجدد   ربيـــع من الآمال منبسط اليد
تهـلل فانظـــر أى كون منمق   يرفرف فى أجـــواه أى مغــــرد
تهلل نور الحق أبلج واضحا   فكحل بالأضـــواء أجفـــان هجد
وحط على المهـد الطهور ملائك   تزف الى الأكوان ميلاد أحمد
رضيع الحجى والفضل من آل هاشم   من النبعة السمحاء ياغلة الصدى

مولد ليس ككل مولد :

كان الملأ من أهل مكة فى ساعة من ساعات يوم أغر هو الثانى عشر من ربيع الأول جالسين بالكعبة حين جاء البشير الى عبد المطلب ابن هاشم فى صورة جارية تزف له مولد حفيد له كان هو الابن الأوحد لولده عبد الله الذى مات منذ قريب فى ريق العمر وشرخ الشباب ، وكان هذا الابن مطمح الكثيرات من فتيات مكة ، لكنه آثر عليهن واحدة هى « آمنة بنت زهرة » ثم لم يعش طويلا الا بمقدار ما ترك قطعة منه صارت ولدا رأت أمه حين وضعته قصور بصرى من الشام .

(*) من قصيدة فى ذكرى المولد النبوى كان مؤلف هذا الكتاب القاها فى ساحة الامام الكاظم ببغداد .

وعرف الوليد ابن عبد الله وحفيد عبد المطلب باسم « محمد » المبارك فى السماء والأرض .

كان شأنه كشأن بقية من يولدون ، ولم يكن الناس يدرون عنه الا أنه ابن عبد الله بن عبد المطلب ، وأن أمه آمنة ، وانه قرشى من مكة .

كما لم يعلم أحد من شأنه أكثر من أنه يتيم قرشى ، فان زادوا فى تعريفه قالوا من بنى هاشم .

لكن الدنيا زغردت لمولده الشريف .

وتفتحت الحياة على اعز ما يجعل لهـا معنى ساميا ، وطعما مستساغا ، وبهجة تصفق لهـا قلوب تحن الى كل ما هو جميل وكريم . وأشرقت الدنيا بنور ربها تهتف أن جاء النبى المنتظر محمد صلى الله عليه وسلم .

وأدركت الانسانية أن قد جاءها من يعيد اليها مكانتها ويحررها من كل رق وقيد وسفاهة وجهالة .

ورقص كل ما فى الكون فرحا بمقدمه .

وتدفق الحب الصافى ليحل محل العداوة والبغضاء .

ونكست الأوثان هاماتها ، فقد جاء من سوف يديل دولتها .

لقد جاء محمد بن عبد الله العربى القرشى الأمى صلوات الله وسلامه عليه .

جاء الذى براه الله يوم برأ الكون ، واصطفاه ليكون النبى الهادى وخاتم رسله .

وأشرف وجه الزمان بالذى أعز الله الزمان به وأعلى قدره بالحق ، جاعلا الحياة حرة كريمة طاهرة شريفة .

فأهلا بالحياة حرة كريمة طاهرة شريفة .

وهنيئا لك يا مكة أن دوى فى شعابك ووديانك وبين جبالك صوت الوليد محمد بن عبد الله .

وهنيئا للتاريخ بمن جاء ليكتب أكرم تاريخ ويصحح سيرته ومسيرته ، ويقيم للحق دولته ، ويرفع رايته .

★★★

وشب الوليد محمد بن عبد الله وترعرع ، وأرضعته أمه فى البادية فقوى عوده ، ثم عرفه الناس بالأمين الصادق وما أصدق ما عرفوه به .

وصان الله محمدا فلم يحن هامته قط لوثن ، ولا استقسم بصنم ، ولا طاف بحجر ، ولا مارس أمرا من أمور الجاهلية الا أن يكون رعى الغنم ، أو اشتغل بتجارة شريفة يكسب من ورائها عيشه .

ولم يكن هناك أكثر من آلهة العرب وبيوت عبادتها قبل البعث، فقد عبدت حمير الشمس ، وألهت طى سهيلا ، وانحنت أسد لعطارد. فأما بيوت عبادتهم فشتى : فلثقيف بيت اللات ، وكان بيت مناة لحنديل وخزاعة ، وان لم يمنع ذلك من ظهور المسيحية فى بعض النواحى وبين بعض القبائل العربية كحمير وتنوخ والحيرة ونجران ، كما ظهر ذو نواس فى نجران ، فاضطهد المسيحيين وحرقهم بالنار حتى أشار اليهم القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، اذ هم عليها** » .

ومرت الأيام ومحمد بن عبد الله بن عبد المطلب يغدو ويروح دون أن يثنيه شيء فى السر ولا فى العلانية عن أن يكون سويا ، وهل لمن اصطفاه الله عز وجل الا أن يكون المثل الأعلى فى كل شيء ... ؟؟

وقد كان محمد صلوات الله وسلامه عليه هو هذا المثل الأعلى . فكانت صفحته ناصعة البياض .

وكبر الصغير وشب وبلغ مبلغ الرجال ، وتزوج من خديجة بنت خويلد الأسدى ، وكانت تكبره بخمسة عشر عاما ، وكان يعمل لها فى تجارة ضخمة فعرفت فيه الأمانة والصدق وهل هناك خير من هاتين الصفتين ؟؟

وكان الشاب محمد بن عبد الله منصرفا في غير وقت العمل الى الخلو بنفسه ، مزدريا ما عليه الناس أجمعين من عبادة أصنام نحتوها بأيديهم ثم ظلوا عليها عاكفين ، ولو كان لهذه الأصنام وتلك الأوثان لسان ينطق لقالت لهم ساخرة : « تبا لكم من جهلة مرذولين » .

لقد ضلوا وأضلوا ، وعطلوا الفكر ، وأهانوا أعظم ما منحهم الله الا وهو العقل ، وان شر النـاس عند الله للذين لا يعقلون **(أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء .. وان عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حـديث بعده يؤمنون »** . الأعراف آية (١٨٥) .

ولكن محمد بن عبد الله انصرف عن كل ما يعبده القوم ، وراح يتأمل فى خلق السـموات والأرض والليـل والنهار والحياة ، ويردد قلبه فى صـدره : **وبنـا ما خلقت هذا باطلا سـبحانك لك الملك وأنت المـالك القهار »** .

ان كل ما فى الطبيعة يشهد على أن لهذا الكون خالقا مبدعا جبارا لا ينكره الا ظالم نفسه ... ... ، وويل لظالم نفسه !!

وراح محمد بن عبد الله يفكر تفكيرا سويا لاعوج فيه ، والفكر أعظم ما وهبه الله للانسان ، وهو الذى يميز العاقل عن غيره ·

والتمس ابن مكة القرشي الهاشمي الأمي صاحب الفكر والتفكير مكانا يخلو فيه فكان « غار حراء » القريب من مكة ، وراح يتحنث فيه ، وكان يسمع صوتا رقيقا عذبا ، فخشى أن يكون قد مسه ضر أو ناله شر ، وما كان للضر أن يناله وهو الذى كان « يؤدى الأمانة ويصل الرحم ويصدق الحديث » ·

وكان يجد من خديجة زوجته وأم أولاده معينا ومشجعا ، بل خير معين وخير مشجع ·

اول نزول الوحى عليه :

حتى كان يوم ليس ككل الأيام ، وكان هذا من أيام شهر رمضان ، اذ جاءه جبريل عليه السلام بأمر من الله تعالى وقال له اقرأ فقال ما أنا بقارىء ، وكررها عليه ثلاثا وهو يرد عليه بنفس الجواب ، ثم قال له الملك : (**اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم**) * فقرأها ثم انصرف جبريل ووقف محمد عليه الصلاة والسلام ، ··· وقف لا يتقدم ولا يرجع حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبه ، فوجدوه بأعلى مكة ورجعوا ورجع هو اليها فسألته أين كان فحدثها بكل ما كان ·

كان هذا هو أول الوحى على العربى الهاشمى القرشى محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم :

وشدت خديجة من عزمه وقوت عزيمته ·

وأرادت خديجة أن تختبر الذى يأتى محمدا حين يأتيه لتعرف أملك هو أم شيطان رجيم ، فلما جاءه جبريل عليه السلام أجلسته

(*) العلق ، آية ٢ ·

على فخذها اليسرى ثم اليمنى ثم فى حجرها ، وكانت تسأله فى كل مرة « أيراه » فيقول نعم ، واذ ذاك ألقت خمارها وهو جالس فى حجرها وسألته أيراه ؟ فأجابها « لا » واذ ذاك قالت له :« أثبت يا ابن عم وأبشر ، والله انه لملك وما هو بشيطان !! » .

وصدقت خديجة ، وشد كلامها من عزمه ، وقوى جأشه . وأسلمت خديجة وأسلم بعض من أقرب الناس اليه ، وظل يدعو للدين سرا ثلاث سنوات حتى أمره الله جل جلاله أن ينذر عشيرته الأقربين ، وكان ذلك ايذانا بحرب شعواء أثارتها عليه قريش التى آلت الا أن تحاربه هو ومن معه من أنصاره ـ وان كان اغلبهم من المستضعفين ـ، وكادت له قريش كيدا كبيرا، ولكن رب العزة ردهم فى النهاية مدحورين مسلمين له ، ثم كان بدؤ نزول القرآن الكريم فى رمضان ، فكان فيه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، ثم فرض الله الصلاة وعلمه جبريل كيف تكون فصلى عليه الصلاة والسلام بمن آمن به من أهل بيته ومن أقرب الناس اليه .

ثم ما لبث أن دخل الاسلام كثيرون : رجالا ونساء ، شيبا وكهولا ، ثم دعا الناس اليه جهرا امتثالا لأمر ربه عز وجل (**فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين** (*)) .

وأحست قريش بالخطر يهددها ويهدد سلطانها المقوت وجبروتها المرذول ، فوقفت من الدعوة والداعى موقفا ليس فيه ما يشرفها ، وأذاقت من أسلم شتى أنواع العذاب ، وخافت أن تبلغ الدعوة قلب من يجيء من العرب الى الحج ، فوقفت لهم بالمرصاد وتصدتهم . وكان البلاء يلقاه الذين آمنوا فما لانت قناتهم . ولا تخاذلوا أمام طغيان الطغاة .

(*) سورة الحجر ، آية ٩٤ .

وزاد غضب قريش وحقدها حين أسلم رجال مثل حمزة وعمر ، ولم يزد مرور الأيام الدعوة الا انتشارا ، ولم يزد قريشا الا لجاجا وغيا وفجورا وبوارا ٠

واستمع بعضهم الى آى من القرآن الكريم فأسرتهم حلاوته ، وتذوقوها فسحرتهم بلاغته ، ولكن أخذتهم نعرة الجاهلية فأنكروا ما يسمعون (**وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه ، وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل اننا عاملون**) ، فما يكون جوابه الا أن يجرى الله على لسانه قوله عز من قائل « **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحد** » ٠

وتعددت مجالات ظلم قريش للنبى عليه الصلاة والسلام ولمن اتبعه من المؤمنين ، وكثر عدوانها على المستضعفين ٠

ومرت سنوات لقى فيها صلوات الله وسلامه عليه مالولاقاه غيره لفلت عزيمته ولداخله اليأس ، ولكن ما كان لمحمد أن ييأس أو يخاف وقد اصطفاه الله لعبء لم يهيأ لأحد سواه وما كان سواه بمستطيع أن ينهض به ، فكان فردا فى مجتمع ناصبه العداء ، فما هان ولا لان ولا استكان ، بل لقد أقبل على دعوته أفراد كانوا فى نظر هؤلاء السادة مستضعفين ، لكن الاسلام جعل من ضعفهم قوة ، ومن ذلهم عزا ، فآمنوا به ايمانا جعلهم يحتملون أذى قريش البالغ بصبر عجيب، وبدل الاسلام يأسهم أملا ، ورأوا فى رحمة الله هداية لهم ، فلم يبالوا ولم يقنطوا اذ لايقنط من رحمة الله الا الضالون ٠ وعز على الرسول صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء والكرب وأنه غير قادر على دفعه ، فأشار عليهم بالهجرة الى الحبشة « فان بها ملكا لايظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق » ، وأن يقيموا هناك « حتى يجعل الله لهم فرجا » ٠ فهاجر انصياعا لأمره قوم

اتبعوه من بنى أمية ومن بنى هاشم وبنى أسد وبنى زهرة وغيرهم حتى كانوا ثلاثة وثمانين ما بين رجل وأمرأة ٠

هاجر هؤلاء وفيهم من كان فى قومه مقدما ذا مال وجـــاه ٠
لكن ما المال ؟ ٠٠٠ ! وما الجاه ؟ ٠٠ أوما الدنيا وزينتها ان قيس ذلك الى التمسك بالعقيدة وحلاة الايمان ؟

هاجـــروا الى الحبشة فاطمأنوا الى دينهـــم أن يفتنوا فيه وقال قائلهم :

ياراكبـــا بلغن عنى مغلغلة
من كان يرجـــو بلاء الله والدين

كل امرىء من عبـاد الله مضطهد
ببطن مكة مقهـــور ومفتـــون

انا وجدنا بلاد الله واســـعة
تنجى من الذل والمخزاة والهـون

وغاظ قريشا أن يجد هؤلاء المهاجرون الى الحبشة فى مهجرهم الأمان الذى فقدوه فى بلدهم ، فبعثت قريش الى ملك الحبشـه رجلين من أذكى رجالاتهـا بالهدايا ، وبمثلهما الى بطارقته الذين مالأوهم عند مولاهم النجاشى ، ولكن النجاشى رفض ما سمعه منهما فى حق اخوانهم المهاجرين الى بلده وقال لهما انه لا يرد قولا كريما : انه لا يكيد قوما جاوروه ونزلوا بلاده ، واختاروه على من سواه . وأنه لابد أن يسألهم عما يقال فى أمرهم ٠

وتم ما أراده النجاشى من لقاء المهاجرين فلم يسمع منهم عن الاســلام الا خيرا ، ثم عاد فسألهـم ما الذى يقول به كتابهـــم

الذى جاء به صاحبهم محمد بن عبد الله فى عيسى عليه السلام فقالوا له على لسان جعفر بن أبى أطالب : « نقول فيه الذى جاءنا به نبينا (صلعم) انه عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها الى مريم العذراء البتول » . ثم تلى جعفر عليه صدرا من سورة مريم ، فقال النجاشى بعد أن سمع ما جاء عن المسيح بالكتاب الكريم « والله ماعدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود » وأشار الى عود فى يده ، ثم التفت الى المسلمين الذين عنده وقال لهم : « اذهبوا فأنتم آمنون بأرضى . ومن سبكم غرم » .

وأعاد ذلك ثلاثا ثم قال بالحبشية « شيوم » ، أى « آمنون »

★★★

وعز على قريش هزيمتها فى الحبشة فى مجلس النجاشى ، فأمرت أن تكتب كتابا تعاقدت فيه على بنى هاشم الا ينكحوا اليهم ، ولا ينكحوهم ، وألا يبيعوهم شيئا ولا يبتاعوا منهم .

كتبوا ذلك فيما عرف بالصحيفة « الظالمة » التى علقوها بجوف الكعبة توكيدا على أنفسهم . ولجأ بنو هاشم وبنو المطلب الى شعب المطلب ، وتحملوا ما فرضته قريش ظلما عليهم فى صبر عجيب ، تعصبا منهم لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ثم خذل الله المتآمرين فأكلت الأرضة الصحيفة الا ماكان من اسم « الله جل جلاله » . وأعلم الله عز وجل نبيه الأمين بذلك .

وسعى قوم — وان كانوا كفارا — فى نقض الصحيفة ، وخذل الله قريشا مرة أخرى **(بئس ما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين)** وصدق الله العظيم.

ومضت أيام وتلتها أيام !!

وبلغ المهاجرين بالحبشة ـ كذبا ـ أن قد أسلم أهل مكة فعاد هؤلاء المهاجرون أو عاد أكثرهم ، فلما دنـــوا منهـــا عرفوا حقيقة « الخبر فعادوا ولم يدخل منهم أحد الا بجوار أو مستخفيا » .

ثم كان ما كان من خبر الاسراء والمعراج حين أسرى الله برسوله الى بيت المقدس والتقى بابراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فى نفر من الأنبياء فأمهم سيدنا محمد وصلى بهم ثم عاد الى مكة .. كل ذلك فى ليلة واحدة .

عاد الى مكة الصادق الأمين ليحدث بما كان وبما رأى ، فقال أكثر الناس :

« هذا والله الأمر البين !! .

« والله ان العير لتطرد شـــهرا من مكة الى الشـــام مدبرة ، وشهرا مثله راجعة .

« أفيذهب محمد من مكة ويرجع اليها فى ليلة واحدة » ؟ .

وتلجلجت نفوس قوم حتى مـن المؤمنين ، ثـم عـادوا فثبت ايمانهـــم .

★★★

موت أبى طالب وخديجة :

ومضت الأيام والأحداث تجـــري ويأخذ بعضها بحجز البعض الآخر . ومات عمه أبو طالب وتبعته خديجة يرحمها الله .

وطمع المشركون في النبي عليه الصلاة والسلام وفي أتباعه بعد وفاة هذين اللذين كانا له نعم المؤيد ونعم المعين بعد الله عز وجل ، وراح الرسول يعرض نفسه على الناس والقبائل في موسم الحج ويدعوهم الى الله والاسلام ، ولقى في ذلك عنتا شديدا ، ثم أراد الله جل جلاله له الخير ولدينه الظهور حيث قابل محمد نفرا من الخزرج من أهل يثرب عند مكان يعرف بالعقبة ، فحدثهم في أمر الدين فصدقوه وقالوا له :

« انا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العدواة والشر مثل ما بينهم فعسى الله أن يجمعهم بك .

« وسنقدم عليهم وندعوهم الى أمرك .

« فان يجمعهم الله على هذا الدين فلا رجل أعز منك » .

وصدق ما قالوه ، وعادوا الى يثرب يتحدثون بما كان ، وذكروا لقومهم الخبر ، ودعوا أقرب الناس اليهم فاستجابوا لهم ، حتى اذا كان العام التالى جاء من أهل يثرب اثنا عشر رجلا بايعوه بما عرف ببيعة النساء قبل أن تفرض الحرب .

بايعوه على ألا يشركوا بالله شيئا ، وألا يسرقو ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ، ولا يأتو ببهتان من بين أيديهم وأرجلهم ، ولا يعصوه في معروف ، وجعل هو لهم عليه الجنة ان وفوا بذلك .

فأما من غش فأمره الى الله عز وجل . ان شاء عذب وان شاء غفر . ودخل الاسلام يثرب ، وأقيمت الجمعة بها ، وكان أول داعية من دعاة الاسلام بها هو « مصعب بن عمير » رضى الله عنه ، وأسلم من أهل يثرب طائفة فيهم كثير من وجوهها وأصحاب الكلمة فيها .

وكانت العقبة الأخيرة وحضرها ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ، وأذن الله للرسول ولمن تبعه بالقتال (**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير**) ٠

كانت بيعة العقبة هذه من أعظم الأحداث فى مسيرة الدعوة الاسلامية بايع فيها الأوس والخزرج رسول الله (صلعم) على أن يمنعوه — اذا ما قدم عليهم المدينة — مما يمنعون منه نساءهم وأولادهم ، وأكدوا له أنهم أهل الحلقة ورثوها كابرا عن كابر ، كما أكد لهم أنه منهم : يحارب من حاربوا ويسالم من سالموا ، ثم أخرجوا له من بينهم — انصياعا لأمره الشريف — اثنى عشر نقيبا : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ، عدهم الرسول على قومهم « كفلاء كفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وجعل من نفسه كفيلا على قومه » ٠

وعلمت قريش بالخبر فجاء رجال من كبارها فى اليوم التالى لاجتماع العقبة الى اليثربيين الذين جاءوا الموسم ينكرون عليهم هذه البيعة ، ويؤكدون لهم أنه ليس أبغض الى نفوسهم من أن تنشب الحرب بينهم وبينهم ، لكن لم تنل قريش منهم غاية تشفى غليلها ٠

ولقد فتحت هذه البيعة أمام من آمنوا من أهل مكة باب الأمل فى أن يجدوا من أهل يثرب — وفى يثرب ذاتها — الأمن والطمأنينة بعد أن امتحنوا على يد قريش بأشد أنواع الامتحان فى النفس والأهل والمال والولد ، فلم يزدهم ذلك الا ثباتا على دينهم ، وتمسكا به ، فسلام عليهم بما صبروا ونعم عقبى الدار ٠

وغضبت قريش اذ أدركت أن المؤمنين سيلقون أهلا حين يحلون فى يثرب ، كما أدركت أن عهدا جديدا سوف تبدو تباشيره بالخير لهؤلاء الذين كان حرصهم على دينهم أعظم من حرصهم على أنفسهم

وما ملكوا ، وأنهم سوف يجدون أمنا بعد خوف ، وطمأنينـــة بعد رهبة ، ورحمة بعد ظلم ، وسلاما بعد حرب ، وعدلا بعد جور ... ونصر الله المؤمنين وهم قلة فآواهم ومكنهـم في الأرض (**وأذكروا اذ انتم قليـــل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** (*)) .

وسعت قريش ألا تمكن المسلمين من الهجرة الى يثرب فلم تنجح في مسعاها ، وفشلت في ذلك فشـلها من قبل مع أخوة لهم هاجروا الى الحبشة فوجدوا من نجاشيها الحماية والرعاية .

ثم هال قريشا من هؤلاء أن هاجروا حفاظا على دينهم أن يفتنوا فيه ، تاركين وراءهم أثقالهـم ومتاعهم ودورهم وأهليهم . فهذا صهيب بن سـنان يترك لقريش كل ماله على أن يخلوا بينـه وبين الهجرة فخسر المال ولكنـه كسب نفسـه ودنيـاه وآخرته (**ومن النـاس من يشرى نفسـه ابتغاء مرضـاة الله والله رءوف بالعباد**) .

وهذا أبو سلمة بن عبد الأسد يحال بينه وبين زوجته وابنه سلمة وهما في طريقهما الى المدينـة فيؤثر الهجرة ويتحمل فراق الزوجة والولد .. فيالروعة الايمـان يضفي الراحـة ويسبغ الطمأنينة على نفس المؤمن الصادق !!

كان هذا الاصرار من جانب المؤمنين على الهجرة مثار خوف وازعاج لقريش التي أيقنت ما وراء الهجرة من تزايد عدد المسلمين : مهاجرين وأنصارا بها ، وأيقنت أنه لن يبقى بمكة سوى المستضعفين من النساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ،

(*) الانفال ، آية ٢٩ .

وعلمت قريش علم اليقين ـ أن لو تمكن محمد عليه الصلاة والسلام ـ من الهجرة الى المدينة فسوف تغدو الهجرة شوكة تقض مضجع الملأ من قريش ، وأن ذلك سوف يزلزل من مكانتها بين العرب أجمعين ، ويشد أزر المسلمين أينما كانوا .

هجرة الرسول (صلعم) الى يثرب ومغزاها :

ودخل الاسلام يثرب وأقيمت الجمعة بها .

وتلا ذلك أن أمر النبى أصـــحابه فى مكة بالهجرة الى يثرب حيث يجدون اخوانهم الأنصار ، ودارا يأمنون فيها على أنفســـهم وأموالهم ودينهم . ثم أذن الله لرسوله الكريم بالهجرة الى طيبة فهاجـــر .

وكان عليه الصلاة والسلام قد ارى فى منامه دار الهجرة « سبخة ذات نخيل بين لابتين » ، ورؤياه صادقة ان شاء الله تعالى فهى المدينة التى ساهمت أكبر مساهمة فى صنع التاريخ كأشرف مايكون التاريخ . وجاء النبى الكريم الى دار أبى بكر فى الهاجرة ـ وقد تقررت الهجرة ـ فى ساعة لم تجر عادته على المجىء له فيها ، وأفضى الى ابن أبى قحافة بما أمره الله به فقـــال له الصديق : « الصحبة يارسول الله !! » فقال « الصحبة » !!

وبكى أبو بكر فرحا .

وكان النبى (صلعم) قد أخفى خبر عزمه على الهجـــرة الى يثرب عن الناس أجمعين ، لم يعلم به غير أبى بكر وغير على ابن عمه رضى الله عنه وبعض آل أبى بكر وكان فى الخروج آية ، فقد اجتمع فى دار الندوة كبار رجالات قريش يدبرون ما يفعلون ازاء الدعوة التى انتشرت ، فأجمعوا عزمهم على الفتك به ، بأن يأخذوا من كل

قبيلة فتى جلدا ويعطوه سـيفا ، ثم يقف هؤلاء جميعا على باب دار المصطفى عليه الصلاة والسلام ليلا دون أن يعلم ، حتى اذا خرج لصلاة الصبح وثبوا عليه جميعا وثبـة رجل واحـد وتناوشوه بسيوفهم ، فيضيع دمه بين الناس جميعا اذ يعجز بنو هاشـم عن الوقـوف فى وجـه العرب جميعـا فيقبلون العقـل والدية فيه ان شـاءوا ، وهكذا مـكر خصـوم الدعـوة الطـاهرة وما علموا أن الله مفسـد مـكرهم (**وإذ يمـكر بـك الـذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجـوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكـرين**) • فقـد خـرج فى رعـاية الرحمن اذ أوحى بخبر ما يدبره السفهاء من قومه من شر يلحقونه به ، فجعل عليا ـ كرم الله وجهه ـ مكانه فى فراشه وقال له « نم على فراشى وتسج ببردى هذا الحضرمى الأخضر فانه لن يخلص اليك شىء تكرهه منهم » •

وأطاع على ما قاله محمـد ، غير مبال مما قد يصيبه من أذى قريش وهو فى مضجع الرسول عليه الصلاة والسلام •

وفعلت قريش ما أجمعت عليه من ترصده •

لكنها فشلت فيما دبرته ، وسلم النبى من آذاها فقد خرج من باب داره وأهل الشر وقوف به لم يروه اذ أعمى الله أبصارهم وأخذ بيده حفنة تراب ذره على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى • (**يس والقرآن الحكيم انك لمن المرسلين على صراط مستقيم تنزيل العزيز الرحيم لتنذر قوما ما انذر آباؤهم فهم غافلون ، لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون انا جعلنا فى أعناقهم اغلالا فهى الى الأذقان فهم مقمحون وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون**) •

ومضى النبى (ﷺ) سالما فى غير خوف ولا مضرة •

وجاء قريشا رجل سخر منهم اذ خـــرج محمد وهم بالباب غافلون . ولم يترك أحـد منهم الا وقد ذر على رأســه التراب وهم لايشـــعرون • وتحسسوا رؤوسهم فصح كلام الرجل ولم يكذب عليهـــم •

وعلمت قريش بما كان فاستشاطت غضبا وازدادت ضراوة . وعز عليها أن باءت بالفشل الذريع •

أما النبى (ﷺ) فقد صحب أبا بكر ، وكانت رحلة من أعجب

أحداث الدنيا فى القديم والحديث فقد اختبأ هو وصاحبه فى غار ثور • وعرفت قريش بخروج النبى ، فبعثت من يتتبع آثاره فوصل الرجال المشركون الى باب الغار الذى بداخله محمد وصاحبه فاذا العنكبوت قد نسـجت خيوطها عليه فأيقنوا أن محمدا ليس به ، وسمع النبى وصاحبه وهما فى الغار حديث المشركين فخاف أبو بكر أن يدخلوا الغار فيصيبوا الأمين ، ولكن النبى (ﷺ) ثبته وطمأنه **(اذ يقول لصاحبه لاتحزن ان الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها)** •

وارتد المشركون على أعقابهم خاسرين مذمومين مدحورين • وتابع النبى أشرف رحلة صنعت التاريخ كأنصع ما يكون التاريخ •

ووجدت قريش نفسها وقد هزمت أمام الرسول (ﷺ) أكثر من مرة ، فهى لم تنجح فى فرض الحصار على بنى المطلب وعزلهم عن مجتمعهم ليسلموها الرسول ، كما أنها لم تنجح فى صرف أوس المدينة وخزرجها عن بيعتهم له •

ثم انها فشلت فى منع المهاجـرين من الهجـرة الى الحبشة ولا الى المدينة ، وحالفها الفشل فى محاولتها الايقـــاع بالمسلمين

وبالاسلام عنه النجاشي ، وباءت محاولتها الذميمة لقتل النبى عليه الصلاة والسلام بالحسرات ، وهى لم تنجح أخيرا فى طلبه لمن يأتيها به حين انطلق أحد رجالها ـ وهو سراقة بن مالك ابن جعشم » ـ الذى خرج يقصه والطمع يحدوه فعاد من مطاردته اياه ونور الايمان يملؤ قلبه ، حتى لنسمعه يخاطب أبا جهل فيقول له :

أبا حكم ، والله لو كنت شاهدا
لأمر جوادى اذ تسوخ قوائمه

علمت ـ ولم تشكك ـ بأن محمدا
رسول ببرهان ، فمن ذا يقاومه ؟

ومضت المطايا تخب برسول الله (ﷺ) وتضع به وبصاحبه حتى مر ببعض الطريق بأم معبد الخزاعية قرأت من بركته (وهى لاتعرفه) ما جعلها تقول عنه انه « رجل مبارك » ٠

وترامى الى المسلمين والى أهل يثرب أن رسول الله (ﷺ) قادم عليهم ، فأخذوا يترقبون طلوعه عليهم كل يوم فى لهفة المشوق ، فهم يخرجون اذا حل الصباح ولايبرحون مكانهم حتى تغلبهم الشمس على الظلال ويردهم حر الظهيرة ، فاذا لم يجدوا ظلا دخلوا الى بيوتهم ٠ ثم وصل الركب الطاهر الى « قباء » التى هى على مسيرة ثلاثة أميال من يثرب وكان ذلك يوم الثامن من ربيع الأول ، ونزل عليه الصلاة والسلام على « كلثوم بن الهدم » الذى عرف بصاحب رسول الله ، وكان قد أسلم قبل مقدمه الشريف وكان كلثوم شيخا كبيرا من بنى عمرو بن عوف ٠

وأقام النبى بقباء أياما اختلفوا فى عددها ، ولكنه شيد المسجد الذى أسس على التقوى ، وشرفه الله بذكره فى كتابه الكريم فى قوله

عز من قائل (لمســـجد أسس على التقوى من أول يـوم أحق أن تقوم فيه) .

وقد ورد فى الطبرانى ـ بسند رجال ثقات ـ أن « الشموس بنت النعمان » الأنصارية قالت « نظرت الى رسول الله (ﷺ) حين قدم فنزل وأسس المسجد (تعنى مسجد قباء) فرأيته يأخذ الحجر والصخرة حتى يصهره الحر فيأتى رجـــل من أصحابه فيقول : يا رسول الله بأبى أنت وأمى ... تعطينى أكفك » ، فيقول له : صلوات الله وسلامه عليه « لا ... خذ مثله » . حتى أسسه .

ودخل عليه الصلاة والسلام يثرب فكان دخوله فرحة للمؤمنين، وغما وغيظا للكافرين والمشركين ، وهللت المدينة ، وخرج الناس فى الطرقات والشعاب وصعدوا على البيوت ، والجميع يقولون :

الله أكبر ... جاء رسول الله
الله أكبر ... جاء محمـــد
الله أكبر ... جـــاء محمـــد
الله أكبر ... جاء رسول الله .

هذا ما جاء فى الصحيحين بسند عن أبى بكر رضى الله عنه .

وعن عائشة ـ أم المؤمنين رضى الله عنها ـ أن النساء والصبيان والولدان كانوا ينشدون :

طلع البـــدر علينـــا ... من ثنيـــات الوداع
وجب الشكر علينـــا ... ما دعـــا للـــه داع
أيهـــا المبعوث فينـــا ... جئت بالأمــر المطـاع

وركب عليه الصلاة والسلام ناقته « القصواء » ، والمؤمنون يتزاحمون على زمامها ، والأنصار يعترضون طريقه ، يسأله كل واحد

منهم أن ينزل عنده فيقول مشيرا الى ناقته : « خلوا سبيلها فانهـا مامـورة » .

فخلوها حتى بركـت عنـد مربد لغلامين يتيمين من بنى « مالك بن النجار « كانا فى حجر « أسعد بن زرارة » فى قول ، وفى حجر « معاذ بن عفـراء » فى قول آخـر ، فقال (ﷺ) ، « هذا ان شاء الله المنزل » .

ثم ابتاع المربد ولم يقبله هدية ، ثم بنى مسجده مكانه . وكان يشاركه الأنصار والمهاجرون فى نقل اللبن .

وكان نزوله عليه السلام فى دار أبى أيوب الذى جاءه وقال له : « ان منزلى يارسول الله أقرب المنازل اليك ، فانقل رحلك الى ، قال « نعم » . ثم سأله رجل أين الرحل ؟ » قال : « ان الرجل مع رحله حيث كان » .

وكان فى كل بيوت الأنصـار خير كما جـاء فى الحديث الشريف ، وقد ذكر ابن كثير فى السيرة أنه ثبت لجميع من أسلم من أهل المدينة (وهم الأنصار) « الشرف والرفعة فى الدنيـا والآخـرة » .

ولقد شرف النبي الأنصار ، اذ قال فيهم :

« لولا الهجرة لكنت امرءا من الأنصار ، ولو سلك الأنصـار واديا وشعبا لسلكت وادى الأنصار وشعبهم ... الأنصار شعار والناس دثار » .

فطوبى لأهل المدينة ما حباهم به نبي الرحمة الصادق الأمين !.

وطوبى للمدينة اذ اتخذها عليه الصلاة والسلام دار هجرة ومستقرا ! .

وطوبى لها اذ حدث ـ وهو الصادق الأمين ـ فقال : «ان الايمان ليأرز الى المدينة كما تأرز الحية الى جحرها » .

وكانت الهجرة ايذانا بأن الله عز وجل أراد لدينه أن يعلو رغم كيـــد الكائدين وافك المنافقين وأباطيـــل المغترين ومن فى قلوبهم مرض .

ووضعت الهجـــرة حدا لاستعباد الانسان لأخيه الانسان ، اذ المؤمنون اخوة لافضل لواحد على الآخر الا بالتقوى والعمـــل الصالح ، ولايخرج الصالح الا صـالحا : عمـــلا كان أو كلمـة **(ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار)** .

وكانت الهجرة بداية عصر جديد صفق له التاريخ ، وزغردت استغرق سنوات سبقتها انصرف فيها للدعوة لدين الله الحق ، ونبذ الشرك ، وهدم الكفر ، ومحاربة الظلم ، والقضاء على كل ماينزل الانسان من مكانته الكريمة التى أرادها له الله جل جلاله .

وكانت الهجرة بداية عصر جديد صفق له التاريخ ، وزغردت الدنيا باكتمال فرحتها بالدين الذى ارتضـــاه الله لخلقه منذ أن برأ الخليقـة .



فان تسأل متى كانت الهجرة ؟ جاءك الجواب بأنها كانت يوم الاثنين الثـــانى عشر من ربيـــع الأول ، واتخذها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بداية للتاريخ الاسلامى يؤرخ بها ، فانقضى بذلك حتى الآن خمسة عشر قرنا من الزمان وبضع سنين ، وها هو ذا القرن الخامس عشر قد أطل على العالم ليكون باذنه تعالى قرن نهضة شاملة وعز للاســلام ، وأخوة تامة يفىء الجميع الى ظلها الوارف الظليل .

وقد أدت الهجرة الى استقرار النبى عليه الصلاة والسلام فى المدينة هاديا وراعيا ومدبرا ومخططا ، كما أدت الى متابعة مؤمنيها له متابعة لايشوبها الرياء ولا تعرف النفاق ، وكان هو القدوة كما شاءه ربه ، ثم قام بتدبير أمور مجتمع أهل المدينة وتنظيم أحوالهم ، وترتيب معاملات بعضهم مع بعض كأخوة فى الله ، ومع من يعيشون بين ظهرانيهم مسلمين كانوا أو غير مسلمين ، تجمعهم الانسانية ولكل منهم ما للآخر ، وعليه ما عليه !!

التآخى بين المسلمين ضرب من الابداع للمعايشة السلمية :

ولقد شـــهدت المدينة المنورة بعد خمســـة أشهر فقط من السنة الأولى من ذلك القرن الأول مشهدا جديدا ألا وهو ارســـاء أصول نظام لم يعرف العالم له مثيلا ، وأعنى به نظام التآخى بين المهاجرين والأنصار ، فكانوا فى الله أخوين أخوين ، وكانوا جميعا أخوة متحابين وهى مؤاخاة لم يعرف لها شـــبيه ، قامت على الحق والمواساة ، ولا تقيم وزنـــا لفروق اللون والجنس واللســـان ، ولا لدرجة المرء من الثراء أو الفقر ، فالمؤمن يفسح عن طيب خاطر فى داره لأخيه المؤمن ، ويجعله يشاركه أمواله .

وقد أدت هذه المؤاخاة الى مبدأ جديد هو التعاون بين طبقات المجتمع فى ظل سلام شامل ينعم فية المرء المؤمن والذمى ، ويأمن

على نفسه ، مالم يخفر ذمة ، أو ينكث عهدا ، أو يخن أمانة ، أو يدل على عورة تساعد مشركا أو عدوا » .

النبى (صلعم) يوادع اليهود ويربط بينهم وبين المسلمين :

ولقد التفت رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ الى اليهود بالمدينة فكتب لهم كتاب موادعة يحدد فيه العلاقة بينهم وبين المسلمين ، وعاهدهم أن من تبعه منهم فان له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .. وأنهم ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وان لهم دينهم وللمسلمين دينهم .. وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .. وأن بينهم النصر على من دهم يثرب .. وأنه لايجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأنه من اعتبط مؤمنا قتلا عن بينة فانه قود به الى أن يرضى ولى المقتول » .

ويعتبر كتاب الموادعة هذا ــ وهو أطول مما نهبناه هنا وأشمل لكل أمور المعايشة السلمية ــ أول دستور منظم واع ، فصل فى دقة بالغة قواعد المعاملات على مختلف صورها ، ومن ثم كفل هذا الدستور ــ منذ خمسة عشر قرنا ــ ما يطلق عليه فى عرفنا اليوم « الحرية العامة » ، على ألا يكون فى هذه الحرية مساس أو ضرر بالآخرين .

وان هذا الكتاب ليكاد أن يكون أشمل من كل الدساتير التى عرفتها الانسانية فى غابرها وحاضرها فى تنظيم المجتمع بطوائفه وطبقاته ومذاهبه ، ومعاملات الناس بعضهم مع بعض من أجل اقامة مجتمع سليم يسوده الحب والاخوة .

★★★

ولقد شهدت هذه الفترة من مطلع القرن الأول للهجرة بدأ الأذان للصلاة ، يجمع المؤمنين اليها فى أوقاتها ، اذ كانت على

المؤمنين كتابا موقوتا · وللأذان قصة فقد احتار المسلمون كيف يكون جمعهم للصلاة فى وقتها : أيكون بالبوق كما يفعل اليهود ··؟ أم بالناقوس كما يفعل النصارى ·· ؟ أم بالدف كما كان عند الـــروم ؟

واقترح البعض راية ترفع فيراها الناس فتقبل جموعهم الى الصلاة · لكنهم انصرفوا عن هذا الرأى ، ثم كادوا أن يجتمعوا على الصلاة بالناقوس ، لكنهم ما لبثوا أن نبذوا هذه الفكرة أيضا ·

ثم أنقذهم من حيرتهم رؤيا صادقة رآها « عبد الله بن زيد بن ثعلبة » فى السنة الأولى للهجرة بعدما شيد رسول الله مسجده ، اذ جاءه هاتف فى نومه فدله على ما هو خير من الناقوس وخير من البوق وخير من كل ما يصنع غير المسلمين ··· دله هذا الهــاتف على الأذان كما هو الآن :

الله أكبر ····· الله أكبر
أشهد أن لا اله الا الله ···· أشهد أن لا اله الا الله
أشهد أن محمدا رسول الله ··· أشهد أن محمدا رسول الله
حى على الصلاة ··· حى على الصلاة
حى على الفلاح ···· حى على الفلاح
الله أكبر ···· الله أكبر
لا اله الا الله ·

وقص « عبد الله بن زيد بن ثعلبة » الخبر على الرسول المختار ، فنعت رؤياه « بالحق » ، وأكرم به من نعت صادق يقوله الصادق المصدوق · ثم أمره أن يلقى بما ذكر الى بلال ليؤذن به لأنه « أندى منه صوتا » ·

هكذا كان خبر الأذان ومازال كما كان ، وسيظل على ما هو عليه حتى يرث الله الأرض وما عليها .

يسمعه المؤمنون فتطرب له قلوبهم ، ويسعون للوقوف بين يدى الله جل جلاله خاشعين .

انه النغم العذب ينساب من الأسماع الى القلوب .

وانه لنداء الايمان والتوحيد وتعظيم الله ، تتفتح له افئدة قوم اتقوا الله حق تقاته . وآمنوا بالله ربا لا شريك له ، وبمحمد رسولا ، وبالاسلام دينا .

التنظيمات والتشريعات فى مطلع القرن الأول للهجرة والتوجه شطر البيت الحرام :

ولقد حفلت السنوات الأولى من مطلع القرن الأول للهجرة بالتنظيمات والتشريعات الهادية ، ولعل من أكبر الأحداث وأضخمها ما وقع فى السنة الثانية على رأس ستة عشر شهرا من مقدمه الزكى الى المدينة ، ألا وهو صرف القبلة فى الصلاة الى بيت الله الحرام وذلك ليلة النصف من شعبان ، وكان المسلمون قبل ذلك يتجهون فى صلاتهم الى بيت المقدس ، وقال البعض بل كان عليه الصلاة والسلام يصلى مستقبلا القبلتين معا ، فيجعل الكعبة بينه وبين بيت المقدس حتى نزل قوله تعالى : (**قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ، وان الذين اوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون**) .

ولقد أزعج اليهود صرف الله القبلة الى بيته الحرام ، وراحوا يقولون : « كيف يزعم محمد أنه على ملة ابراهيم ودينه ثم يولى عن القبلة التى كان يتجه اليها من قبل » .

فألجمهم الله تبارك وتعـــالى اذ أنزل فيهم قوله : **(سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قل لله المشرق والمغرب ، يهدى من يشاء الى صراط مستقيم)** .

وقال جل من قائل : **(ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، « وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شـطره »** .

ومنذ ذلك التاريخ يتجه المسلمون فى صلاتهم أنى كانوا الى بيت الله الحرام .

فرض الصوم على المسلمين وزكاة الفطر وصلاة العيد :

كذلك فرض الله فى هذه الفترة الصوم ، فكان أحد أركان العقيدة ، واذا كان كل عمل ابن آدم له فالصـــوم لله تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ، أياما معدودات فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ، فمن تطـوع خـيرا فهو خير له وان تصـوموا خـير لكم ان كنتم تعلمون** (١) .

كذلك فرضت زكاة الفطر وصلاة العيد .

ومن هذا نلاحظ أن الهجرة أدت الى ظهور تشريعات وتنظيمات اسلامية وفرت للمجتمع الاسلامى قواعد الحياة الفاضلة .

---

(١) البقرة ١٨٣ .

بناؤه (صلعم) المسجد النبوى الشريف :

ثم بنى عليه الصلاة والسلام مسجده الطهور ، وكان كل شيء فيه ينم عن البســـاطة المتناهية حتى ان ارتفاعه لم يكن يزيد عن ارتفاع قامة الرجل ، ففى الأثر أنه أراد من أصحابه أن يبنوا له عريشا كعريش موسى : « ثمامات وخشبات ، وظلة كظلة موسى عليه السلام » ، فسألوه وما ظلة موسى يا رسول الله ؟ قال « كان اذا قام أصاب رأسه السقف » ، فكان ما أراده ٠

وكانت الظلة من الجريد على قوائم من جذوع النخل ، وكان عليه الصلاة والسلام يعمل فى البناء بنفسه ويشارك المسلمين فى حمل الحجارة على صدره ، فقال أحد أصحابه بيتا من الرجز أخذ يردده هو ومن معه وهم يعملون في البناء ، مما يدل على حبهم للنبى حبا فوق حبهم النفس والولد :

لئن قعدنا والنبى يعمل
لذاك منـــا العمل المضـــلل

وكان عمـــله فيه بيديه الطاهرتين درســـا فى أن العمل « شرف » ، وأنه لا ينبغى أن يقعد بالانسان جاه ولا مال ولا رفعة قدر عن أن يعمل ويكد ٠ وقام المسجد النبوى الشريف كأبســـط ما يكون ٠

لكنه قام ليكون مجمعا للصلاة ، وندوة للمؤمنين ، ومدرسة للقرآن الكريم ، ومعهدا للفقه والحديث ، ومنبرا يعرف الجميع منه ما يجد من أمور قد تجاوز حدود المسجد المكانية وحدود المدينة الجغرافية تأكيدا لعالمية الاسلام ، وانه لملتقى المؤمنين : (**انما يعمر**

مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) .

اذا كانت الدعوة للاسلام قد أقضت مضجع قريش ، واذا كان هناك من آمنوا به رغم ما أنزلته قريش بالمسلمين من عذاب وتشريد وايذاء الا أن الهجرة زلزلت أركان المجتمع القرشى ، وأدرك ملؤها أن هذا الموقع الجديد يمكن أن يفسح المجال للدعوة الالهية للانتشار ، فيسمع المسلمون صوتهم للعرب أجمعين ، وقد يتعداهم الى غيرهم ممن جاوروهم واختلطوا بهم . يضاف الى هذا أن المدينة المنورة تقع على الطريق الذى تسلكه قوافل قريش المحملة بالتجارة والأموال والماضية الى الشام أو القادمة منه لتصل الى اليمن ، ويصبح من اليسير على المؤمنين ــ وقد تآخوا مع أوس المدينة وخزرجها ــ أن يضايقوا هذه العير .

أدركت قريش فى قرارة نفسها أن المؤمنين ان غنموا العير فبضاعتهم ردت اليهم .

الم تخرجهم قريش من مكة وحملتهم على أن يخلفوا وراءهم كل شىء ؟ .

ألم يكن من المسلمين من هم أصحاب ثروة ومال فتركوا وراءهم ثرواتهم وأموالهم ؟ .

الم تغتصب قريش كل ذلك لنفسها ظلما وعدوانا ؟ .

وصدقت قريش فى انزعاجها ، ووقع الذى كانت تخافه وتخشاه ، فقد شهد العقد الأول من الهجرة سرايا الاسلام وغزواته .

وكان فاتحة ذلك بضع سرايا عقد فيها النبى ألوية لحمزة بن عبد المطلب ثم لعبيدة بن الحارث ثم لسعد بن أبى وقاص ، وأعقب

ذلك وقعة بدر التى كانت في شهر رمضان المبارك وكانت الخطوة الأولى فى طريق النصر فقد زلزل هذا اليوم بنيان الكفر بمصرع سبعين من أكابر أهله ، وأسر مثلهم ، فعز على قريش ما أصابها وخلفت الهزيمة مرارة فى حلقها لم تسغ لها الحياة معها ، وكان لها صداها المروع عند اليهود الذين ودوا ـ رغم أنهم أهل دين وكتاب ـ لو انتصرت قريش الكافرة حتى قال واحد من كبار رجالاتهم « وهو كعب بن الأشرف » حين سمع بمن هلك من المشركين « لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظاهرها » ، ثم راح هو وقومه يثيرون كفار مكة على المؤمنين ويؤلبون الناس عليهم وينالون من المهاجرين والأنصار ، وبذلك ظهرت العداوة مكشرة عن أنيابها عند كفار قريش ويهود يثرب والمنافقين ، وترتب على ذلك سلسلة من الأحداث الضخمة كيوم « أحد » الذى كشف القناع عن المنافقين بقيادة « عبد الله بن أبى السلولى » الذى أظهر الاسلام بلسانه ، وجهد أن يخفى نفاقه فما أفلح ، وما علم أن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم ٠

لقد خرج النبى عليه الصلاة والسلام فى قرابة ألف لصد قريش عند « أحد » لكن « عبد الله بن أبى » جمع المنافقين ممن كانوا فى العسكر الاسلامى وكانوا قرابة ثلاثمائة رجل ورجع بهم متذرعا بأسباب واهية كاذبة ٠٠ وكشفت وقعة أحد عن جدوى الطاعة لامام المتقين الذى أوقف الرماة فى موضع يحمون به ظهور المؤمنين المحاربين وأمرهم الا يزايلوا مكانهم هذا أبدا مهما كانت الظروف ، ولكن البعض منهم خالفوا أمره وقد أوشك النصر أن يكون لهم اذ طمعوا فى غنائم الكفار المنهزمين ، ففتحوا بذلك ثغرة فى ظهور المسلمين هاجمهم منها المشركون الذين كانوا قد فروا على وجوههم مغلوبين على أمرهم ، فرجعوا وباغتوا أهل الايمان ، فرجحت كفة الشرك ، وشالت كفة المسلمين ٠٠ وما أتى المسلمون الا من أنفسهم ٠

غزوة الأحزاب ثم صلح الحديبية :

ثم كان ما كان من غزوة الأحزاب وان لم ينجح اليهود فى غدرهم بالمؤمنين وفرق الله شمل الأحزاب ولم تنفع اليهود عربدتهم بل كانت نكالا عليهم ، وما يوم قريظة ببعيد .

وكان بين المسلمين وقريش صلح عرف بصلح « الحديبية » فى السنة السادسة للهجرة ، اذ خرج النبى والمسلمون ومن لحق بهم من العرب فى ذى القعدة معتمرين لا يريدون حربا ، وساقوا معهم الهدى فكرهت قريش أن يدخلوا مكة « وخرجت ومعها العود المكافيل قد لبسوا جلود النمور » ، فكره النبى محاربتهم والتمس طريقا آخر ، فرآه فى الطريق رجال من قريش كانت قد بعثتهم ليوافوها بخبر المسلمين فأدركوا أنهم لا يريدون حربا ، فقالوا لها ذلك ولكنها اتهمتهم واستطالت عليهم بغير الحق وقالت « حتى وان كان محمد جاء لا يريد قتالا ، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ، ولا تتحدث بذلك العرب » ، فدلوا بذلك على أنهم قد أخذتهم العزة بالاثم ، وانهم يكابرون ويلجون فى عتو ونفور رغم أن الحق أبلج .

وتوسل النبى العظيم بالرسل الى قريش فمازادها ذلـــك الا جهالة ، فبعث اليهم أخيرا بعثمان بن عفان فطالت غيبته عندهم حتى ظن المسلمون انهـــم قتلوه ، فقـــال النبى « لا نبرح حتى نناجز القوم » .

فبايعه المؤمنون بيعة الرضوان تحت الشجرة ورضى الله عن المبايعين .

(لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحا قريبا ومغانم كثيرة ياخذونها وكان الله عزيزا حكيما) (١) .

---

(١) الفتح ، اية ٢٧ .

ثم رأت قريش أن تسعى فى الصلح فأنفذت رجلا من كبارها هو « سهيل بن عمرو » فتقرر الصلح « على أنه من أتى محمدا من قريش من غير أذن وليه رده محمد عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها دخل فيه ... » .

واتفق الجانبان على ألا يدخل المسلمون مكة على قريش عامهم هذا ، فلما كان العام التالى دخلها النبى بأصحابه وأقام بها ثلاثا ليس معه ولا مع الذين معه سوى « السيوف فى القرب » . ثم نحر النبى هديه وحلق فتواثب « أصحابه وفعلوا ما فعل » ، فنحروا ، أما عن شعر الرأس فقد قصره بعضهم وان حلق أكثرهم : (**لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا**) (١).

وكان صلح الحديبية فتحا كبيرا حتى قال بعضهم « ما فتح فى الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ... لم يعلم أحد بالاسلام يعقل شيئا الا دخل فيه ... ودخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الاسلام قبل ذلك أو أكثر » .

فتح خيبر وجعلها فيئا بين المسلمين وتوالى النصر ثم فتح مكة :

وفتح الله على المسلمين فيما فتح « خيبر » اذ نزلوا على غرة بساحة أهلها فساء صباح المنذرين ، ولجأ يهود خيبر الى حصونهم ظنا منهم أنها مانعتهم من الله فأتاهم أمر الله من حيث لم يحتسبوا ، وقذف فى قلوبهم الرعب ، وشرع المسلمون يطهرون حصون القوم واحدا بعد آخر منهم ، وجاء أصحابها الى النبى يسألونه ان يحقن

(١) الفتح ، ١٨ .

دماءهم فاستجاب • وكانت خيبر « فيئا » بين المسلمين لأنها فتحت عنـــوة •

وكان فتحها بعد صلح الحديبية الذى كان نقض قريش أياه أول خطوة لفتح الفتوح •

كما كانت عمرة القضاء معبدة الطريق لتطهير مكة من كل شرك وذلك فى سنة ثمان للهجرة ، ثم أسلمت قريش وعلى رأسها كبارها الذين كانوا حربا على الرسول ومن آمن بنبوته ، وفتحت مكة أبوابها لمحمد بن عبد الله الذى أخرجته بالأمس ، فلما دخلها طاف بالبيت سبعا على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده ، ثم فتحت له الكعبة فدخلها وطهرها ، ثم خطب خطبـة الوداع وأهل مـكة شـهود •••

وسن بها للناس سنة العفو عند المقدرة •

وذكرهم أن الله تعالى أذهب بالاسلام عن القوم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب ، ثم من النبى على قريش ــ وهو فى أوج القوة وذروة البأس ــ بالحرية ، غافرا ما كان لهم من ماض لم يتركوا يوما منه الا وكانوا يكيدون له فيه وهو فرد أو فى جماعته المؤمنين ، لا سلاح لهم الا رعاية الرحمن ، ثم قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء !! » •

عبارة قصيرة جامعة وعاها التاريخ ! ولكن هل وعاها من بعد ذلك الفاتحون أو الغالبون فى العالم ؟؟ •

لقد كان هذا غاية التسامح والعفو (**وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم**) •

انه عفو حرى بأن يصدر عن الرسول المصطفى الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه (**ياأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين**) •

لقد كان هناك المشركون والكفار والمنافقون يتربصون الدوائر للاسلام ، فكان غزو المسلمين ليهود بنى قينقاع اذ نقضوا عهدهم مع النبى عليه الصلاة والسلام ، فأخرجوا من المدينة ورحلوا الى الشام ، ثم كان غزو النبى لبنى النضير وخروجهم الى الشام وخيبر ، وتآمر أعداء الاسلام تآمرا أسفر عما عرف بغزوة « الخندق » فى السنة الخامسة للهجرة ، وكان النصر للمســـلمين ، وكانت غزوة بنى قريظة فى العام نفسه لنقضهم العهد الذى عاهدوا عليه المسلمين حين حالفوا قريشا ٠

وتعتبر السنوات منذ الهجرة حتى فتح مكة سنوات تقليم أظافر الكفر والشرك ، وفتح الله على المؤمنين كثيرا من الفتوح فكان من أهمها فتح الطائف فى السنة الثامنة للهجرة ، ويوم مؤتة الذى شهدت ساحته المسلمين يصطدمون بالساسنة والروم ، ثم غزوة تبوك وعلى رأسها امام المتقين ٠

ولعل من أكبر الانتصارات المعنوية ما كان فى السنة العاشرة للهجرة مما عرف بعام الوفود ، اذ جاءت النبى عليه الصلاة والسلام وفود من شتى القبائل العربية تعلن طاعتها له ٠

على أن ذلك لم يمنع قوما من أهل الرأى الفاسد والأطماع القذرة من معارضة الاسلام فى حياة المصطفى وبعد موته فيما عرف بفتنة الردة التى طالت ، ولكنها لقيت الهزيمة النكراء فى البحرين وفى « بزاخة وعمان وحضرموت » لتعود للاسلام وحدته وتتجه قوته لفتح العراق والشام ، واصطدم المسلمون بالفرس والروم ٠ وتشهد السنة الثالثة عشرة للهجرة انتصار المؤمنين فى « مرج راهط » ويفتح الله عليهم « بصرى » ، ثم تكون هزيمة الروم فى « أجنادين » ، وتتوالى الأحداث والأيام الغر كيوم « أرهاب » ويوم « أعماس » ، ثم يلى ذلك فتح دمشق فى رجب سنة أربع عشرة للهجرة الشريفة ٠

هذه نظرة سريعة وقد تحتاج لوقفة فى بعض الأحداث ٠

المسلمون يتصلون بعالم يومهم للتعايش وردود الفعل المختلفة :

كان دخول النبى عليه الصلاة والسـلام مكة واسلام قريش أوضح آية على انتصار الاسلام ، وايذانا بانتشار الدعوة ، ودليلا بينا على قدرة المسـلمين على الاتصـال بالعالم لتعريفه معنى الاسلام • غير أنه لم يكن من اليسير على بعض الناس أن يتقبلوا هذا الدين : جاهلية منهم وتعظما بالماضى •

ثم كان هناك « الروم » وعلى رأسهم الامبراطور « هرقل » يتتبعون أخبار الدعوة حتى أثر عن قيصرهم هذا أنه قال بعد أن علم الكثير من خبر الرسول عليه الصلاة والسلام من أبى سفيان « ان كان ما تقول حقا فسيملك محمد موضع قدمى هاتين » •

وكان للروم أيضا اتصالات مريبة تهدف الى تأليب الناس على الاسلام فاحتضنوا رجلا حاقدا على الاسلام والمسلمين هو « أبو عامر الراهب » الذى كتب الى المنافقين والحاقدين على الدعوة الاسلامية بايحاء من الامبراطور البيزنطى أن يتخذوا لهم مكانا توافيهم فيه كتب ورسل هذا الذى يدعى بالراهب وما هو بالراهب ، ويحمل هذا المكان الطابع الاسلامى فى ظاهره درأ للشبهات ويعدهم بتأييد هرقل لهم لمحاربة المسلمين ، فبنوا مسجدا بجوار قباء وما هدفهم الا البغى ، وسألوا الرسول الكريم (صلوات الله وسلامه عليه) وهو يتجهز لتبوك أن يصلى فى مسجدهم هذا : نفاقا منهم ومكرا ، ولكن الله كشف سترهم لنبيه المختار وندد بما فعلوا (**والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وارصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن ان اردنا الا الحسنى والله يشهد انهم لكاذبون**) (١) •

---

(١) التوبة ، آية ١٠٧ •

ثم علم المسلمون أن امبراطور بيزنطة الذى يطلقون عليه اسم « قيصر الروم » يحشـد الجيوش بالشام ليضرب الدين والمؤمنين ضربة أرادها أن تكون قاضية ، فرزق « أصحابه لسنة بتمامها ، وأجلب معه قبائل لخم وجذام وغسان وعاملة » ، فأعد النبى العدة واستنفر المسلمين وندبهم للخروج ، فكان تسابقهم فى الانفاق من أموالهم مبشرا بالخير ان شاء الله ، واستعدوا فى السنة التاسعة للهجرة للخروج الى الشام ، فتخاذل « ابن أبى » رأس المنافقين كدأبه ، وتخاذل معه زمرته متعللين بتعـلات واهية تكشف عن خبيئتهم وخبثهم ، فعرف من هو مؤمن ومن هو منـافق ، وقال الحق تعـالى : (**ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطؤون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين**) (١) •

وخرج المسلمون فى ساعة « العسرة » قاصدين تبوك فخافهم الروم فانسحبوا فزعا من أهل الايمان الذين عادوا الى المدينة بعد أن وادع النبى عليه الصلاة والسلام من كان على تخوم الروم من نصارى العرب •

★★★

ثم كان موسم الحج من العام التاسع للهجرة حيث وضعت نهاية لحج المشركين بتقاليدهم الجاهلية الذميمة الا أن يتوبوا توبة صادقة ويسلموا ، فلم يحج بعد هذا العام مشرك ولم يطف بالبيت عريان أبدا منذئذ •

وتلا ذلك اسلام الكثيرين ، أما الذين بقوا على دينهم فارتضوا الجزية وأن تكون لهم ذمة ، ونزلت سورة التوبة مبصرة المؤمنين بكل

---

(١) التوبة ، اية ١٢٠ •

ما يتعلق بأمورهم تجاه أعداء الملة ، ثم ما كان بعد ذلك من وفود العرب الى المدينة فى حجة الوداع حيث أخذ المسلمون عن الرسول عليه الصلاة والسلام مناسك حجهم ، وخطب خطبته المعروفة بخطبة الوداع التى تضمنت كثيرا من أصول الحياة الاسلامية الكريمة ، كحرمة الديار وحفظ الأعراض والأموال ومنع الربا والكف عن طلب الثأر الى غير ذلك من أركان الحياة السوية ، فاستقام الأمر للدين **(اليوم اكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)** .

وأخذ عليه الصلاة والسلام يعد العدة لبعث يكون بقيـادة « أسامة بن زيد » « ليوطىء الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين » ، لكن أم به المرض ورفعه الله اليه فى شهر ربيع الأول .

وفاته (صلعم) وبدء خلافة الراشدين :

وكاد خبر موته ان يذهب برشد البعض فلم يصدقوا أن يجرى عليه الموت .

الا ترى الى عمر بن الخطاب ـ وهو من هو فى ايمانه ـ ينكر أن يموت النبى (صلعم) فيرده الصديق رضى الله عنه ، اذ تلا على مسمعه وعلى الناس قول الحق تبارك وتعالى : **(وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل افئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيـــه فلن يضر الله شـــيئا وسـيجزى الله الشـــاكرين)** .

فهدأت النفوس بعد اضطراب ، وحينذاك بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الاسلام غاب فيها رسول الله (صلعم) بجسده وان لم تغب تعاليم الدين الذى هو مسلك المسلم . فقد اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، وكاد الناس أن يختلفوا فيمن يخلفه عليه

الصلاة والسلام حتى قام الفاروق رضى الله عنه فبايع بالخلافة أبا بكر رضوان الله عليه ، وحسم الأمر وأنطفأت نار الشر ، وكان أول ما عمله أبو بكر — وقد تولى أمر المسلمين — أن بعث من ينادى ألا يبقين أحد بالمدينة من جند أسامة الا خرج الى عسكره ، كذلك حدد أبو بكر خطته فى الحكم بأنه « متبع وليس بمبتدع » ، وطلب الى الناس أن يتابعوه « ان استقام ، وأن يقوموه ان زاغ » .

وبتولى أبى بكر الامامة بدأت خلافة الراشدين وذلك لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة أحدى عشرة للهجرة ، وقد ختمت هذه الخلافة بالامام على كرم الله وجهه فى رمضان سنة أربعين .

وتميزت فترة الراشدين فى مستهلها بتأديب المرتدين من العرب الذين كانت أوليات ظهورهم فى أخريات أيام الرسول (صلعم) وكان منهم « مسيلمة الحنفى الكذاب » فى بنى حنيفة . وكان « الأسود العنسى » باليمن ، وان قيل ان أمره انتهى قبل وفاة رسول الله بيومين ، وكان « طليحة بن خويلد » فى بنى أسد ، وان انتهى الأمر به الى مافيه صلاحه وشارك فى الفتوحات ، ودالت دولة « سجاح » ثم كانت لها خاتمة غير متوقعة . وظهر الى جانب هؤلاء كثيرون فى غير هذه النواحى ، وكانت حرب الردة كاشفة القناع عن قوة الاسلام ، بل انها زادته ثباتا ورسوخا ، وتلا ذلك الفتوحات الاسلامية المجيدة فى العراق بقيادة « المثنى بن حارثة الشيبانى ، وفى الشام وفلسطين والأردن بقيادة « أبى عبيدة ابن الجراح » و « عمرو بن العاص » و « شرحبيل بن حسنة » على التوالى ، ثم فتحت الحيرة صلحا ، ثم كان انتصار المسلمين على البيزنطيين فى « وادى عربة » ، وقد تمت هذه الانتصارات المباركة فى عامين وبضعة أشهر من خلافة الصديق الذى خلفه الفاروق (١٣ — ٢٣) هـ . وفى عهده التقى المسلمون بالفرس لقاء أسفر عن مقتل « رستم » ومن خلفه ، ثم تم للمسلمين فتح

« المدائن » على يد « سعد بن أبى وقاص » الذى صلى بجنده فى ايوان كسرى ، وتلا ذلك وقعة « نهاوند » التى نعتها العرب بفتح الفتوح ، وأما فى الشام فقد اصطدام المسلمون بالبيزنطيين الذين رأوا الخير فى الانسحاب فغادورهـا بقيادة امبراطورهم هرقل ، كما تم فتح مصر .

★★★

محاربة المرتدين دعاة الفتنة :

وكانت حركة الردة عنيفة فى ضراوتها ، كريهة فى شراستها ، واسعة فى انتشارها ، وهناك من وضع التاج على رأسه من العرب كالنعمان بن المنذر بالبحرين ، ولقيط بن مالك بعمان ، ووجد الاسلام تحديا فيمن منعوا الزكاة ظنا منهم انها أتاوة ، ولكن هذه التحديات وجدت فى أبى بكر كما رأينا حزما وعزما فى مواجهتها والقضاء عليها ، بفضـــل حرارة وصدق ايمانه ، وبمن هيأه الله للاسلام فى هذه اللحظات العصيبة الحرجة من قادة مؤمنين أخلصوا وجاهدوا ، حتى لنرى أن من هؤلاء المرتدين من عاد للدين تائبا كطليحة الذى شارك فى الفتوح زمن الفاروق عمر رضى الله عنه .

وكانت سنة أبى بكر الا يحارب المرتدين حتى يدعوهم الى الرجوع عن كفرهم فان استجابوا للحق واتبعوا الهدى كان بها والا قاتلهم .

ولقد كثر السبى والأسر فى أهل الردة الذين ردهم عمر الى عشائرهم حين ولى الخلافة كراهية منه أن يصير السبى سنة على العرب فيسىء اليهم ويحط من قدرهم .

انتشار الاسلام خارج شبه الجزيرة وزوال دولة الأكاسرة ودخول المسلمين :

ولقد شهد القرن الأول من الهجرة انتشار الاسلام خارج حدود شبه الجزيرة العربية ، وان أبرز ما امتاز به هذا الدين هو سرعة انتشاره فى البلاد المجاورة والقاصية على السواء ، وامتازت هذه السرعة بأن قام أهالى هذه البلاد المفتوحة ـ منذ دخول الاسلام ـ بحركة التوسع ذاتها والاقبال على هذا الدين اقبالا تمثل فى انه لم يمض جيلان أو ثلاثة حتى كان منهم العلماء والفقهاء والمحدثون ٠

★★★

فاذا نظرنا الى انتشار الاسلام وجدنا أن راياته رفرفت خفاقة بالنصر على العراق وفارس ، ودخل المسلمون المدائن ونكس الكفر أعلامه ، حتى اذا كانت سنة احدى وثلاثين للهجرة زالت تماما دولة الساسانيين : أكاسرة فارس ، وتمزق ملكهم ، ورددت البلاد من أدناها الى أقصاها كلمة التوحيد ، وحلت فى كل ناحية شهادة أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ٠

وكان من الفتوح العظيمية ما تم على يد « حبيب بن مسلمة » الفهرى من دخول المسلمين أرمينية ، ونطالع هذا القائد فى بعض كتب التاريخ يلقب بلقب اختص وهو « حبيب الروم وحبيب الدروب » ، لكثرة ما حفظه له تاريخ الحروب من دخوله بلاد هؤلاء واختراقه تلك النواحى ، ولما كانت خلافة عمر ولاه أرمينية وأذربيجان ، ثم كان فتح خراسان على يد « عبد الله بن عمر » ، الى جانب فتح « طخارستان » و « مروالرز » و « الطالقان » و « بلخ » على يد « الأحنف بن قيس » الذى يقال انه أدرك النبى ولم يره ، ولكن يقال أن النبى (ﷺ) دعا له وقال « اللهم اغفر للأحنف » ، وكان الأحنف « أحد الدعاة العقلاء » :

المسلمون والبيزنطيون ووقعة اليرموك ثم فتح مصر :

كذلك كان اصطدام المسلمين بالبيزنطيين في الشام ، وتجلت براعة القيادة الاسلامية في أمثال « خالد بن الوليد » و « المثنى بن حارثة » و « أبي عبيدة بن الجراح » و « عمرو بن العاص » و « شرحبيل بن حسنة » ، فلقد سطر هؤلاء سطورا رائعة وصفحات مشرفة في سجل الفتوحات لم تقترن بالعنت ولكنها اتسمت بما يدعو اليه الدين من حسن المعاملة واحترام الحرية الدينية حتى لمن ظلوا على معتقداتهم وآثروا أن يكونوا أهل ذمة ، ولم تمتد اليهم يد الفاتح بأي صورة من صور الاضطهاد ، وبقيت لهم كنائسهم ومعابدهم وهياكلهم يمارسون فيها علانية وجهرا عباداتهم ، حتى لقد نص في شروط الصلح المعروف بصلح الاسكندرية عام ٢٠ للهجرة والذى تم بين المصريين والعرب المسلمين على ألا يتعرض الأخيرون لمعتقدات أهل البلاد الدينية وأن تحترم الكنائس وتكون آمنة ٠

ولقد حفظ لنا هذه الشروط حنا النيقوسى ٠

وكانت وقعة اليرموك التى انتصر فيها المسلمون على الروم ومهدت الطريق وعبدت الأرض الى دمشق وبيت المقدس التى سلمها بطركها « سوفرانوس » الى الفاروق تقديرا لها وله ، فجاء الخليفة وكتب كتاب أمان لأهلها ٠

★★★

ولعل من أعظم الفتوحات التى كان لها أثر ضخم من النواحى الجغرافية والسياسية والدينية فتح مصر التى كانت ولاية رومانية ، وقد فتحها عمرو بن العاص ، وعلى الرغم من دفاع الروم عن الاسكندرية حاضرة البلاد اذ ذاك الا أنها استسلمت وانتصر العرب في حاضرة البلاد حين ذاك الا أنها استسلمت وانتصر العرب في كثير من المدن والقرى ، وعقد « المقوقس » كبير القبط ونائب القيصر الصلح مع المسلمين ، فامن النصارى على أنفسهم وكنائسهم

وأموالهم ومذهبهم الذى كان يختلف بعض الشىء عن مذهب بيزنطة الحاكمة ، وجرت الجزية على من لم يسلم وكانت تافهة قليلة ، فاطمأن أقباط مصر الى حياتهم الجديدة فى ظل الاسلام اطمئنانا افتقدوه أيام البيزنطيين النصارى ولم ينعموا به الا بعد اسلام مصر ·

★★★

فتح مصر ونتائجه العاجلة والدور المصرى فى السياسة العالمية :

كان من الأحداث الضخمة فى مسيرة التاريخ فى القرن الأول للهجرة فتح مصر وفتح الشام ، واذا كان الأول منهما قد أريد به تأمين حدود الشام برا وبحرا والمحافظة عليه من هجمة بحرية من جانب الروم الذين كانت أساطيلهم الحربية تمخر عباب البحر المتوسط حفاظا على الأقطار الخاضعة لهم فان فتح مصر الذى بدأ سنة ٢٠ هـ والذى استمر قليلا وسرعان ما استقرت دعائمه كان بداية تحول جذرى سياسى ودينى واجتماعى ، كما كان نقلة تاريخية لصالح العرب وأهل البلاد المفتوحة ، ولا نكون مجاوزين الحقيقة ان قلنا انه كان خيرا لكثير من الشعوب · واستمر هذا الخير موصــولا الى وقتنا الحاضر ، ولا نقول هذا انحيازا الى العرب والمسلمين ، ولا الى المكانة التى احتلتها مصر منذ ذلك الحين وأصبح لها ثقل فى كل جوانب الحياة ولكن نقوله من واقع مجريات الأحداث وتطورها من الناحية العمرانية التى ظلت موصولة على مدى القرون منذ ذلك الحين حتى الوقت الحالى ، وهى حضارة تضرب جذورها فى أعماق التاريخ وماضيه الى ما قبل الميلاد بعشرات القرون ، ومنذ ذلك الحين ومصر تلعب دورا أثبتت فيه أنها مرسية قواعد حضارة ، وان كانت فى بعض العصور السالفة للفتح العربى مجرد « أرض » خاضعة لسيطرة أجنبية من هنا وهناك ، و لاتزيد فى بعض الأحايين عن ان تكون مستودع تموين ومخزن غلال لهذه الدولة الأجنبية

أو تلك ، وكأن قيودا كانت تكبلها ، فلما استظلت بظل العهد الجديد انطلقت من أسرها لتكشف عن مخبوء قوتها الذاتية وتدل على أنها بناءة لا هدامة ، ومحررة لا مستعبدة ، تقدر قيمة الانسان كانسان ، أيا كان لونه أو جنسه أو عقيدته أو اتجاهه الفكرى والروحى ، كما انها كانت منطلقا لحركة تحررية تمثلت أقرب ما تمثلت فى البلد ذاته ثم فى الشمال الأفريقى ثم فى الجنوب حيث النوبة وما وراءها .

★★★

كانت مصر قبل الفتح العربى « أرضا » ليس لمن يعيشون على ترابها قيمة الا بقدر ما يعملون من أجل صالح الدولة الحاكمة المستقلة الغالبة ، وصادف أهلها المسيحيون أنواعا من العذاب تنصب عليهم من جانب الدولة الرومانية ، وبلغ هذا العذاب ذروته فى زمن امبراطور لم يترك فى نفس الشعب المصرى المسيحى الا كل صور الكراهية له ولما يمارسه على هذا الشعب من اذلال ، وأعنى به الامبراطور « دقلديانوس » ، حتى بلغت كراهية المصريين المسيحيين له ان أرخوا تقويمهم القبطى المعمول به فيما بينهم حتى الآن بجلوس هذا الطاغية المستبد الوثنى الظالم على عرش الامبراطورية الرومانية ، فكانت سنة ٢٨٤ سنة لا تمحى من ذاكرتهم وحفظها التاريخ .

الاختلافات المذهبية بين النصارى ومجمع خلقدونة ٤٥١ وصمود الأقباط :

ثم كانت الخلافات العقائدية المسيحية يوم صارت النصرانية دينا رسميا للامبراطورية الرومانية ، واختلف المسيحيون حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام ، وكثرت مجامعهم كثرة لم تؤد الا الى زيادة الشقاق ، كما صحب هذا الشقاق نوع آخر من الاضطهاد ، يصبه — فى بعض الأحيان — أصحاب السلطة وأولو الأمر

وهم مسيحيون ـ على رعاياهم ولكن بصورة أخرى ، وكثر الجدل واشتدت حدته ، وخرج أحيانا من مجال الحوار العقلانى الى ان انحط الى الحضيض ، ثم كان مجمع « خلقدونية » سنة ٤٥١ زمن الامبراطور الرومانى « مركيان » • ولكن البطركية المصرية وقفت موقف الصمود والاستقلال فاحترمت نفسها وتفكيرها مما أغضب القسطنطينية : شعبا وحكومة •

على أن هذا النزاع صبغ الكنيسة المصرية بصبغة محلية قومية ، ونستدل على هذه الروح الاستقلالية من كتابات « ساويرس ابن المقفع » أسقف الأشمونين المصرية ، كما نستدل على أن مصر استقلت بمسيحيتها وكونت لها اتجاها معينا فريدا ظلت محافظة عليه حتى وقتنا الحاضر ، ونعنى به المذهب القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح •

وتمضى السنون بعضها فى اثر بعض ، ولكن روح التباين بين عقيدتى الحاكم البيزنطى والمحكوم المصرى لا تزال على ما هى عليه حتى كان العقد الثانى من القرن السابع للميلاد حين تولى العرش البيزنطى هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١ م) الذى رحب به المصريون الأقباط ظنا منهم أنهم ملاقون الحرية فى التعبير عن عقيدتهم الدينية فى ظله ، لكنهم وجدوا أنفسهم مخطئين فيما ذهبوا اليه ، وشاءت الأقدار أن تعاصر هذه الفترة ظهور الاسلام الذى يأخذ فى الانتشار ، فيناطح دولتى الأكاسرة والقياصرة ، ويدرك كل ذى عقل سليم أن هذا الدين ليس بالذى يتخذ الاضطهاد وسيلته فى التعريف بنفسه ، ولكنه يأخذ بمذهب التسامح والتعايش السلمى مع شتى الأديان والعقائد والمذاهب والأفكار ، ومن ثم فانه حين يأتى عمرو ابن العاص لمصر فاتحا لم يجد من أهلها عداء بالصورة التى يمكن أن يتصورها المرء تجاه الفاتح •

ان الذين قاموا فى وجه عمرو بن العـاص وقاوموا تقدمه انما كانوا جنود الدولة البيزنطية ، ثم كان الالتحام الشديد بين الجانبين عند حصن « بابليون » فيما يعرف الآن بمصر القديمة ، وجرى قتال بين الجانبين استمر بضعة أشهر فتح الحصن بعدها أبوابه للعرب ، وعقدت بين الجانبين معاهدة هى أقرب ما تكون الى الهدنة منها الى المعاهدة وذلك سنة عشرين للهجرة وفى أواخر سنة من حكم هرقل ، الذى ارتضى هذه المعاهدة مؤقتا ولكن على كره منه ، وما كان له الا أن يرتضيها ، ثم ما لبث أن نقضها ، فانتقل مركز المقاومة والحرب الى الاسكندرية التى كانت عاصمة مصر اذ ذاك ، وكانت الحرب بين الجانبين عنيفة ضارية ، وان انتهت بهدنة جديدة وافق البيزنطيون بمقتضاها على مغادرة البلاد على شروط قبلها الطرفان ، ونجد تفصيل ذلك فى المصادر والأصول البيزنطية ، وكذلك فى المراجع العربية كالطبرى ٠ ومن نقل عنه ، وفى كتابات بعض الأقباط ، ونذكر منهم على سبيل المثال ابن المقفع الأشمونى ٠

فتح العرب لبرقة والاتجاه الى الغرب الافريقى فيما جاور مصر حتى الأطلسى ثم الى النوبة :

ونختصر القول فنذكر أنه فى أواخر هذه السنة (٢٠ هـ = ٦٤٢ م) بدأ العرب ــ وقد اطمأنوا لسلامة خلفيتهم وثبات الأرض تحت أقدامهم ــ يتجهون الى الغرب الافريقى ، بادئين بقرب النواحى جوارا لحدود مصر الغربية وأعنى بها « برقة » ٠ كما اتجه « عبد الله ابن سعد بن أبى سرح » الى الجنوب حيث النوبة المسيحية ، فعقد المسلمون مع ملكها معاهدة عرفها التاريخ بمعاهدة « البقط » يمكن الطالب التاريخ ان يطالعها فى فتوح مصر لابن عبد الحكم ثم فى بعض من تلاه من المؤرخين ٠

★★★

استقر الأمر للعرب المسلمين في مصر ، ونظروا فوجدوا أن أقباطها قد وقع عليهم من الاضطهاد ـ قبل الفتح ـ ما حمل أسقفهم المعروف ببنيامين ـ أو كما تسميه المراجع العربية أبوميامين ـ على الهروب والاختفاء من بطش البيزنطيين وحفاظا على عقيدته من اضطهادهم • وطالت مدة هروبه حتى جاوزت عقدا من الزمان بثلاث سنوات ، فما كان من القائد العربي ـ وقد استتبت له الأمور الا أن أعلن أنه يؤمنه على نفسه وعقيدته وأتباعه • ويشهد « ساويرس بن المقفع الأشمونينى » بأن « بنيامين » اطمأن الى هذا البيان فعاد الى أسقفيته ورعيته ، وعاد يصرف أحوال بيعته . فكانت فرحة قبط مصر براعيهم فرحة الأم عاد اليها ولدها الغائب بعد يأسها من رجوعه ، وحمد الجميع للمسلمين جهدهم وشكروا لهم يدهم ، وعمتهم الفرحة اذ أصبحوا آمنين فى أنفسهم وأموالهم وأعراضهم وملتهم ، مطمئنين الى ممارستهم عقيدتهم جهرا دون خوف أو توجس شر يأتيهم من الحاكم وأتباعه •

★★★

تاسيس الفسطاط والمسجد الجامع بمصر القديمة :

ولقد انصرف عمرو بن العاص ـ من بين ما انصرف اليه بعد أن استقرت الأمور فى مصر ـ الى البناء والتعمير فكان أول ما فكر فيه المسجد والعاصمة ، فأما العاصمة فقد أسس ما عرف بالفسطاط أول عاصمة اسلامية في مصر وأفريقية ، وكان ذلك اشارة صريحه بتنفيذ خطة تستهدف اقامة حكومة فى البلاد تحل محل الحكومة السابقة التابعة لبيزنطة ، التى تخالفها كل المخالفة : فى طابعها وادارتها وتنظيماتها •

ثم قسم عمرو الفسطاط الى « خطط » أنزل كل قبيلة من القبائل التى معه خطة معينة ، وهكذا أخذت الفسطاط تنمو عمرانيا

وتزداد كثافة سكانها لا سيما بمن سيفد اليها من العرب من شبه الجزيرة العربية ، مما يكون من أكبر العوامل التى ساعدت على استعرابها وصبغ البلد بالصبغة العربية ٠

واذا كان « المسجد » سمة كل مدينة اسلامية ـ صغرت هذه المدينة أو كبرت ـ فقد بنى « ابن العاص » مسجده الذى كان أول مسجد يقام فى أفريقية لتتوالى بعده المساجد يرتفع فيها الأذان بتوالى الفتوحات ، ويكون « المسجد » مكانا للصلاة ومدرسة ودار اذاعة لقرارات الوالى والخليفة ٠

ولقد ظلت الفسطاط عاصمة لمصر ، وتلتها ثانية وثالثة ورابعة ، وسنعود الى ذكر العاصمة الثانية لمصر فى ختام الثلث الأول من القرن التالى للهجرة ، كما سنعود الى المسجد الجامع فى ختام الثلث الثانى من القرن الثانى للهجرة ٠

★★★

وكان فتح الاسكندرية عام ٢١ هـ ايذانا بخطوة جديدة فى مسيرة تقدم الاسلام فى الشمال الأفريقى ، فقد بعث عمرو بن العاص بعقبة بن نافع لفتح برقة وفزان وودان ، وواكب ذلك زمنيا فتح أصبهان فى أقصى الشرق ، والدينور وهمذان والرى ٠

هذا ما كان من بعض الأحداث فى هذه الفترة القصيرة ، فاذا عدنا الى مصر رأينا أن العرب وجدوا من أقباطها كل مساعدة وترحيب تمثل على حد قول ابن عبد الحكم فى انضمام طائفة ليست بالضئيلة من مقدمي الأقباط الى الجيش الاسلامى فى زحفه على الاسكندرية ، بل ان بعضهم دخل فى الدين طواعية مما جعل كاتبا مسيحيا فى قرننا الحالى لأن يقول ان هؤلاء « رأوا فى الاسلام ما يجعل لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ويساويهم بالفاتحين فى

شرف محلهم ويجعلهم اخوانا لهم فى كل شيء » ، ولم يصل هذا الكاتب الى ما قال الا بعد دراسة متانية فاحصة للبلاد اذ ذاك وأحوال أهلها • وتقول مؤرخة محدثة هى سيدة كاشف « لقد أسلم كثير من المصريين فى أوائل الفتح وانضموا الى راية المسلمين فى محاربتهم الروم » ، وهل ادل على ذلك من أن رهبان دير سيناء أم هـذا السمت من تلقاء ذاته •

وسار المسلمون سيرة عدل وانصاف ورعاية ، وبراهم التاريخ مما رماهم به ذوو الأحقاد اذ اتهموهم — بهتانا — بحرقهم مكتبة الاسكندرية وهو زعم باطل وفرية كاذبة يدحضها العقل ولا يستقيم مع مأثور الاســـلام من رعاية العلم ، وتحريره الأسير ان هو علم المسلمين • ولقد ظهرت هذه الفرية بعد ستة قرون من الفتح العربى لمصر ، ثم ان للمسلمين قدوة فى رسول الله (ﷺ) اذ كان يمن بالحرية على الأسير ان هو علم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، فضلا عن أن أول آية نزلت من القرآن كانت « اقرأ » وأجل الله القراءة اذ قرنها باسمه جل وعلا ، اذ قال فى محكم كتابه **« اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق »** •

ترحيب الشعوب بالعرب واتساع رقعـة الفتوح وما تبع ذلك من انتشار الأسلام :

ولقد شرقت الفتوحات الاسلامية وغربت ، واستقبل كثير من أهل البلاد المفتوحة المسلمين بالترحاب ، بل ان بعضهم كانوا لهم عونا وذلك لما سمعوه وأيقنوه من حسن معاملتهم ، وأنهم يبقون كل شيء من أمور البلاد على ما هو عليه ان أسلم حكامها ، فان رفض الناس كانت جزية يتفقون عليها ، وتضمن لهم ذمة عند المسلمين الذين يصبح عليهم واجب المحافظة عليهم والتعامل معهم من غير ظلم ولا ارهاق •

كذلك فتح الله على المسلمين فتوحات ضخمة فيما قرب من البلاد وما بعد على السواء ، فقد مكنهم الله من بلاد أرمينية فى الأناضول ، ورفرفت راياتهم على حدود العراق ثم طبرستان وطخارستان وما يتبعها ، ونودى باسم الله الواحد الأحد فى جورجان وما حولها ، كما فتح عليهم بلاد ما وراء النهر ، وذلك زمن ذى النورين رضى الله عنه ، ثم فتح معاوية بن أبى سفيان — عامل الخلافة فى الشام — بعض بلدان الأناضول ، ووصلت الأساطيل الاسلامية الى قبرص فوطأت قوات المسلمين أرضها وصالحتهم على سبعة آلاف دينار جزية يدفعها القبارصة لهم كل سنة ، وكان هذا أول فتح لهذه الجزيرة ذات الموقع الاستراتيجى الهام فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، اذ روى البعض أنه كان للمسلمين فتح ثان لها سنة ثلاث وخمسين ، ثم تقدموا فطرقوا سواحل رودس ٠

★★★

أما فى أفريقية فقد كان فتح العرب لمصر ودخول الاسلام هذا البلد انطلاقة تاريخية جاوزت حدود أرض الكنانة الغربية ، فدخل المسلمون برقة صلحا وطرابلس عنوة فى سنتى احدى وعشرين واثنتين وعشرين ، ثم نشروا الاسلام فى أفريقية حسب خطة رسمها « عبد الله بن الزبير » الذى جاء من المدينة المنورة على رأس جيش كبير فيه كثير من الصحابة الكرام فسعدت هذه البلاد بهم : شيوخ حديث ورجال فقه ، وحفاظ قرآن ، ودعاة حق ، وأئمة عدل ، وهداة ، لدين الله القويم ٠

تقدم الحركة العمرانية فى البلاد المفتوحة فى ظل الاسلام ومعنى ذلك :

ولقد سارت حركة الفتح الاسلامى جنبا الى جنب مع الحركة العمرانية فى البناء والتشييد من حيث انشاء المدن وتمصيرها ، وطبيعى أن يشاهد القرن الأول للهجرة قيام كثير من المدن من

ذلك مثلا أنه ما كاد العرب يدخلون مصر وتستقر أمورها حتى فكروا في اتخاذ عاصمة لهم بها ، وكتب عمرو بن العاص الى ابن الخطاب يستأذنه في أن يتخذ الاسكندرية عاصمة له ، فأنكر الفاروق ـ رضوان الله عليه ـ أن يكون بينه وبين جنده ماء ، فقر رأى ابن العاص على أن يتخذ من البقعة التى كانت تسمى بمنف وبابليون من نواحى مصر القديمة عاصمته الاسلامية ، وكان الأمر كما قرر ، وكانت في سفح جبل المقطم ويحدها من الغرب نهر النيل ، وسماها بالفسطاط ، وقيل في تسميتها بهذا الاسم انه وجد في فسطاطه حمامة تحرمت به فأمر بابقائه حتى لا يزعج العسكر الحمامة ، وسمى الناحية بالفسطاط ، وظل اسما على هذه العاصمة الاسلامية الأولى لمصر الاسلامية مدة طويلة ولا تزال الناحية تعرف في بعض الأحيان بهذا الاسم .

وما كاد الرأى يستقر على الفسطاط عاصمة لمصر الاسلامية حتى راح عمرو يخططها ، وأنزل كل قبيلة عربية خطة اتخذتها لها مقاما وبذلك أخذ العنصر العربى يزداد في البلاد ويمتزج بالأهالى لتصبح مصر اسلامية عربية . وزاد من هذا الاتجاه الاسلامى العربى ما عرف في نهاية القرن الأول للهجرة بتعريب الدواوين في مصر زمن الوليد بن عبد الملك ، ووفد الى مصر كثير من القبائل العربية مثل بلى وقيس وغيرهما .

واهتم الولاة المسلمون برخاء البلاد فقد أعاد عمرو بن العاص حفر القناة التى عرفت بقناة تراجان وسماها بخليج أمير المؤمنين ، وكانت تمتد من النيل عند الفسطاط حتى البحر الأحمر عند القلزم وهى السويس الحالية ، فكثر الاتصال بين مصر وغرب شبه الجزيرة على وجه الخصوص .

كذلك أقيم في الفسطاط أول مسجد بمصر بل في أفريقية كلها عرف باسم جامع عمرو حينا وبالجامع العتيق حينا آخر ،

وكثر قيام الدور بالفسطاط حول دار الامارة أولا ، ثم أخذت فى الابتعاد والاتساع حين ازدادت الناحية عمرانا وسكانا ٠

انشاء البصرة والكوفة :

أما فى العراق فقد كانت أول مدينة أنشـــأها العرب هناك هى « البصرة » التى أرادهـــا الفاروق عمر بن الخطاب معسكرا للجيوش الاسلامية التى تخرج الى الهند وفارس وغيرهما من بلاد تلك النواحى ، وذكروا فى بنائها : أن رجلا من بنى أسد قدم على الخليفة عمر وذكر له أنه مر بمكان « دون دجلة بأربعة فراسخ فيه قصر ومسالح للعجم ، وله خليج يجرى فيه الماء الى أجمة قصب ، ويسمى المكان بالخريبة والبصرة » فاستحسنه أمير المؤمنين ورجا أن يكون مكانا لجنده ٠

ثم جاء كتاب من « عتبة بن غزوان » يستأذنه فى تمصير البصرة ليشتى فيها الجند ويلجأون اليه حين يعودون من جهادهم ، وأسهب عتبة فى وصف الناحية فأمره عمر أن ينزل حيث وصف ، فنزل فكان « البصرة » واختط المدينة ، وقال التاريخ فى ذلك « انه أول من مصرها وعمرها وأمر محجن بن الأدرع فخط مسجد البصرة الأعظم وبناه بالقصب :

واختلف المؤرخون فى سنة انشائها ، فمن قائل أن ذلك كان سنة أربع عشرة للهجرة ، ومن قائل بل سنة ست عشرة ، نرى هذا واضحا فيما يسوقه المؤرخ المسلم الكبير الطبرى من روايات فى هذا الصدد فى كتابه العظيم تاريخ الرسل والملوك ٠ ومهما يكن الأمر فقد أقيم بها المسجد ودار الامارة ، واتخذت بيوتها من الغاب أولا ثم شيدت باللبن ، ثم جعلت بالأجر والحجارة ، وكان أكثر القبائل العربية التى نزلتها من ربيعة ومضر ، وفى هذا الصدد جاء فى الأخبـــار أن من كانوا بالبصرة جعلوا بيوتهم من القصب

ثم شب حريق فيها أتى على ثمانين عريشــا ، فكتب « سعد بن أبى وقاص » الى الخليفة يستأذنه فى البناء باللبن فأذن له على ألا يزيد الواحد على ثلاثة بيوت .

كذلك أقام المسلمون بالعراق مدينة جديدة هى « الكوفة » بعد أن أتم الله عليهم فتح المدائن من أرض فارس ، وكان عمر ـ رضى الله عنه ـ قد أنكر على المسلمين القادمين عليه من المدائن ما هم عليه من هزال وتغير فى اللون ، فسأل عن علة ذلك فأعلموه أن مرجعه « وخامة المدائن ودجلة » ، فكتب إلى سعد بن أبى وقاص « أن العرب لا يوافقها الا ما وافق ابلها من البلدان » ، وأمره أن يرسل اثنين عينهما له ليرتادا « منزلا بريا بحريا ، وليس فيه بينهم وبين المسلمين بحر ولا جسر » فكان المكان بقعة حصباء وهى التى عرفت بالكوفة ، اذ الكوفة فى اللغة كل حصباء ورمل مختلطين ، ونزلها الناس على قول الواقدى ســنة سبع عشرة ، وكان هؤلاء الناس هم سليم وهمدان وبجيله وبنو أسد والأنصار ومزينة وتمم ومحارب وجهينة .

وكان أول ما بنى بالكوفة مسجدها الذى كان « فى موضع أصحاب الصابون والنجارين من السوق » كما يقول الطبرى .

ثم بنى سعد دار الامارة أو قصر الكوفة ، ثم جاء أمر عمر ابن الخطاب « ينهاه أن يجعل على القصر بابا يمنع الناس من الدخول عليه الا وقتما يريد وكيفما شاء » .

وغلب على الكوفة العنصر العربى الذى كانت فيه بداوة أهل الجزيرة : من صحة اللغة وفحولة اللفظ وجزالته وفصاحة اللسان . فازدهرت العربية أيما ازدهار ، وكان للكوفة فى اللغة والنحو مدرسة عرفت بها حتى اليوم .

ولقد لعبت الكوفة والبصرة أدوارا خطيرة فى الحياة الفكرية والسياسية والأدبية ، وساهمتا بنصيب ضخم غير منكور فى الأحداث الاسلامية وفى المنازعات التى شبت بين الأحزاب والفرق الدينية منذ زمن مبكر جدا فى القرن الأول للهجرة .

إنشاء القيروان :

وكانت بواعث حركة البناء مختلفة لكنها كلها تتجمع فى ناحية واحدة هى توفير أسباب الحياة للمجتمع الاسلامى الجديد الذى أصبح يضم عناصر اسلامية وذمية ، ورأينا كيف بنى المسلمون الفسطاط والبصرة والكوفة فقامت مدن عامرة . واذا كان الاسلام قد أحيى النفوس فانه فى الوقت ذاته كان وسيلة للتعمير من حيث انشاء المدن والمساجد والمدارس ودور الحديث ، كما اهتم المسلمون فى المدن التى أنشأوها بالأسوار لحماية الأهالى وبسط الأمان عليهم .

وكان بعض هذه المدن التى ظهرت بفضل العبقرية الاسلامية أربطة جهاد ، ومن هذا الضرب من المدن التى شاهدها القرن الأول للهجرة مدينة « القيروان » التى أسسها المجاهد البطل « عقبة ابن نافع » الذي وقف حياته على الجهاد ، فكانت حياة حافلة بكل ما يدل على صدق اسلامه وعمق ايمانه ، واتخاذه الدين سنة ومنهاجا وطريقا لا يحيد عنه ، وكان « عقبة » مثلا أعلى للرجل المتفانى فى خدمة أخيه الانسان ، ولقد أكرمه الله فختم حياته بأكرم خاتمة يرجوها المؤمن الباذل روحه في سبيل الله ، اذ مات شهيدا غيبت الأرض منه الجسد ، ولكنه يبقى على مر الدهور رمزا للبطل الصادق الايمان **(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون)** .

كان عقبة قد سار الى المغرب الأفريقى سنة تسع وأربعين للهجرة من قبل الخليفة معاوية بن أبى سفيـان ، ودخل المغرب متجنبا الطريق السـاحلى ، فبلـغ ما وراء طرابلس عبر الدروب والمسالك الصحراوية .

وكان لعقبة تجربة مع أهل أفريقية وبربرهـا ، وقد دلته تجارب الفاتحين معهم منذ أيام عمرو على « وجوب اتخاذ مدينة تكون عزا للاسلام الى آخر الدهر » كما قال « وتكون رباطا ويكون أهلها مرابطين » فاختط مدينة القيروان سنة خمسين » .

ثم انه سور المدينة المرجوة اذ خاف عليها أن يطوقها صاحب القسطنطينية بغتة فيملكهـا فقال : « اجعلوا بينهـا وبين البحر ما لا يدركها صاحب البحر الا وقد علم به .... واذا كان بينها وبين البحر ما لا يوجب القصر فأهلها مرابطون » .

هذه هى الصورة التى رسمها عقبة فى ذهنه للمدينة التى أراد انشاءها فى المغرب فكان من ذلك اختياره بقعة عرفت بالقيروان ، وكان موضعها « غيضة كثيرة الأشجار ، ومأوى للوحوش والحيات » ، فعمد الى ازالة ذلك كله ، وسور الموضع بسور من اللبن والطين ، ثم اختط المدينة ممثلة فى دار الامارة والمسجد الجامع الذى كان أول المساجد فى تلك الناحية وتلاه غيره ، وقامت فيها الأسواق ، فكانت سكنا ، وكانت رباطا ، وكانت مدينة اسلامية عامرة .

★★★

هذا بعض من أيادى الاسلام والمسلمين فى التعمير فى فترة موجزة من القرن الأول للهجرة التى كانت بحق بداية تاريخ زاه وحضارة كريمة .



انشاء مدينة واسط :

ومن المدن الهامة التى أنشأها المسلمون مدينة « واسط » بالعراق والتى بلغ من أهميتها أن ظلت عاصمة تلك البلاد ومقر ولاة العراق معظم أيام الخلافة الأموية ·

وتشرفت « واسط » بطائفة كريمة من صحابة الرسـول رضوان الله عليهم ممن خدموه ونقلوا عنه أحاديثه وسمعوا كلامه ، وآخرين ممن حدثوا بما سمعوا من غيره بالسند الصحيح وكذلك المحدثات من النساء فكانوا كثرة فى القرن الأول للهجرة ، ذكرهم ابن سهل الرزاز فى تاريخه الفريد لواسط ·

★★★

وشهد القرن الأول للهجرة أيضـا العناية بتشييد المساجد يذكر فيها اسم الله ، وتؤدى بها الصلوات ، ويفسر لروادها كتابه الكريم ، ويتفقه الناس فيها فى الملة السـمحة ، وتذاع بيـانات الحكومة ، وكان مسجد رسول الله (ﷺ) بالمدينة المنورة هو أول عمارة أقامها عليه الصلاة والسلام بعد الهجرة اليها مباشرة ، وكان هذا المسجد النبوى الشريف فى بداية الأمر من اللبن وسقفه من الجريد وأعمدته من جذوع النخل ، ثم ما لبث المسجد ان ازداد اتساعا ولقى عناية خاصة من الحكام المسلمين فى القرن الأول ، وزاد عمر بن الخطاب فى طوله وارتفاعه وعدد أبوابه وذلك سنة سبع عشرة للهجرة ·

ثم توسع فى بنائه بالحجارة سيدنا عثمان فى السنة الناسعة والعشرين ·

ثم اهتم به « الوليد بن عبد الملك » زمن أن كان « عمر ابن عبد العزيز » عاملا له على المدينة المنورة ·



ولما كانت الســـنة الحادية والعشرون من الهجرة الشريفة ـ وقد تم فتح مصر ـ أقام عمرو بن العاص مسجده الذى أشرنا اليه حين الحديث عن مدينة الفسطاط كواحدة من المدن المستحدثة فى القرن الأول للهجرة ٠

وهناك مسجد دمشق الذى يعرف « بالمسجد الأموى » والذى بلغ من اتقان العمارة وروعة الفن مبلغا عظيما حتى قيل « عجائب الدنيا أربع احداها مسجد دمشق » ، ويرجع ذلك الى ولع الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك بالعمارة ، وهو ولع كان حديث الناس فى المشرق والمغرب وبين المسلمين وغيرهم على السواء ٠

حقيقة أن أول من اختطه هو « أبو عبيدة بن الجراح » ، ثم شرع الوليد فى بنائه سنة ثمان وثمانين للهجرة ، فكان على الصورة التى أرادها والتى غاظت الكفار والروم ٠

★★★

ثم هناك مسجد القيروان وهو وان كان من بناء عقبة بن نافع الا انه ما لبث أن ضاق بالمصلين والركع السجود والقراء والفقهاء ، فزيد فى اتساعه زمن هشام بن عبد الملك بضم أرض مجاورة له عن طريق الشراء وبرضاء أهلها ، حتى لقد شهدت السنة الخاتمة للقرن الأول للهجرة اعادة بناء هذا المسجد ، وهكذا لم يكد جامع القيروان يستقيم مع الأيام نصف قرن حتى أصبح أعظم مساجد الشمال الأفريقى الغربى مساحة وأكثرها اتساعا ، ولم يبق من صورته الأولى التى كان عليها زمن عقبة الا صورة فى أذهان من رأوه يومها ، ثم امتد بهم العمر حتى ختام القرن ، فاذا الصورة قد تغيرت معالمها واندثر أصلها أو كاد وحل محلها مسجد جامع كبير ٠

هكذا كان القرن الأول للهجرة قرنا اتسم بوضع حجر الأساس فى بناء بيوت الله ، كما كان قرن ارساء قواعد النهضة الاسلامية فى العالم .

★★★

على أنه واجهت الاسلام منذ مطلع هذا القرن تحديات لئيمة ضارية دبرها من تظاهروا باعتناقه وغالوا فى هذا التظاهر مكرا منهم وخبثا ، ومن هؤلاء « عبد الله بن سبأ » ، وكان يهوديا من أهل صنعاء أسلم أيام ذى النورين نفاقا ، ونادى — وهو فى مسوح الاسلام — بآراء فجة سقيمة ومبادىء خطيرة مريضة ينكرها الدين ، وعرفت هذه الأراء بالاسرائيليات كقوله برجعة النبى عليه الصلاة والسلام ، وأن عليا الامام وصى هذه الأمة ، وراح ينير الفتنة بين المسلمين بما يلقيه من مثل هذه الترهات والأباطيل ، هادفا من وراء ذلك الى التضريب بين بعضهم والبعض الآخر عساه ينفذ من ذلك الى تفتيت وحدتهم ، والى ادخاله فى الدين عند البعض ما ليس منه ، ثم ينتهى به الأمر أخيرا — كما كان يريد — الى القضاء على الملة السمحة .

ولقد سرت هذا الرجل أفكاره الى بعض جماعات فى بلاد الشام ومصر والكوفة والبصرة ، ولكن لم تقدر الحياة لهذه الأفكار ، ثم أوغل فى الكفر حين صرح بأن الرسالة كانت للامام على فانكر الامام على نفسه ذلك حتى أنه أمر بحرقه كما يقال فلما أدخل النار قال قالة الأنك والبهتان «انت هو الله ، لأنه لا يعذب بالنار الا الله» ، وهكذا أراد ابن سبأ أن يجعل من نفسه اللغم الذى يدك صرح الاسلام والدولة الاسلامية .

ومن ثم كانت الاسرائيليات شرا مستطيرا ينبغى الكشف عنها ومحاربتها بالعقل .

★★★

مصر والصراعات العربية :

ولقد برز دور مصر منذ البداية فى اتخاذ موقف أو مواقف تميزت عن غيرها تجاه الحكومة الاسلامية سواء أكانت هذه الحكومة الاسلامية فى المدينة أو فى دمشق أو بعد ذلك فى بغداد ، فنراها – فى الفتنة التى شب أوارها – تقف الى جانب الامام على مما أدى الى حدوث شرخ كبير فى جدار الوحدة الاسلامية التى كانت لا تزال اذ ذاك وليدة لم يمض عليها سوى ثلاثة عقود ونصف عقد ، وكانت حكومة دمشق – وعلى رأسها معاوية – تدرك مدى أهمية وضرورة ضم مصر الى جانبها ، وهنا تدخلت ٠٠ أو قل استعانت ٠٠ بعمرو بن العاص الذى كان لابد له من التدخل تبعا لما اتسم به من الدهاء ، وسعى جهده فى جعل مصر ضمن منطقة النفوذ الأموى ، وقدر له معاوية هذا الصنع فولاه اياها وظل واليا عليها حتى وافته منيته سنة ٤١ هـ ٠

لم يكن دخول مصر الى جانب بنى أمية صادرا عن رغبة حقيقية فى هذا الدخول ، فقد كان هواها مع المناهضين لبنى أمية ، وكشفت القناع عن هذا الهوى حين واتتها الفرصة بمصرع الحسين بن على ، وان كان الأخير يسعى فى الواقع – دون مواربة – لأن تكون له لا سيما حين حمل الراية للدفاع عنه والثأر لدمه عبد الله بن الزبير ، وان كان يسعى فى الواقع – دون مواربة – لأن تكون له الخلافة ، وشـــايعه الكثيرون فى مناطق شتى كاليمن والحجـــاز ومصر والعراق ، وكان « ابن الزبير » يدرك أهمية مصر فى هذا الصراع الذى كان هو نفسه أحد أطرافه ، وعمـــل على أن تظل حدته متقدة على الدوام عساها أن تتمخض عن تحقيق غايته ، ولذلك أرسل الى مصر واليا من قبله هو « عبد الرحمن الفهرى » ، فلم يقع هذا الأمر موقع الرضى عند « مروان بن الحكم » الذى جاء اليها على رأس جيش أموى نجح به فى ضرب حركة ابن الزبير ٠ وهدأت الأمور

ـ و هكذا ظهرت ـ ولكنها كانت نارا خفية ، وكان لابد لهذه النار من أن تندلع من جديد حين تهب عليها أول نسمة هواء .

ظهور الخوارج :

ولما قامت الخلافة الأموية ونهض معاوية بن أبى سفيان بأمر المسلمين سنة احدى وأربعين للهجرة خرج عليه الخوارج خروجهم على الامام على من قبل ، وكما خرجوا على كثيرين ممن جاءوا بعدهما وكان لهم خبر طويل حتى انتهى الأمر الى هدوء عادت فيـه القوة الاسلامية كدأبها لبناء الانسان المسلم : اجتماعيا وروحيا ، وكان هؤلاء الخوارج غلاة مكفرين لكل من ليس على سمتهم ولم ينهج نهجهم ولم يعتنق آراءهم حتى وان لزم عمـود الدين ، فرماهم معاوية فى العراق « بزياد بن أبيه » سنة خمس وأربعين اذ ولاه البصرة فكان حربا عليهم ، ثم ولاها فيما بعد ابنه « عبيد الله بن زياد » فكان عنيفا هو الآخر على من بها ومن بالعراق منهم .

المنشآت الحضارية رغم الاضطرابات السياسية وظهور ولاية العهد لأول مرة :

من ناحية أخرى نجد أن معـاوية اسـتجد أمورا كثيرة فى الدولة ، منها ما يتعلق بالادارة ، ومنها ما يتعلق بالسياسة العامة ، ومنها ما هو خاص برسوم الملك ، وكان مما استجده معاوية « ديوان الخاتم » الذى كان من أكبر دواوين الدولة بعـد ديوانى الجند والخراج اللذين استحدثهما الفاروق .

كذلك شهدت هذه السنة أيضا انشاء ديوان البريد على يد معاوية ثم زاد فى العناية به « عبد الملك بن مروان » حتى ان صاحب هذا الديوان كان يدخل عليه ليلا أو نهارا من غير اذن ولا يمنعه أحـد .

ولقد كان معاوية أول من وضع المنبر فى المسجد الحرام ـ كما قال اليعقوبى ـ سنة أربع وأربعين ، كما انه استجد ولاية العهد لابنه يزيد ، وبذلك تحول الحكم من خلافة الى ملك عضود وهو أمر استنكره جمهور المسلمين أو أكثرهم لا سيما أهل الكوفة ، فكتبوا الى الحسين بن على رضوان الله عليهما ـ حين امتنع عن البيعة ليزيد ابن معاوية يسألونه القدوم عليهم « لعل الله » ـ كما قالوا « يجمعهم به على الحق » .

وكان معاوية رجل دولة وسياسة ، يرى فى بعض الأحيان أن الغاية تبرر الواسطة ، فاستلحق فى سنة أربع وأربعين ـ « زياد ابن سمية » لدهاء فيه وشدة لم ينكرها عليه ، فولاه البصرة وأضاف اليه خراسان وسجستان ، ثم جمع له الهند والبحرين وعمان ، وقد سدد زياد لمعاوية أمر السلطة فى البصرة ولم يكن ذلك بالقليل من وجهة نظر معاوية كحاكم .

وفى هذه السنة أيضا ولى معاوية «عبد الله بن عمرو بن العاص» مكان أبيه ولاية مصر ، وقد قال فيه أبو هريرة « ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منى الا عبد الله بن عمرو ابن العاص ، فانه كان يكتب وأنا لا أكتب » .

★★★

غزوات جديدة اسلامية :

وغزا المسلمون اذ ذاك « اللان » كما غزوا الروم وألحقوا بهم هزيمة نكراء وقتلوا جماعة من قوادهم .

ولما كانت سنة ثلاث وأربعين كانت فيما قيل غزوة « بسر ابن أرطاة » للروم ، وكان مشتاه بأرضهم حتى بلغ القسطنطينية وان أنكر ذلك بعض الاخباريين محتجين بأنه لم يكن لبشر بأرض الروم مشتى أبدا ، ولكن الثابت أن المسلمين شتوا هناك سنة أربع

وأربعين وهى السنة التى ماتت فيها أم المؤمنين « أم حبيبة : رملة بنت أبى سفيان » التى كانت قد هاجرت الى الحبشة مع زوجها ابن جحش فتنصر هو ، أما هى فقد بقيت على الاسلام ، ولما تأيمت بعث عليه الصلاة والسلام الى النجاشى فزوجها منه وأصدقها النجاشى عنه أربعمئة دينار ثم تلتها فى الوفاة فى العام التالى أم المؤمنين السيدة « حفصة بنت الفاروق » ، وهى « الصوامة القوامة » كما نعتها جبريل عليه السلام للرسول عليه الصلاة والسلام .

★★★

وكانت غزوات المسلمين للروم موصولة أيام معاوية ففى سنة تسع وأربعين غزآهم ابنه « يزيد » ومعه جماعة من سادات الصحابة كعبد الله بن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبى أيوب الأنصارى الذى شهد بدرا والعقبة والمشاهد كلها ، والذى كان نزول النبى (ﷺ) ــ حين هاجر الى المدينة ــ فى أسفل داره ، ومات أبو أيوب بالقسطنطينية فى هذه الحملة سنة احدى وخمسين للهجرة وأوصى القوم أن يوغلوا به فى أرض الروم ، وجاء فى أسد الغابة لابن الأثير ان يزيد بن معاوية أمر « بالخيل عند قبره فجعلت تقبل وتدبر على ضريحه حتى عفا أثر القبر » .

كما ذكر أيضا أن الروم قالوا للمسلمين غداة دفنهم لأبى أيوب : « لقد كان لكم الليل شأن ! » ، فأجابوهم : « هذا رجل من أكابر أصحاب نبينا وأقدمهم اسلاما ، وقد دفنا جثمانه حيث رأيتم ، ووالله لئن نبش قبره فلن يضرب لكم بناقوس فى أرض ما كانت لنا بها مملكة » .

ومعنى هذا من ناحية أخرى أن المسلمين لم يكن يضيرهم ان يضرب بناقوس للنصارى فى بلد يرتفع فيه الأذان .

تأمين معاوية لحدود الشام وحبه لتلك البلاد :

ونعود الى معاوية فنقول انه كان شديد الحرص على أن يعرف الروم وسواهم من غير أهل الملة ما عليه الاسلام من قوة ، كما أنه كان في الوقت ذاته يريد تأمين حدود الشام الذى كان يوليه عنايته بعد أن اتخذه مقرا لدولته ، فأخذت عســاكره ـ منذ سنة ثمان وأربعين ـ تخرج للغزاة ، وشهدت تلك السنة مشتى أبى عبد الرحمن فى أنطاكية به وصائفة عبد الله بن قيس الفزارى وغزوة عقبة ابن عامر الجهنى بأهل مصر وبأهل المدينة فى البحر ، وبذلك أقض معاوية مضاجع أهل الشرك وزاد من هيبة بلاد الشام فى عيونهم . ودفعه حبه للشام الى تفكيره فى حمل منبر رسول الله (ﷺ) الى دمشق ، فاستعظم الناس منه ذلك وكرهوه فتراجع وقال : « لم أرد حمله ، انما خفت أن يكون قد أرض فنظرت اليه » • ثم كساه •

وهذه العبارة تعبير صريح عن مرونة معاوية ان خاف ثورة المسلمين على أمر يستنكرونه •

فتح رودس :

وانتصر أهل الايمان سنة ثلاث وخمسين حين فتح الله جزيرة « رودس » عليهم بقيادة « جنادة بن أبى أمية » الأزدى الذى ذكر الثقات أن المسلمين نزلوها بقيادته « وزرعوا واتخذوا بها أموالا ومواشى يرعونها حولها ، فاذا أمسوا أدخلوها الحصن ، وكان لهم ناطور يحذرهم ما فى البحر ممن يريدهم بكيد فكانوا على حذر منه »•

وكان نزول المسلمين رودس « أشد شىء على الروم » ذلك لأن المسلمين « كانوا يعترضون أعداءهم فى البحر ، وكان معاوية قد أكثر لهم من الأرزاق والعطاء ، غير أنه لما مات أرجعهم ابنه يزيد بعد سنوات من اقامتهم بها •

وزاد المسلمون فشتوا فى أرض الروم مضايقة للروم وازعاجا لهم ، واختلف فيمن كان على المسلمين : أهو سفيان بن عوف ؟ ، أم عمرو بن محرز الجهنى ؟ ... أم عبد الله بن قيس الفزارى ؟ .. أم مالك بن عبد الله الخثعمى ؟ .. ومهما يكن الأمـر فقـد كانت للمسلمين غزاة أزعجوا بها البيزنطيين وكبدوهم خسائر جمة وزلزلوا من هيبتهم فى أعين قوم كانوا يرونهم فوق كل خطر ، ويعدونهم مظلة تبسط عليهم الأمان والأمن ، ولا يمر بخاطرهم قط أن ينال أحد من هيبتهم ، فاذا بالعرب الذين يخرجون من شبه الجزيرة منذ أقل من نصف قرن من الزمان يغيرون المفاهيم ويسقطون معايير أتباع الروم فى الروم ، ويبدلون نظراتهم لمن حولهم الى واقـع يحسونه ولا يستطيعون له انكارا .

★★★

واذا كان العرب ـ حتى هذه الســنوات من القرن الأول للهجرة ـ قد امتد سلطانهم الى كثير من النواحى فان أحداثا مزعجة بلبلت الخواطر كالمواقف التى اتخذها « حجـر بن عدى » الكندى المعروف بحجر الخير مما حمل زياد بن أبيه على أن يندد به ويهدده ويتوعده ، ويقسم « لئن لم يستقم حجر ومن معه ليداوينهم من دائهم » ، وتتجلى أهمية حجر بن عدى فى انه شـهد القادسية « ووصفوه بأنه كان من فضلاء الصحابة . وشهد الجمل مع على ، وذكر ابن حجر فى الاصابة انهم لما قدموه للقتل صلى ركعتين ، وقال « لولا أن تظنوا بى غير الذى بى لأطلتهما » ثم سألهم ألا ينزعوا عنه حديدا ولا يغسلوا عنه دما » ، ومهما يكن الأمر فقد انتصرت سياسة العصا الغليظة وخلصت الدولة من خصم عنيف حتى قال القائل :

تجبرت الجبائر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير



والواقع أن مصرع حجر بن عدى كان يحمل فى طياته النذير بازدياد حركة المقاومة ، وكان مقتله على يد معاوية الذى أمر أن يجيئوا به اليه « فلما جاؤوه به أنفذ فيه أمره بالقتل فقتل ، وقتل معه نفر من أصحابه فى موضع قرب دمشق وذلك سنة ٥١هـ = ٦٧٠ م » ، ثم أدرك معاوية ــ ولكن لات حين ــ مدى الخطر الذى ارتكبه فقالوا انه « ندم » على ذلك وربما كان ذلك منه أيضا تظاهرا حتى يمتص الغضبة الاسلامية من أنصار « حجر » أو يقلل من خطورتها ، ولربما كان الرد على ما فعله معاوية ما تذكره بعض المصادر كابن سعد والطبرى من أن ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ بكى لمقتله ، وكان هذا اشارة الى روح التذمر والغضب من أجله .

★★★

معاوية والبيعة ليزيد :

وفى سنة ثلاث وخمسين للهجرة مات « زياد بن أبيه » فولى أمر الصحابة مكانه « سمرة بن جندب » الفزارى ، وولى الكوفة عبد الله بن خالد بن أسيد ، وكانت خطة معاوية فى ولاية الولاة ــ كما قال البعض ــ أنه اذا أراد أن يولى رجلا من بنى حرب ولاه الطائف ، فان رأى منه خيرا ولاه مكة ، فان أحسن الولاية جمع له معهما المدينة .

★★★

ولما كانت السنة السادسة والخمسون من القرن الأول للهجرة دعا معاوية الناس الى بيعة ولده « يزيد » ، ولم يعدم معاوية أن يجد مبررا لما هو مزمع القيام به فقال « انى أرهب ان أدع أمة محمد بعدى كالضأن لا راعى لها » .

معاودة القتال بين الروم والعرب برا وبحرا :

ولقد نشطت حركة مهاجمة المسلمين للروم فى ختام العقد الخامس من القرن الأول للهجرة لاسيما أيام معاوية ، فتوالت الحملات منذ السنة الرابعة من حكم معاوية فكانت أولاها غزوة « بشر بن أرطاة » - كما ذكرنا - حتى لقد كاد أن يطرق أبواب عاصمتهم ، ثم خرج « عبد الرحمن بن خالد بن الوليد » فتوغل فى بيزنطة ، وكان هذا القائد من فرسان قريش ولكن هواه كان مع الامام على بعكس أخيه « المهاجر بن خالد » . فقد كان عبد الرحمن علوى الهوى والميل ، وقال فيه ابن الأثير ان « معاوية كان يستعمله على غزو الروم ، وله معهم وقائع » ، وان قيل فيه أيضا انه مات بتدبير من معاوية اذ رأى فيه المتطلع للخلافة .

كذلك أمر معاوية مالك بن هبيرة بغزو الروم ولكن فى البحر هذه المرة ، ثم أرسل حملة عليها ولده يزيد ، فكان رد الروم عليها أن هاجموا سواحل الشام حتى اذا كانت السنة الأولى من النصف الثانى من القرن الأول للهجرة غزا المسلمون الروم بحملتين . احداهما برية بقيادة « بسر بن أرطأة » والأخرى بحرية وعليها « فضالة بن عبيد » الأنصارى الذى كان ممن بايعوا تحت الشجرة وشهد فتح مصر ، وقد أمره معاوية بغزو الروم فغزاهم بحرا وشتى بأرضهم .

وشهدت هذه الفترة تبادل الهجوم من الجانبين الاسلامى والبيزنطى كل على الآخر ، وقد أراد الروم أن يشتتوا نشاط المسلمين فهاجموا « البرلس » من أرض مصر وأفحشوا فى قتل المسلمين ، ولم تكن لتمر سنة دون أن تشهد هجوما اسلاميا على الدولة البيزنطية ، وأفرزت الحملات الاسلامية مجموعة من القادة البارعين فى البر والبحر على السواء أمثال « مالك بن عبد الله الخثعمى » الذى كانت له صحبة .

ولما كان البيزنطيون أصحاب أساطيل تمخر عبـــاب البحر المتوســـط فقد هاجموا فى ســنة ٦٩ هـ برقة وغيرها مما حمل « عبد الملك بن مروان » على مهادنتهم نظرا لانشغاله فى قتال خصومه السياسيين أمثال مصعب بن الزبير ٠

ولما جاء « الوليد بن عبد الملك » فتح مدينة « هرقلة » من بلاد الروم وكانت معقلا من معاقلهم وشـــوكة فى جنب المسلمين آمادا طويلة حتى ليخرج الرشيد العباسى فيما بعد اليها ــ وقد ولى الخلافة ــ ليهاجمها ٠٠ فانظر الفارق الزمنى بين الوليد وبين هرون لتعرف كيف أن « هرقلة » كانت مصدر خطر كبير على الدولة الاسلامية ٠

واذا كانت المصيصة تماثلها فى الخطر على الحدود الاسلامية فقد فتحها المسلمون فى سنة ٨٤ ، ثم توالـــت فتوحات المسلمين لبلاد أخرى كسبيسطة وطرسوس ٠

وتشهد آخر سنة فى هذا القرن صائفة الوليد بن هشـــام لبعض بلاد الروم ٠

البيعة ليزيد وتحذير معاوية لولده من الخطرين على دولته :

ثم أخذ معاوية فى مرض موته سنة ستين يدعو القوم الذين وفدوا عليه مع « عبيد الله بن زياد » الى البيعة لابنـــه يزيد ، ثم حذر ابنه من أربعة هم : الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وابن أبى بكر » ٠

وكان أخوف من يخافه من هؤلاء الأربعة : « ابن الزبير » ٠

واذا كان معاوية قد أخذ البيعة ليزيد فانه كان يعلم بأن ذلك انما تم على غير رغبة من معظم جمهور الأمة ، وربما كان هذا دافعا له

للقيام فى نفس السنة بعزل عبيد الله بن زياد عن بعض الأقاليم لاسيما التى كانت تعتبر مصدر خطر كخراسان ، وأراد معاوية فى الوقت ذاته أن يشغل الناس بما قد يتهددهم من خطر خارجي ، فأذن لسعيد بن عثمان بن عفان ـ الذى ولاه خراسان مكان عبيد الله ـ بغزو الصغد وسمرقند ، ويبدو أن أناســا كان قد جـاء بهم من سمرقند كرهوا ما فعله ببلادهم فوثبوا عليه وقتلوه سنة ٦٢ هـ .

مـــوت معـــاوية :

ومات معاوية فى رجب سنة ستين بدمشق بعد أن كان قد ولى الخلافة فى جمادى الأولى سنة احدى وأربعين ، فكانت مدة خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر الا أياما ، ثم داهمه المرض فأقعده ، وأخذ الناس يفدون الى بابه لعيادته ، فلم يأذن لهم أولا ، ثم عاد فأذن لهم أن يدخلوا عليه ، فلما خرجـوا من عنده أنشـــد وهو على سرير الموت :

وتجلدى للشـــامتين أريهمو ... انى لريب الدهر لا أتضعضـــع
واذا المنيـــة انشبت اظفـــارها ... الفيت كل تميمـــــة لاتنفع

وكان حقا ما تمثل به ، وخير منه وأصـــدق قول الحق تبارك وتعالى (**ولـكل أمة أجل اذا جـاء أجلهم لا يســـتأخرون ســـاعة ولا يستقدمون**) . وقول الحق أيضا (**كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة**) .

★★★

مبايعة يزيد واهتمامه بالشرق وبلاد ما وراء النهر :

ولما كان النصف من رجب سنة ستين للهجرة الشريفة بويع ليزيد بالخلافة الا من الأربعـــة الذين كان أبوه معاوية قد حذره منهم ، فآلى يزيد الا أن يصرف اليهم همته .

★★★

والتفت يزيد في سنة احدى وستين الى خراسان وسجستان فولى عليهما « سلم بن زياد » بن أبيه ، واتجهت أنظـار الدولة الى بلاد ما وراء النهر لتأديب جماعات من وســط آسيا ينسبون الى ما يعرف بالقبائل التركية التى كانت قد أخذت في تهديد خراسان ومهاجمتها ، مغتنمة فرصة الاضطراب في العالم الأموى ، بيد أن المسلمين كانوا قد اتخذوا مدينة « مرو » ذات التاريخ القديم مركزا لعملياتهم الحربية منذ أن جمع معاوية أمور الحكم في يده ، وأدب بغزوتى عبيد الله بن زياد وسعيد بن عثمان الطامعين من غير المسلمين في الانقضاض على أطراف الدولة الاسلامية ، ثم كانت القوة التى خرجت سنة احدى وستين وعليها سلم بن زياد بن أبيه ومعه المهلب ابن أبى صفرة فأدرك المتوثبون أن عين أولى الأمر في الدولة الاسلامية ساهرة مستيقظة وليست بغافلة عما يجرى مهما بالغوا التخفى .

وقد تمكن مسلم بن زياد من فتح خوارزم ، ومن بعدهـــا سمرقند ، وارتفع الأذان للصلاة في تلك النواحى .

على أن هذه الفتوحات التى تعد نصرا للاسلام لم تصرف بعض الجماعات عن الاستمرار في مضايقة الدولة الأموية وازعاجها بشتى الوسائل ، فنجد قيام جماعة « التوابين » بقيادة « سليمان بن مرد » تنادى بالثأر للحسين وأعلنت أن قيامها انما هو تكفير عما جرى من نكوص الجماعة الاسلامية الأولى عن نصرة الحسين بن علي ، وان هؤلاء

« تابوا » عما جرى من آبائهم فى حق حفيد رسـول الله (ﷺ)
وابن فاطمة وعلى رضوان الله عليهم أجمعين ٠

★★★

كذلك أمر الخليفة بعزل عمرو بن سعيد عن المدينة وولى مكانه « الوليد بن عتبة » ثم ما لبث أن عزله هو الآخر ٠

كان يزيد يدرك ما للمدينة المنورة من أهمية فى استقرار مقاليد الحكم ، وأن فى يدها جزءا من تصريف الأمور فى العـالم الاسـلامى كله ٠٠ وكـان ذلك حقـا لاريب فيه ، برهنت على صدقه ما جرت به الأحداث بعد حين ٠

ومات يزيد بعد عام من وقعة « الحرة » التى آلمت قلب كل مسـلم وتركت به جرحا هيهات ان يندمل وكانت الوقعة أواخر حجة ٦٣ هـ ثم بويع لمعاوية بن يزيد الذى ما لبث هو الآخر ان وافاه أجله بعد ثلاثة أشهر وذلك فى ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ٠

وكان معاوية بن يزيد راغبا عن الحكم عازفا عنه ، حتى انه خطب الناس فقال فى خطبته لهم :

« ما أنا بالمتقلد أموركم ، ولا بالمتحمل تبعاتكم ٠

« فوالله لئن كانت الدنيا مغنما فقد نلنا منها حظا ٠

« وان تكن شرا فحسب آل أبى سفيان ما أصابوا منها » ٠

مؤتمر الجابية ومبايعة مروان بن الحكم :

وما نحسب انه قال هذا القول الا بعد ما رآه وما سبق هذه البيعة أو واكبها من أحداث هزت المجتمع الاسلامى ، ذلك أنه ما كاد

كرسى الخلافة يخلو من جالس عليه حتى نرى الفرقة تـــدب فى صفوف الأمة ، ويبايع أهل البصرة بادىء ذى بدء « عبيد الله بن زياد» ثم لايلبثون أن ينفضوا من حـــوله فلا يجد بدا من الهروب فهرب الى الشام ، ثم يعودون هم والكوفيون والحجازيون وأهل الشام وقنسرين يبايعـــون « عبد الله بـن الزبير » الذى يؤيـــده « الضحاك بن قيس الفهرى » ، لكنه لايلبث هو الآخر أن يرى توجيه الدعوة فى تولى الخلافة لنفسه ، ومعنى هذا أن الأمة تقاســـمتها الأهواء وسادتها المنازعات ، فيغتنم الأمويون هذه الفرصة التى رأوها تتلخص فى أحد أمرين : « اما أن تكون أو لا تكون » ، فترتب على هذا عقد ما عرف بمؤتمر الجابية الذى أســـفر عن مبايعة مروان ابن الحكم بالخلافة • لكن لم تكن الأرض ممهدة تحت قدميه تماما ولم يكن مروان كما تقول بعض الأخبار يتطلع للخلافة بل سيقت اليـه على غير انتظار أو طموح منه فيهـا ، اذ جاءه خـلق فيهم عمرو بن سعيد بن العاص وجماعة من أهل اليمن وهو فى الطريق باذرعات من بلاد الشام وطلبوا اليه أن يبسط يده ليبايعوه فبسطها فبايعوه فصـــار خليفة للمســـلمين ، وذلك فى ذى القعـــدة سنة أربع وستين •

وكان مروان باجماع المؤرخين من سادات قريش وفضلائها ، ولم تطل أيامه أكثر من عشرة أشهر ثم وافته منيته بعدها فخلفه ابنه عبد الملك وذلك فى رمضـــان سنة خمس وستين • ويورد أبو الفدا اشارة قد يكون لها معناها البعيد اذ يقول « انه لما أتته الخلافة كان قاعدا والمصحف فى حجره فطبقه وقال : « هذا آخـر العهد بك » • وسواء أصحت هذه العبارة أم دسها عليه غيره فان الأحوال كانت ـ خلال هذه السنوات ـ مضطربة مما أدى الى حدوث معارك سميت « بالأيام » ، فصلها المؤرخون المسلمون تفصيلا هى جديرة به ، منها خروج المختار بن أبى عبيدة الثقفى طلبا بثأر الحسين ، ومنها مقتل عبيد بن زياد ثم مصعب بن الزبير •

وكان لهذه الأحداث المؤلمة صـــداها فى المغرب الاســلامى الذى لم تكن الأمور به قد استقرت على أكمل وجه ، والذى كان يخفى فى طيـــاته تطلعات البربر وبعض أهل الشـــمال الافريقى للاستقلال عن الدولة الأموية ، واقامة حكومة مستقلة محلية لهم ، ويشجع البيزنطيون هذه الحركة الانفصالية فنراهم عونا للزعيـم البربرى كسيلة الذى يقوم بمهاجمة عقبة بن نافع وأبا المهاجر دينار وتشتبك السيوف فى وقعة عند « تهودة » على مشارف جبال أوراس ويستشهد فيها عقبة وأبو المهاجر ٠

عبد الملك وقبة الصخرة وضربه الدنانير الاسلامية :

ويمضى التاريخ قدما وتمضى معه الأحداث وان كانت متعثرة الخطى ، غير أن عبقرية عبد الملك نجحت فى ارســاء أمن الجماعة الاسلامية ، وكانت عبقريته فى هذه الأمور فوق الأحداث وكذلك فى مسألة تدعيم المجتمع ٠

ومما يذكر له من الحسنات بدؤه ببناء قبة الصخرة ، كما انه قام فى سنة ست وسبعين بضرب الدرهم والدينار الاسلاميين ، وكان ضربهما زحزحة للعملة الرومية بكل مظاهرها المسيحية ، وتحطيما للنفوذ السياسى البيزنطى من التدخل والسيطرة ، كما كان ضربهما اســلاميا تحديا للروم الذين غضب امبراطورهم من كتاب الخليفة الذى ورد اليه وفيه هذه الآية الكريمة « قل هو الله أحد » فهاج وثار وأرغى وازبد وانذر عبد الملك انه ذاكر فى الدنانير الرومية ما يكرهه المسلمون ، فعظم ذلك على عبد الملك ، ورأى فيه اهـــانة للشعور الاسلامى ، فاستشار « خالد بن يزيد بن معاوية » ، فاشار عليه أن يأمر بمنع التعامل بالدنانير البيزنطية وبأن يضرب للناس سكة فيها اسم الجلالة ٠

عبد الملك يمضي ما أشار به خالد :

وكانت مشورة خالد نعم المشـورة ، ورأيه الرأى الفيصل كذلك كان ميل عبد الملك لصبغ كل شيء في الدولة بالصبغة العربية واضحا ، فتم في أيامه تعريب الدواوين والتخلى عن الفارسيـة واليونانية فى دواوين الدولة •

ولقد واكب هذه الأحداث الاسلامية الكبرى حـدث كبير فى داخل الامبراطورية البيزنطية هو وقوع اضطرابات وقيام أهلها بخلع امبراطورهم جستنيان الثانى واظهار سخطهم عليه سخطا تمثل فى جدع أنفه وفى نفيه ، وتولية آخر مكانه ، وكان قبل خلعه قد نشب بينه وبين البابوية نزاع عنيف ، تطور الى حد أقدم فيه الامبراطور البيزنطى على التفكير فى احضار البابا سرجيوس الى القسطنطينية مقبوضا عليه • أما من الناحيـة الداخلية فقد أثقل كاهل الروم بالضرائب التى ضجروا منها ، وهكذا تأزمت الأمور أمامه داخليـا وخارجيا ، ونشبت ثورة نادت باحلال غيره مكانه ، وكان اضطراب الأمور الداخلية فى دولة الروم مما شجع المسلمين على قيام حملة بقيادة حسان بن النعمان فى الشاطىء الافريقى المغربى ، وقد أشرنا اليها وماذا كان موقف « الكاهنة » ، وكان قتال وحروب عنيفة بين الجانبين انتهت بهزيمة الكاهنة عند قابس ومصرعها سنة ٨٢هـ واسترد حسان قرطاجنة من أيدى الروم ، وكان ذلك ضربة قاصمة للآخرين فخرجوا من الشمال الافريقى المغربى لتظهر القوة الاسلامية صاحبة السطوة والنفوذ ، حيث توالت ضرباتها فهاجمت صقلية وسردينيا وجزائر البليار وشهدت أسبانيا جيوش طارق تمشى على ترابها ، وأثرت هذه الأحداث على البيزنطيين فصبوا جام نقمتهم على امبراطورهم جستنيان الثانى وكان ما كان مما ذكرناه من نهاية حكمه ، ولكنه استطاع الهروب من منفاه ليعود الى عرشه ، وان صاحب ذلك وأعقبه اضطرابات كان لابد من وقوعها •

وإذا كان عبد الملك قد تحدى الروم فى استحداثه الدرهم والدينار الاسلاميين دفعا لشرهم وحتى لايكون اقتصاده مرهونا من ناحية العملة بسكة الروم فانه من ناحيـــة أخرى لم يأل جهدا فى محاربتهم ، وان اتسمت معظم حروبه بأنها كانت نوعا من المناوشات والمعارك الصغيرة ، لكنها مع ذلك أزعجتهم ، كفتحه قيسارية سـنة احدى وسبعين لتأمين حدود البلاد من تلك النواحى ، وليس من شك فى أن ذلك كان تمهيدا لما نطالعه من أنه فى سنة ثلاث وسبعين كانت وقعة عثمان بن الوليد بالروم فى ناحية أرمينية ، وعلى الرغم من ضآلة القوة الاسلامية بالنسبة للعدو الا انها انتصرت عليه ٠

خراسان عند عبد الملك ثغر المشرق واستعماله عليها أمية بن عبد الله ابن أسيد ، فاستقامت أمورها :

وكان عبد الملك بن مروان يريد من ناحية أخرى أن تستقر الأمور على خير ما يكون الاستقرار لاسيما فى النواحى الشرقيـــة من بلدان الخلافة فقد شغلته خراسان ـ التى كان يسميها بثغر المشرق ـ ، وكان يقول : « أخاف على الثغر أن يهلك ومن فيه » ٠٠ ، وذلك أن تميما اختلفت بها حتى خاف أهل الثغر أن تفسد بلادهم ويقهرهم المشركون ، فكتبوا الى عبد الملك بالخبر ولم يكتموا عنه خوفهم وذكروا له أن الأمور عندهم مضطربة فان تركت دون رأب الصدع خيف على البلاد وعلى الاسلام فيها ، كما أخبروه أن البلد « لايصلح الا على رجل من قريش : لايحســـده أحد ولا يتعصب عليه أحد » ٠ فاســـتخدم على خراســـان « أمية بن عبد الله ابن خالد بن أسيد » الموصوف فى كتب التاريخ بأنه « كان سيدا كريما » فلما ولاه صلح أمر الاقليم واستقامت أحواله ، وكان ذلك سنة أربع وسبعين للهجرة وهى السنة التى شهدت الفراغ من اعادة بناء الكعبة بعدما أصابها من هدم فى حرب ابن الزبير ، كما ظهر حينذاك تكاتف البربر بزعامة الكاهنـــة ٠ على أن اســتـــعماله

لأمية بن عبد الله لم يمنعه من أن يخلعه بعد حين ومن أن يضم الثغر الى « الحجاج » الذى أحدث كثيرا من التغييرات فى جهاز الحكم المحلى بخراسان ٠

★★★

فلما كانت السنة التالية ـ أعنى سنة خمس وسبعين ـ بعث الخليفة عبد الملك بأخيه محمد بن مروان الصائفة حين خرجت جماعات الروم من مرعش تترقب غرة من الحدود الاسلامية لتثب على المسلمين فبادرهم عبد الملك بن مروان قبل أن يبادروه اعتقادا منه بأن الرابح فى الحرب هو صاحب الضربة الأولى ، وكان الأمر كما قدر وارتجى ٠

★★★

خروج الزنج وافسادهم فى البلاد بقيادة كبيرهم « رباح » :

ولعل من الحوادث الملفتة للنظر والتى يجب معالجتها من الناحية الاجتماعية وصلتها بالأوضاع الاقتصادية ما كان لطائفة من الناس عرفوا بالزنج ، وتأثير بعض الدعايات التى كان هدفها تحطيم القوة الإسلامية من الداخل ، أقول من هذه الأحداث ما عرف بثورة الزنج الذى أشعلوها بقيادة زعيمهم « رباح » ، ولكن شاءت الظروف أن تكون القوة فى يد الحجاج الذى كان لا يرى سوى مصالح الخلافة الأموية فضرب هذه الفتنة بيد من حديد ، ونجد تفسيرها هى وعواقبها مفصلة فى بعض كتب التاريخ الاسلامى ٠

★★★

رغبة عبد الملك فى تولى ولده الوليد :

ثم كانت سنة أربع وثمانين على قول ابن الأثير حين بايع عبد الملك ولديه : الوليد وسليمان ، وقد ساعده على ذلك موت

أخيه عبد العزيز بن مروان الذى أراد عبد الملك أن يخلعه من قبل ليسوق الحكم للوليد ، فرده عن ذلك البعض وقالوا له : « لعل الموت يأتيه فتستريح منه » .

ووقع الذى قالوا وجرى الذى توقعوا ، وكان موته فى جمادى الأولى بمصر ، وكان عبد الملك سأله أن يترك الخلافة للوليد فأبى ، فلم يستطع عبد الملك معارضته ولا قدر على مناجزته ، فكتم رغبته فى صدره ، وكان كل الذى قاله حينذاك لولديه : الوليد وسليمان : « ان يرد الله أن يعطيكما الخلافة فلن يقدر أحد من العباد على ردها » ، وكان من وصيته حين البيعة « أن لن يهلك أمرؤ عن مشورة » . وصدق فيما قاله .

★★★

واذا كنا قد ذكرنا هذا الحادث تحت هذه السنة فان الطبرى وابن كثير يجعلان عزم عبد الملك على خلع أخيه عبد العزيز سنة خمس وثمانين ، أعنى سنة وفاة الأخير .

ويشير بعض المؤرخين الى أن الحجاج كان يلح على عبد الملك بخلع أخيه عبد العزيز بن مروان وتولية ابنه الوليد حتى ، أنه بعث اليه وفدا يحمل هذا العرض وذلك الرجاء ، وقال شاعر الوفد فيما قال :

أمير المؤمنين اليك نهدى ... على النأى التحية والسلاما
فلو أن الوليد أطاع فيه ... جعلت له الخلافة والذماما
شبيهك حول قبته قريش ... به يستمطر الناس الغماما

فهل كان عبد الملك فى حاجة لمن يرشده ويبصره ؟؟

الواقع يجيب بالنفى ، فقد كان عبد الملك من أكبر دهاة بنى أمية بعد معاوية ، وكان بارعا كل البراعة فى ترتيب الطرق واستعمال الوسائل التى تؤدى به الى غايته ، ولقد عرف معاوية فيه ذلك فرشحه منذ صغره ـ وهو فى السادسة عشرة من عمره ـ لولاية المدينة المنورة .

★★★

ونعود فنقول لعل الأحداث التى جرت منذ قدوم هذا الوفد كانت بترتيب منه فى قدومها وفى ما عرضه رجال الوفد ، ولعله أراد أن يستوثق ويرى اجماعا صادرا من الأمة قبل أن يكون رغبة يكتمها فى صدره ، لايزعجه الافصاح عنها الا الخوف والحذر واستكمال الأدوات التى تظهره بمظهر البرىء من كل محاولة لما يريد ، وليس من شك فى أنه كان للحجاج دخل فى توجه الخليفة هذا الاتجاه الذى لاندرى أكان خيرا أم كان شرا ، والمعروف انه كان للحجاج نفوذ على الخليفة عبد الملك حتى ليشير أبو الفداء الى ما قاله الحسن البصرى حين سئل عن هذا الخليفة فقال : « ماذا أقول فى رجل : الحجاج سيئة من سيئاته » .

فتح المسلمين المصيصة سنة ٧٤ هـ ثم نشوى :

ونمضى مع ركب الأحداث حتى اذا كنا فى السنة الرابعة والثمانين من القرن الأول للهجرة تطالعنا غزاة عبد الله بن عبد الملك تقاتل الروم على أبواب المصيصة التى يتم فتحها على يده ، فالمسلمون يشددون الهجوم عليها ، والبيزنطيون ومن معهم من الأرمن يدفعونهم عنها ، لكنها لاتلبث أن تسقط فى أيدى المسلمين الذين لم يكونوا قد سكنوها قط من قبل ، وترتفع بها لأول مرة راية التوحيد ،

وتدوى فى أرجائها دعوة « الله أكبر » إذ يشيد عبد الله بها مسجدا كان أول مسجد شهدته تلك النواحى يعمره المؤمنون .

واذ فرغ القائد المسلم عبد الله بن عبد الملك من ذلك فقد شرع في ترميم حصن « المصيصة » ، ولا صحة لمن يقول انه بناه فينصرف الذهن الى أنه لم يكن موجودا من قبل ، وانما الأصح أنه أراد الترميم فرأب جدرانه وما تصدع من حيطانه ، ثم شحنه بالمقاتلة المسلمين « حيث وضع به ثلاث مائة مقاتل من ذوى البأس » ، وأسكن فى المصيصة الكثيرين من أهل الايمان حتى قيل انه هو بانيها .



وكان فى هذه السنة غزو المسلمين « أرمينية » واصطدامهم بالروم الذين زحفت جموع كثيرة منهم الى محمد بن مروان حيث التقى المصافان فى « نشوى » التى كانت من فتوح المسلمين زمن عثمان على يد « حبيب بن مسلمة الفهرى » وهى من مدن الفرس الحصينة وتقع فى أذربيجان الملاصقة لأرمينية ، كما تعتبر أيضا قصبة كورة « سفرجان » . ولما التقى الخصمان وجها لوجه دارت الهزيمة على البيزنطيين .

وقد أدب مروان من أيدوا العدو وناصروه ، وكان تأديبه أياهم شديدا ، فاستكانت « نشوى » للهدوء ، « وباينت العصيان ، ونبذت طاعة أهل الكفر والطغيان ، ودخلت فى عهد أهل الايمان وفتحت أبوابها لجند الرحمن » .



ثم كان خروج يزيد بن المهلب الى القلعة المنسوبة الى صاحبها « نيزك » من أرض « بادغيس » بأذربيجان التى وليها بعد موت أبيه سنة ٨٣ هـ وكانت خراسان موقع التقاء قواته بقواتها أكثر من

مرة ، وساعده ذلك على فتح جرجان وطبرستان ، أما اذربيجان فاغتنم يزيد بن المهلب فرصة خروج صاحبها فزحف عليها فملكها وامتلأت أيدى عسكره بالذهب والمال والذخائر والغنائم .

وكانت النيران توقد فى أعلى قلعتها فيراها الناس من مسافات بعيدة ، وكانت القلعة شديدة الحصـــانة لايظن القوم أن أحدا قادر على قهرها ، اذ كانت على قمة شاهقة الارتفاع شديدة الانحدار حتى قال القائل فى وصفها مما يدل على أهمية فتحهـــا ووقوعها فى أيدى المسلمين :

محلقة دون السماء كأنهـــا ... غمامة صيف زال عنها سحابها

وما خوفت بالذئب ولدان أهلها ... ولا نبحت الا النجوم كلابهـــا

وهكذا انبسطت القوة الاسلامية فى تلك البقاع الشرقية .

★★★

موسى بن نصير والمغرب :

وفى هذه السنة تقدم موسى بن نصـــير فى أرض المغرب من أفريقية حتى بلغ « شكوما » فأخضعها وتغلب على بربرها ، وأشهر قبائلهم التى اصطدم بها . وتمكن من اخضاع قبيلة « أوربة » ، وهى غلبة اتصلت بانتصاره الذى أحرزه فى تلك النواحى من قبل ـ اعنى سنة تسع وسبعين ـ وان كان قد ولى افريقية لأول مرة سنة سبع وتسعين ، فأتخذ القيروان موضع اقامته ، فحارب وانتصر وفتح معظم بلاد المغرب ، وساعده فى هذه الفتوحات ولداه عبد الله ومروان، فقد كانت لهما صولات ألزمت البربر بالخضوع ، وان يكن خضوعا مؤقتا وظاهريا ، وذلك لما طبع عليه البربر من حب الاستقلال والأنفة من الخضوع لأية قوة تحت أى مسميات ، وسنلقاه منذ ذلك الحين فى

هذه النواحي طيلة أيام ولاه الخليفة عبد الملك ، ويقول البعض انه حين قدم افريقية ــ أول مرة ــ وطالعته جبالها الشم قال لعسكره :

« ان من كان قبلي على افريقية أحد رجلين : اما مسالم يحب العافية ويرضى بالدون من العطية ٠

« أو كان جلا ضعيف العقيدة قليل المعرفة ٠

« واني ــ وأيم الله ــ لن أبرح هذه القلاع والجبال الممتنعة حتى يضع الله أرفعها ، ويذل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين » ٠

والخطبة أطول من هذا وهي تصور سياسته المبنية على عزمه الأكيد على أن يكون فاتح المغرب ، وأن يتم الفتح على يده ، ولا ينسب الى غيره من العمال والولاة ٠

***

فتح طرندة وفتح بادغيس من أعمال هراة ثم « اخرون » في تركستان :

فاذا يممنا وجهنا شطر الشرق في هذه السنة أيضا نجد أن عبد الملك يغزو أرض الروم حتى يبلغ أرض « طرندة » وهي بلدة داخلة في بلاد البيزنطيين وعلى مقربة من ملطية ، ويسكنها جماعة من المسلمين ، وتقول كتب البلدانيات بشأنها أنها ثغر من الثغور الاسلامية ، وبذلك أصبح هناك اتصال ــ أيا كانت صورة هذا الاتصال ــ بين العرب والأرمن ، ومما زاد في هذا الاتصال أنه كان بالمصيصة جماعة كبيرة منهم ، حتى ذكر البلدانيون عن المصيصة أنها كانت من « ثغور الاسلام » ، ويزيد من أهميتها للمسلمين أنها « بأرض الروم » كما قال القزويني « وعلى ساحل جيحان » ٠

وفى بعض سنة خمس وثمانين للهجرة الشريفـــة ولى أمر خراسان « المفضل بن المهلب بن أبى صفرة » الذى بادر الى غزو منطقة « بادغيس » التى هى من أعمال « هراة » ليؤمن حدود الدولة من تلك الناحية التى كانت تعتبر حدودا مكشوفة ، وكانت هذه النواحى تعتبر نفسها بعيدة عن متناول يد حكومة دمشق مما أغرى بعض المشركين على مضايقــة المسلمين بهـــا ، وان كان المسلمون هنـــاك قلة .

ونجح المفضل فى هذا الفتح مما حمله على أن يمــد رايتـــه الى منطقة « أخرون » وشومان وهما من اقليم الصاغانيان المعروف باسم تركستان فيما وراء نهر جيحون ، لكن يبدو أن فتحه للمدينة الأخيرة منهما وهى « شومان » والتى أصبحت من الثغور الاسلامية لم يكن تماما ، اذ سنرى بعد بضع سنوات قلائل « قتيبة بن مسلم الباهلى » يحاربها لانتزائها ، ويكون له شرف تعريفها بالاسلام .

ولقد أصاب المفضـــل بن المهلب من بادغيس ـ على وجـــه الخصوص ـ كثرة من الغنائم فاضت بها يداه وأيدى عســـكره ، فقسم ما أصابه على رجاله فكان حظ كل منهم وفيرا قدر بثمانى مائة دينار من الذهب ، ولم يبق مما نال شيئا ، ذلك لأنه ـ كما قال التاريخ ـ « لم يكن له بيت مال كبقية الولاة » .

وكان من عادة المفضل أنه كلما جاءه شىء أعطى الناس منه ، وان غنم شيئا قسمه فيهم ، فكان مبسوط اليد كريما حتى قال فيه القائل :

وأهـــل الغنى والفقر من كل معشر
عصائب شـــتى ينتوون المفضـــلا

فمن زائر يرجو فواضـــل سيبه
وآخـــر يعطى حاجـــة مترحيـــلا

وكان ذلك كله فى آخر سنة من خلافة عبد الملك ٠

ولاية قتيبة الباهلى على خراسان

فلما كان آخر العام التالى ولى أمر خراســـان القائد العربى العظيم قتيبة بن مسلم الباهلى صاحب الراية التى لم تنكس أبدا ، والذى يشهد التاريخ له انه ما عرف الهزيمة قط وأنه ما خاض حربا الا وانتصر ، وما جرى عليه قط ما يجرى على كثير من القادة فى كل زمان ومكان من نكسة فى الحرب ٠

ولقد جمع قتيبة فى نفسه ما أراد عبد الملك أن يكون عليه من يتولى أمر خراسان ، اذ اشترط فيه أن يكون « ماضيا صارما » ، فكان قتيبة بحزمه وعزمه وهمته وتخطيطه فى القتال ذلك الرجل « الماضى الصارم » ، غير أنه بدت منه عداوة لسليمان بن عبد الملك مما أفضى الى قتله فيما بعد فى سنة ٩٦ هـ ٠

وعرف أهل هذه البلاد من تلك النواحى من بلاد ما وراء النهر وأعداء الملة فى قتيبة هذه الصفات فهابوه وسالموه وخطبوا وده وبذلوا له الطاعة رهبة ورغبة ، حتى انه لما دخل خراســـان لقيه دهاقين « بلخ » بالترحاب وساروا أمامه ، وسار النصر فى ركبه دون أن يشهر سيفا أو يعلن حربا أو يريق دما حين وفد اليه أحد ملوك تلك الجهات فى أخريات تلك السنة حاملا اليه الهدايا ومفتاحا من الذهب رمزا لطاعته اياه ، وكان ذلك بداية نجاح لمسيرة الاسلام فى تلك النواحى القاصية الأعجمية ٠

وفى كتب التاريخ أنه فى أخريات سنة خمس وثمانين وفى مطلع السنة التالية جرى من الأحداث ما يشير الى استقرار الأمور فى نواحى الدولة لاسيما فى الجهة الشرقية ٠ على ان قتيبة هذا

غزا كثيرا من البلاد فيما وراء النهر ، ووطئت حوافر خيله أرض الصين وجبى منها الجزية وقد تعاظم اذ فتح ما فتح فادى تعاظمه الى كراهية الوليد له فدس له من قتله وقتل معه وكيع بن حسان .

همة مسلمة بن عبد الملك وخدمته للدولة :

ولقد كان لتعاون أبناء عبد الملك ـ وطاعتهم لا بيهم وتولى بعضهم قيادات كانوا أهلا لهـا ، لاسيما « مسلمة بن عبد الملك » البطل القائد ـ ما استطاعت به الدولة أن تجنى ثمارا طيبة فى أكثر من ميدان ، وربما كان أعظمها انتشار الاسلام فى كثير من بلاد ما وراء النهر وظهور العنصر العربى فى تعاون مشترك بناء مع أهل تلك النواحى خصوصا مع من أسلم من أهلها ، ونسب الناس ذلك كله ـ وكان حقا ما قالوه ونسبوه ـ لحنكة عبد الملك بن مروان حتى قال فيه أعشى بنى شيبان :

عرفت قريش كلهـــــا	لبنى أبى العـــاص الاماره
لأبرهـــــا وأحقهـــــا	عند المشـــورة بالاشـــاره
المانعـــون لمـــا ولـــوا	والنافعون ذوى الضراره

وهكذا استقام الحكم والحكام ، وصلح أمر الرعية ، وأخذ الاسلام فى الانتشار لتمسك أهله به .

اشتداد الحركة اللا أيقونية فى بيزنطة وموقف حكومتها :

ولقد جدت مستحدثات فى الدولة البيزنطية وكانت شـــبه معاصرة لهذه الأحداث ، ولعل أخطرها الحركة اللا أيقونية ، وهى رفض الدولة لما تآلف عليه جمهور المسيحيين هناك من توقير الصور والتماثيل والرموز الدينية المنحوتة والمنقوشة توقيرا وصل الى حد

يشبه العبادة ، وكان من أشــد المناهضين للأيقونات الامبراطور « قسطنطين الخامس » بن ليو الايسورى الذى عقد مجمعا كنسيا سنة ٧٥٤ م لتأييد حركة المناهضة مما أدى فى سنة ٧٨٧ م الى عقد مجمع مسكونى آخر كانت الامبراطورة « ايرين » راعيته ، فشجب هذا المجمع قرارات مجمع ٧٥٤ م ، وظلت بيزنطة تعانى الشدائد ما بين مد وجزر فى هذه الساحة الدينية التى اختلطت فيها السياسة بالدين اختلاطا شديدا ٠

على أن حركة عبادة الأيقونات وجدت تأييدا قويا بطبيعة الحال بين صفوف الاكليروس ورجال الدين والقسس والكهنة ، واذا كانت « ايرين » صاحبة الفضل فى غلبة الحركة الأيقونية فان هناك امرأة أخرى ماثلتها فى تأييدها القوى لها واعنى بها الامبراطورة « تيودورا » ولكنها كانت فى منتصف القرن التالى ٠

النشاط الاسلامى الحربى :

أما على الساحة الاسلامية فقد كانت هذه السنوات الأخيرة من القرن الأول للهجرة سنوات مجد ، ومقدمة لارتفاع راية الاسلام كدين ، كما كانت أعوام بناء وتعمير ٠

والملاحظ فى التاريخ الاسلامى ان سنوات الهدوء السياسى كانت سنوات خصب وازدهار وتنمية ودعوة ونشر للدعوة الإسلامية ، وقد يصاحب ذلك فى كثير من الأحيان زيادة مساحة البلاد التى تعتنق الدين ، وكذلك زيادة مطردة ملحوظة فى عدد أتباعه ٠ وهذه الظاهرة حرية بأن تتدبر لجدواها ، ففى سنة خمس وثمانين من الهجرة شمل الهدوء البلاد ، كما حقق المسلمون النصر على الروم فى غزوات يختلف المؤرخون عمن كان صاحب راية الاسلام فيها وحاملها : أهو مسلمة بن عبد الملك ؟ ، ام أخوه

هشام بن عبد الملك ٠٠ ؟ أم أخوهما عبد الله ٠٠ ؟ فأسماء هؤلاء كلها فى منطقة واحدة ٠ ومن الجائز أن يكون كل من الأخوة الثلاثة فى منطقة واحـدة ومن الجائز أن يكون كل من الأخـوة الثـلاثة على رأس طائفة من العسكر ٠

ومهما يكن الأمر فقد تم للمسلمين فتح بعض النواحى من ناحية « المصيصة » ، ثم لاقى المسلمون الروم وعليهم « ميمون الجرجمانى » عند « طوانة » التى عدها ياقوت من ثغور المصيصة أيضا ، وكان مع مسلمة ألف مقاتل من أهل أنطاكية ٠

كما فتح الله على المسلمين عدة حصون ٠ فهلك الكثيرون من أعدائهم ٠ أما الغزوة الأخـــرى التى يقــولون انه كان عليهـــا « هشام بن عبد الملك » فان أهميتها ترجع لأمرين أولهما ما تم من فتح حصون « بولق » و « الأخـرم » و « بولس » ٠ و « قمقم » ٠ وثانيهما مانزل بالمستعربة المتنصرة على أيدى المسلمين من ضربة عنيفة بقيت آثارها الأليمة فى نفوسهم وطعمها المر فى حلوقهم ٠

عبد الملك وانس بن مالك والحجاج وختم عنق أنس :

على أنه فى هذه السنة أيضا ـ أعنى سنة خمس وثمانين ـ أظهر الخليفة « عبد الملك بن مروان » عطفه على « أنس بن مالك ابن النضر » خادم رسول الله ﷺ ، وأكد تقديره اياه حين وصله منه كتاب يشكو اليه فيه من الحجاج بأنه « قال له نكرا ، وأسمعه هجرا » ، فغضب عبد الملك لأنس رحمه الله ، وحق له أن يغضب للرجل الذى لازم النبى عشر سنوات سعد بها كل السعادة ، وحينذاك بعث عبد الملك الى الحجاج كتـابا كله غضب وتأنيب « وتعجب من جرأته أن يعنت بأنس خادم رسول الله ﷺ الذى « كان يطلعه على سره ، ويفشى اليه الأخبار التى تأتيه من ربه » ، كما

جاء فى كتابه الى الحجاج ، ثم عقب ذلك بأن أمره « أن يمشى اليه على قدميه راجلا غير راكب » .

فمشى الحجاج اليه حسبما أمره ، وأقرأه كتاب عبد الملك وسأله أن يكتب الى الخليفة يلتمس منه الرضا والصفح عنه ، فكتب أنس لعبد الملك بذلك ، وكان الذى فعله الحجاج مع أنس هو ان الحجاج بن يوسف ختم فى عنق أنس ، وكما فعل مع بعض الصحابة « يريد كما يقول المؤرخون » اذلالهم وأن يجشمهم الناس ولا يسمعوا منهم لحقد فى نفسه .

***

ومات فى هذه السنة أبو الأصبغ عبد العزيز بن مروان بن الحكم وهو وال على مصر التى ظل على ولايتها منذ ان ولاه اياها أبوه سنة خمس وستين ، وكان لايحمل شيئا من خراجها ولا غيره الى دمشق ، لأن بلاد مصر والمغرب كانت له ، ولذلك لما غضب منه أخوه الخليفة حين رفض اجابته الى سؤاله بأن ينزل ـ (عن العهد الذى له من بعده) الى الوليد ـ وكتب اليه يأمره بأن يحمل خراج مصر اليه .

وكانت لعبد العزيز بن مروان معرفة طيبة بالحديث وعناية خاصة به ، وكان له دار بدمشق أصبحت دار صوفية وعرفت فيما بعد « بالخانقاه السميساطية » ، نسبة الى السميساطى أبى القاسم على بن السلمى الذى كان من أكابر الرؤساء بدمشق والذى توفى فى القرن الخامس (سنة ٤٥٣ هـ) .

فتوحات قتيبة فيما وراء النهر سنة ٨٦ هـ وطاعة البلغار للمسلمين :

ثم طلعت سنة ست وثمانين على المسلمين فاذا براياتهم تخفق فى بعض بلاد ما وراء النهر بقيادة الفاتح البطل « قتيبة بن مسلم » نائب الحجاج على خراسان ومرو ، وكثر السبى

في يده حتى قيل انه كان فيه امرأة لبرمك والد خالد البرمكى ، ذى الخبر الطويل هو وأسرته فى تاريخ بنى العباس وهارون الرشيد ٠

ولقد كان هذا العقد من القرن الاول للهجرة عقد فتوحات كبيرة اهتزت لها الدنيا في شرقي ووسط آسيا ، وشهد مطلع سنة ست وثمانين رايات المسلمين فى بلاد ما وراء النهر فى اقليم الصغد بأرض « طخارستان » ، واقترن اسمها آكثر ما اقترن باسم البطل المسلم « قتيبة بن مسلم » ، ولم يكن السبى ولا الغنائم الجمة بأخطر ما فى هذا الفتح ، ولكن الذى كانت له خطورته هو أن دهاقين « بلغار » قدموا اليه لأول مرة يعلنون ولاءهم ، ويبذلون طاعتهم ، ويؤكدون التزامهم بالسلم ٠

وفي ظل هذا الالتزام والاتجاه الجديدين من جانب كفار تلك البقاع سوف يتمكن الاسلام من التعريف بنفسه فى هدوء فيدخل فيه بعض من لا دين لهم ، ويفتح الله له قلوبا كانت جامدة (من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فاولئك هم الخاسرون) ٠

وربما كان « بلغار » المراجع الاسلامية هم من جماعات الخزر التى كانت تنزل جنوبى بحر قزوين ، يؤيد هذا ما جاء فى الحوليات العربية من ان دهاقين « بلخ » ساروا مع الفاتح المسلم ، وان ملك الصغد جاءه بالهدايا » ، كما أن « نيزك طرخون » صاحب القلعة التى عرفناها من قبل ــ سار الى قتيبة وحضر حروبه الى جانبه ٠ أما « نيزك » هذا فهو « صاحب الترك » فى كتب التاريخ الاسلامى ، وكان من أمره أنه أسلم ــ كما يقال ــ ولكن تحركت فيه مطامع عرقية وعصبيات محلية فعصى فيما بعد ، بيد أن قتيبة تمكن من أن يستنزله ، وقد انزعج « نيزك » مما وصفوا به قتيبة عنده من أنه « رجل شديد فى سلطانه ، سهل اذا سوهل ، صعب اذا عوسر » ٠

فرأى صلاح نفسه فى مهادنته اياه ، ولا ندرى شيئا من خبره بعد ذلك عند الطبرى ، وان كان اليعقوبى يشير الى أن قتيبة « أنزل به جزاء من يخادع الله ورسوله والمؤمنين » ، ولكنه لا يذكر لنا صورة هذا العقاب ، ولم يحدد متى كان انزال هذا الجزاء به ، ولعله كان بعد عام أو عامين ، وذلك لأننا نطالع فى حوليات السنة التاليـــة وأحداث السنة التى بعدها أخبار مسلم بن قتيبة فى اقليم « بيكند » ما وراء النهر ، ثم مع الترك وفرغانة . (وبيكند « بفتح الباء وسكون الياء المثناة من تحت وفتح الكاف ثم سكون النون) ، كما نطالع أنها صارت فى العهد الاسلامى بعد ذلك « ذات حصن ومسجد » .

وترد الأخبار بأنه فى هذه السنة أيضا ضربت الشام والبصرة وواسط بطاعون ، سماه ابن كثير بطاعون « الفتيات » وقيل فى تسميته بذلك « انما بدأ بالنساء » .

كان قتيبة منذ اللحظة الأولى من وصـــوله الى خراسان ـ سنة ست وثمانين ـ يمثل القائد الصادق فى اسلامه والفاتح الحريص على الدين القويم ، العامل على رفعة رايته ، اذ ما كاد يصل الى خراسان حتى عرض الجند فى سلاحهم وعدتهم ، وسار بهم بعد ان استخلف « بمرو « على حربهـــا عبد الله بن عمـــرو ، وعلى الخراج « عثمان سعدى » .

وكان لعتبة كثير من المماليك الترك والخزر ، وكذلك فى طخارستان ، تملكهم دون أن يشهر سيفا أو يريق دما ، وانما سبقته أخبار بطولاته وفتوحاته مما كان له ثقل كبير فى نشر الاسلام فى تلك النواحى .

واكتفى قتيبة بما فتح الله به عليه من أرض صارت للاسلام والمسلمين ملكا خالصا ، فانصرف عائدا الى « مرو » بعد أن ترك

« صالح بن مسلم » على العسكر فأبلى البلاء الحسن وانتصر ، ثم عاد الى أخيه قتيبة فأحسن جزاءه وولاه « ترمذ » التى نطالع فى كتب الجغرافية انها واقعة الى الشرق من نهر جيحون ٠

وفاة عبد الملك بن مروان وولاية ولده الوليد :

واذا كان عبد العزيز بن مروان قد مات سنة خمس وثمانين فقد تبعه أخوه عبد الملك بعد أقل من عام ، أعنى سنة ٨٦ هـ حيث وافاه أجله بدمشق فى منتصف شوال ٠ وقد جمع عبد الملك بين الفقه والعلم والحزم وحسن السياسة ٠

وتولى الخلافة مكانه ابنه الوليد فى المسجد الأقصى بعد أن نعى الى الناس أباه ثم دعاهم الى مبايعته فكان أول من قام له وبايعه « عبد الله بن همام السلولى » وأنشده وهو يمد يده اليه ٠

الله أعطاك التى لافوقها
وقد أراد الملحدون عوقها
عنك ، ويأبى الله الا سوقها
اليك حتى قلدوك طوقها

وكان الوليد كما وصفوه « صينافى نفسه ، حازما فى رأيه ، لاتعرف به صبوة » ٠ وكان عمره يوم استخلف ستة وثلاثين عاما ، وكان نقش خاتمه « أومن بالله مخلصا » ٠

وأبدى الوليد منذ اللحظة الأولى حرصه على هيبة الخلافة كجهاز تنتظم به شئون الأمة ، كما أبدى حرصه على مقارعه الروم حتى قيل انه لم يكد ينزل عن المنبر حتى عقد لأخيه « مسلمة » الراية

نغزو البيزنطيين فسار مسلمة وبصحبته « العباس بن الوليد » فاكتسح ما جاوره من أملاك بيزنطة وفتح « طوانة » .

ومجمل القول أنه لم تكد البيعة تتم للوليد بمسجد دمشق حتى استعد لاشعار الروم بمبلغ قوته : ارهابا لهم وحتى يدركوا أنه واقف لهم بالمرصاد ، وأن سياسته حيالهم كسياسة أبيه : حزما ومضاء وكيدا ، وليدركوا أن الدولة الاسلامية قرن لهم وكبش نطاح ، ثم نثر كنانته فانتقى منها سيفا بتارا ذلك هو أخـوه « مسلمة » فعقد له الراية لقتالهم ، وكان مسلمة في الواقع من أكفأ القواد العرب ، وكان أبوه عبد الملك ينعته « بناب بني أمية » . وصدق عبد الملك فان مسلمة دعم ملك أبيه وأخيه بما أنزله بالروم في آسيا الصغرى من هزائم سجلها التاريخ : عربيه ورومية ، واسلاميه ونصرانيه ، وبما انتزعه من أيديهم من حصون وقلاع ، واتخذ من أرمينية قاعدة لانطلاق قواته ، فتم له فتح حصـن « قمقم » ومنطقة تعرف ببحيرة الفرسان .

ويذكر التاريخ لمسلمة بن عبد الملك أنه غزا « الجراجمة » وعمد الى كل ما فيه تقليم أظافرهم ، فنقلهم من حيث هم الى حمص ففت ذلك في عضدهم ، وأدركوا أنهم أمام رجل لاتأخذه رحمة فيمن يحاولون زعزعة أمن البلاد .

على أن مواجهة الروم لم تصرف الوليد عن الالتفات الى احقاق الحق واعطاء كل ذي حق حقه ومجازاة كل ذي فضل على فضله ، والاحسان الى المحسن ان أحسن ، وتأديب المخطيء ان أخطأ ورده الى جادة الصواب ، فقد بلغه أن عامله على المدينة ركب متن الشطط في معاملة أهلها وأساء اليهم في أمور أخذوها عليه ، وجار عليهم في الأحكام ، وتحامل ظلما على بعض من لا يجوز التحامل عليهم

فبادر الخليفة فى ربيع الأول سنة سبع وثمانين الى عزل هذا الوالى عن المدينة وهو « هشام بن اسماعيل » ، ثم ساق الامرة الى زوج أخته عمر بن عبد العزيز الصالح التقى ، وكان عمره يومذاك خمسا وعشرين سنة ، فأخذ عمر نفسه بالعدل والرحمة واحقاق الحق ، وآلى ألا ينفرد بالرأى ، والا أن يجعل المشورة ديدنه ، ومن ثم فانه ما كاد يدخل المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وينزل دار مروان ويصلى الظهر حتى دعا عشرة من أبرز فقهائها ، كانوا أهل تقوى وصلاح وعلم وايمان : اذا قالوا صدقوا ، واذا استشيروا أشاروا بما يتفق وكتاب الله وسنة رسوله ، ثم أفضى اليهم أنه ما جمعهم الا لأنه لايريد أن يقطع أمرا من غير مشورتهم ، وطلب منهم « ألا يكتموه خبر عدوان أحد على أحد ، ولا ظلامة مظلوم يسمعون بها ، وأن يكونوا عينه وأذنه بما يرضى الله ورسوله ، فخرجوا من عنده يجزونه خيرا ويدعون له » ٠

موت ابن الشخير المحدث :

ومات فى هذه السنة عبد الله بن مطرف بن الشخير ، وكان قد روى الحديث عن عثمان والامام على كرم الله وجهه وأبى ذر ، ووصف بأنه « ذو فضل وعقل وفير » ، فلما مات خرج أبوه مدهنا فعجب الناس من أمره ولاموه على ما كان منه فقال لهم : « أأبكي وقد وعدنى الله ربى تبارك وتعالى بثلاث خصال ، كل خصلة منها أحب الى من الدنيا وما فيها ، اذ قال عز وجل « والذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » ٠ وهون المصيبة على نفسه ٠

موت عمر بن أبي ربيعة وأنس والحجاج وغيرهم من كبار الرجال :

كذلك شـــهد العقد الأخير من القرن الأول للهجرة الشريفة **موت عمر بن أبي ربيعة الشاعر الغزل وأنس بن مالك والحجاج بن يوسف الثقفي ومحمد بن يوسف الثقفي ·**

كما مات رجل كان قد وقف من الحجاج موقفا كبر على نفس الحجاج فبطش به بطشة رعناء وهو « سعيد بن جبير » اذ ضرب عنقه ، وكان « سعيد كما يشهد التاريخ من أعظم التابعين رضوان الله عليهم ، وكان عبد الله بن عباس ـ رضـــوان الله عليهما ـ يقدمه على نفسه فى الفتيا ، هو الذى شارك عبد الرحمن بن الأشعث فى خروجه على عبد الملك بن مروان فلما أمسكه خـــالد القسرى بعث به الى الحجاج فقتله ، وقيل انه قتله استجابة لالحاح الوليد . وكان مصرعه من أكبر ما أصـــيب به أهل الملة حتى ان الامام أحمد بن حنبل ليقول فيه صادقا وهو عارف بقدره وعلمه « قتل سعيد وما على الأرض أحد الا وهو مفتقر الى علمه » ، فرحمه الله فقيها وعالما ومحدثه وتابعـــا صـــادقا ، وحسبه من مدحة كريمة ما قاله ابن حنبل ·

★★★

اتمـــام فتـــح بيـــكند :

ونعود الى الأحداث الحربية الهامة فى مسيرة الاسلام فى آسيا فى هذه الفترة فنرى اتمام فتح « بيكند » التى أشرنا اليهـــا من قبل وهى أدنى مدائن بخارى الى النهر ، وكان يقال لهـــا « مدينة التجار » ، وكان ذلك الفتح على يد «قتيبة بن مسلم الباهلى» الذى خرج الى « مرو الروذ » من « مرو » حتى اذا بلغ ناحية « ذم » قطع النهر ، فلما رأى القوم هناك رايات الاسلام دانية منهم استنصروا بالصغد واستمدوا العون ممن حولهم ، فكثرت جموع المشركين الذين رأوا أن خير ما يفعلون فى هذه المرحلة الأولى هو

أن يقرنوا محاربتهم المسلمين بقطع الطريق بينهم وبين اخوانهم فى الشام والعراق ، فغابت أخبار المسلمين المحاربين عن اخوانهم مدة شـهرين ، فاضطرب بال الحجاج وجـأر الناس بالدعاء لهم فى المساجد .

أما قتيبة فلم تطر نفسه شعاعا وانما آلى الا أن يتابع الحرب بـلا هوادة ولا انقطـاع حتى ينـال احدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، أو هما معا ، وأعظم بهما من جزاء كريم يلقاه المؤمن التقى المرضى عنه .

وراح « قتيبة » يحض أهل الرايات ، واستبسل المسلمون كأعظم ما يكون الاستبسال ، فأنزلوا الهزيمة النكراء بعدوهم الذى منحهم الله أكتافه ، ودخل بعض من كتبت لهم النجاة « بيكند » اعتصاما بها ، فوضع قتيبة ـ كما يقول المؤرخون « الفعلة فى أصلها لهدمها » ، فسأله أهلها اذ ذاك الصلح فأجابهـم اليـه وصالحهم ، ثم استعمل عليهم رجـلا من بنى قتيبة وارتحل هو عنهم .

لكن ما لبث الكفار أن غدروا بعامله وقتلوه وجدعوا أنوف من كانوا معه ، فعاد قتيبة وقاتلهم وظفر بهم عنوة ، وأعمل السيف فى المشركين الخونة الناكثين للعهد . وكثرت الغنـائم فى أيدى المسلمين حتى قيل انه كان من جملة ما فتح الله به على المسلمين صنم أخذوه فأذابوه فخرج منه ألف وخمسـون ألف دينـار من الذهب ، الى جانب ما وجدوه فى خزائن تلك الناحية من الذهب الذى لم يصيبوا مثله قط من قبل ، فأكثروا من شراء السلاح والخيل ووقع فى أيديهم من آلات الحرب ما لم يكن يخطر لهم على بال ، وقال الشاعر الكميت فى ذلك :

ويوم بيكند لا تحصى عجـــائبه

وما بخــــاراء مما أخطـــأ العدد

وهكذا شهدت أخريات القرن الأول للهجرة الشريفة انتصار المسلمين الرائع فى بلاد ما وراء النهر ، وكان أعظم منه انتصار الاسلام هناك على الكفر والوثنية والشرك ، وكان ذلك فضلا من الله ، والله واسع عليم .

ودوى خبر انتصارات قتيبة فى كل مكان ، وحدث بها القريب والبعيد ، والشاهد والغائب .

كما قدم سنة سبع وثمانين ـ كما قلنا من قبل ـ « نيزك طرخان » ، والمسمى بملك الترك فى المراجع العربيـــة ـ على قتيبة لمصالحه ، وقيل انه كان فى يده بعض الأسرى من المسلمين الذين كاتبه فيهم قتيبة لاطلاق سراحهم ، وتوعده شرا ان هو لم يستجب ، فأدرك ملك الترك أن قتيبة ان قال فعل ، فبادر مستجيبا ، ثم زاد فقدم عليه مسالما مسترضيا ، ومصالحا ووادعا .

★★★

عناية الوليد بالمدينة المنورة :

ان الحروب والجهـــــاد لم يصرفا الوليد بن عبد الملك عن الاهتمام بالمدينة المنورة ، وحق له أن يهتم بها لمكانتها ومنزلتها وما نالته من شرف الهجرة اليها وتشرفها بجثمان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قبره النبوى الشريف .

لم يكن اهتمام الخـــــلافة بالمدينة بالأمر الجديد ذلك أنه لما سيقت الخلافة الى عبد الملك استعمل عليها عمر بن عبد العزيز فكان من خيرة الولاة الذين رأتهم مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام منذ أن اصطنع الخلفاء الولاة نوابا لهم عليها .

وكتب الوليد الى عمر بن عبد العزيز يأمره بان يزيد فى المسجد النبوى الشريف ويجدد فى بنائه ويدخل فيه حجرات أزواج النبى أمهات المؤمنين ، فعارض البعض فى ذلك ، وكان شيخ المعارضين « خبيب بن عبد الله » فلم يلتفت عمر بن عبد العزيز الى معارضته بل تجرد الى ما أمر به حتى تسع تلك البقعة الطاهرة بعضا ممن يفدون اليها للتشرف بالزيارة .

ولقد اختلف المؤرخون فى تحديد السنة التى تمت فيها هذه التوسعة : أكانت عام ٨٧ للهجرة أم كانت فى العام التالى ، ولكن يستفاد من مقارنة الروايات التاريخية ومعارضتها بعضها ببعض أن أمر الخليفة كان فى أخريات سنة سبع وثمانين ، وأن الهدم والبناء كانا فى صفر من سنة ٨٨ هـ .

كان الوليد يريد من عمر زيادة المسجد النبوى الشريف لا سيما من قبلته ليبلغ مائتى ذراع فى مائتى ذراع مثلها ، وأوصاه أن من باعه ملكه فليشتره منه والا فليقومه له : قيمة عدل ، ثم يهدم ذلك كله ويدخله فى المسجد الطهور .

ولقد وصلت الينا فقرات من هذا الكتاب حفظتها المراجع حتى القرن الثامن الهجرى ، أوردها المؤرخ عبد الرحمن سبط الاربلى وفيها يقول الخليفة لعامله عمر بن عبد العزيز « قدم القبلة ان قدرت ، وأنت تقدر لمكان أخوالك فانهم لا يخالفونك ، فمن أبى منهم فأمر أهل التبصر فليقوموه قيمة عدل ثم أهدم عليهم ، وادفع اليهم الثمن ، فان لك فى ذلك سلف صدق : عمر وعثمان » .



وبعث الوليد فى تلك السنة الى الامبراطور جستنيان الثانى يعلمه بما اعتزمه حيال المسجد الشريف ويطلب اليه أن يعينه فيه ،

ويقول بعض المؤرخين كالطبرى واليعقوبى وابن كثير وابن الأثير والذهبى ان جستنيان استجاب للوليد فبعث اليه « بمائة ألف مثقال ذهب ، وأربعين حملا من الفسيفساء » ثم يزيدون فيقول بعضهم انه بعث اليه بمائتى عامل ، فأرسل الوليد ذلك كله الى عمر بن عبد العزيز بالمدينة المنورة ، فوكل عمر البناء الى « صالح بن كيسان » ، وتمت الزيادة فى المسجد واستغرق العمل عامين . وكان صالح بن كيسان مؤدبا لأولاد عمر بن عبد العزيز ، كما كان مشهودا له بالتقوى والضرب بسهم وافر فى الحديث والفقه .

على أنه لا صحة لما يذكره البعض من أن المسلمين استعملوا عمالا من الروم فكل الظواهر تدحض ذلك القول وتدخله فى باب الزعم اذ لم يشر اليه ثقات من المؤرخين أمثال البلاذرى والدينورى ، مما يدل على أن هذا القول مستحدث ودخيل ، وأنه ساد فى فترة متأخرة من الزمن ووجد سبيله الى بعض كتب المؤرخين المتأخرين من العرب والمسلمين .

★★★

حفر الفوارة ليشرب منها أهل المسجد والعناية بها :

وكان الوليد شديد العناية بالعمارة والتعمير فكتب بعد فترة وجيزة من خلافته الى عمر بن عبد العزيز يأمره بأن يحفر « الفوارة » بالمدينة وأن يجرى ماءها ففعل بما أشار به عليه الوليد ثم ساق اليها الماء من ظاهر المدينة ، وكانت « الفوارة » قد بنيت فى ظاهر المسجد الشريف ، وذكر الطبرى أنه لما حج الوليد نظر الى بث الماء فأعجبته « الفوارة » فأمر لها بقوامين يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها فتم ذلك ، ثم أمره أن يحفر عدة آبار يشرب منها أهل المدينة والمتشرفون بالسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ثم زاد فى الاعمار وحفر الآبار وتجاوز فى ذلك المدينة المنورة

الى غيرها من مدن الاســـلام الأخــرى ، وحفر بئرا بمكة المكرمة بالثنيتين : ثنية طوى وثنية الحجون ، وأمر أن ينقل ماء هذه البئر ــ وكان عذبا ــ ليوضع فى حوض من أديم الى جنب زمزم ليعرف الناس فضل العين الجديدة ، وكذلك من أجل الزيادة فى ماء الشرب للحجاج ضيوف الرحمن ٠

وكان ذلك سنة ثمان وثمانين للهجرة الشريفة ٠ وعد ذلك كله من أعمال البر والمعروف التى نهض بها الوليد ، وكان ذلك حقا فالخير فى أمة محمد فى كل زمان ومكان عملا بقوله تعالى « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنــكر وأولئك هم المفلحون » ٠

★★★

شروع الوليد فى بناء المسجد الأموى بدمشق :

كذلك شهدت هذه السنة شروع الوليد بن عبد الملك فى بناء المسجد الأموى بدمشق الذى يعرف أيضا بأسماء شتى فهو جامع بنى أمية ، وهو جامع دمشق ، وهو الجامع المعمور ، وانه ليتعبر مفخرة من مفاخر العبقرية العربية فى البناء والعمران ، ويقال ان الشروع فى بنائه كان فى ذى القعدة من العام السالف ٠ ومهما يكن الأمر فقد كان الوليد ــ كما وصفه البعض ــ « ذا همة فى عمارة المساجد » ، وكان الناس فى زمانه اذا التقوا سأل بعضهم بعضا عن البناء والعمارة ٠

واستغرق بنــاء الجامع الأموى قرابة تســعة أعوام ، بسط الوليد خلالها يده بالأموال غير ضنين بها فقد أراده أن يكون عظيما ورائعا ، ولمــا قعد البناة وقام البناء كان على الصورة التى أرادها الوليد ، وعلى قدر البذل وصدق النية يكون الأثر والبناء ٠ وقد

لخص مؤرخ الاسلام شمس الدين الذهبي ما يتعلق بذلك في تاريخه فقال « ان الوليد بنى جامع دمشق وزخرفه ، وكان نصفه (قبله) كنيسة للنصارى ، ونصفه الذى به محراب الصحابة للمسلمين ، فعرض الوليد على النصارى عدة كنائس صالحهم عليها فرضوا ، ثم هدمه سوى حيطانه الأربعة ، وأنشأ فيه القناطر وحلاه بالذهب والجوهر وأستار الحرير » .

وقيل انه كان يعمل فيه اثنا عشر ألف مرخم ، وغرم عليه من الدنانير المصرية زنة مائة قنطار وأربعين قنطارا بالدمشقى حتى صيره « نزهة الدنيا » .

وقد ورد فى فضل جامع دمشق من الأخبار شيء كثير اهتمت به المراجع العربية وكتب التاريخ الاسلامى وكتب الفن والعمارة .

★★★

وخرج فى تلك السنة للحج عمر بن عبد العزيز ومعه جموع عدة من قريش ، وأحرموا معه من « ذى الحليفة » وساق معه بدنا . فلما كان بالتنعيم صادف من أخبره أن مكة قليلة الماء وأنهم يخافون على الحاج العطش ، فقال عمر « تعالوا ندع الله » ، فدعوا وألحوا فى الدعاء فما وصل ركبهم الى مكة ليلا الا وقد هطلت السماء مدرارا ، وأمطرت عرفة ومنى ، وكثر الماء بمكة تلك السنة ، ووجد الحجيج منه فوق الذى يرجون وفوق الذى كانوا يتمنونه .. فضلا من الله جل جلاله على بلده الحرام ، وصدق الحق تبارك وتعالى اذ يقول وهو أصدق القائلين « **وقال ربكم ادعونى استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين** »

سورة غافر آية ٦٠



وتعتبر بعض أحداث سنة تسع وتسعين للهجرة الشريفة امتدادا لأحداث السنة السابقة لها ، لاسيما فيما يتعلق بالفتوح فى بلاد ما وراء النهر ، وكان اصطدام المسلمين بالبيزنطيين فى آسيا الصغرى ، كما أن السنة السالفة شهدت « مسلمة بن عبد الملك » على حصار القسطنطينية ، وكان للحرب فى كلتا الجبهتين أهميتها فى مسيرة تاريخ هذه الناحية من العالم ٠

الباهلى يحارب وردان خذاه ملك بخارى :

فأما فى الشرق فقد كان اللواء لايزال مع الرجل الجدير به والعظيم فى بطولته وهو « قتيبة بن مسلم الباهلى » الذى قام بمحاربة « وردان خذاه » ملك بخارى فعاد أدراجه اليها وضايقها ، فوجد فى ملكها محاربا صلبا أعجزه التغلب عليه ، كما عزت عليه المدينة فكره أن يعود فاشلا ، فاحتال حتى أتاها من ناحية معينة اختارها كانت قد غابت عنه أولا فأنطلق جنده منها وامتلكوا ما حول البـــلد ٠

لكن لم يكن من اليسير التغلب النهائى على بخارى التى كانت قد دانت للمسلمين سنة تسعين حين تجمعت جموع عسكر بخارى وعسكر الصغد والترك ، وكان الصدام عنيفا ضاريا بين المسلمين والمشركين ، وكان الفوز فى أول الأمر لأهل الكفر حتى أنهم دخلوا فى معسكر قتيبة وأحدقوا بأهل الايمان حتى « ضرب النساء وجوه الخيل وبكين » ، ووقفت بعض جماعات العدو على نشز من الأرض فندب قتيبة بنى تميم لازالتهم عن موضعهم هذا ، ثم نادى : « من جاء برأس مشرك فله مائة » ، فهب الكثيرون وجاؤوا بخشب فنطروا به النهر وعبروه وحملوا على الترك حملة صدق فماكفوا عنهم حتى أزالوهم عن أماكنهم وأرغموهم على الفرار ، وقـــدر للمســـلمين يومذاك النصر بقيادة قتيبة ، وسقطت فى أيديهم بخارى التى كان

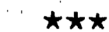
فتحها غرة فى جبين الفتوحات الاسلامية فيما وراء النهر ، اذ أصبحت دار أمن وأمان ، وسلام واسلام ، وعلم وفقه على مدى العصور حتى فى أحلك أزمانها ، وحتى حين تسلط عليها من لا يدينون بدين ٠

المسلمون يحاربون الخزر وكذلك عمورية :

وكانت القوات الاســــلامية بقيادة مسلمة بن عبد الملك قد شرعت سنة تسع وثمانين فى الزحف شرقا لمحاربة جماعات يسميها المؤرخون العرب بالترك ، وهم ليسوا بالترك الذين نعرفهم ولكنهم من الخزر ، نستدل على صحة هذا القول من قتال « مسلمة » اياهم عند « الباب » أو « باب الأبواب » والتى تسمى أيضـــا « دربند » والتى يرجع أصل بنائها الى الفرس قديما وتقع على بحر قزوين وعند شعاب جبال القوقاز ٠٠



أما فى آسيا الصغرى فقد وطئت سنابك خيل المسلمين بقيادة مسلمة بن عبد الملك أيضا بلدة « عمورية » التى تعرف اليوم باسم « سيقلى حصار » ، وكانت من مدن الروم الحصينة فوجد مسلمة بها جمعا من البيزنطيين قد استعدوا لحربه فحاربهم فهزمهم فانفسح الطريق أمامه للتغلب على مدينة هرقلة وبعض الحصون الأخرى ، وقد سهل ذلك كله على أهل الايمان ايمانهم الصادق « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم » ٠



موسى بن نصير وفتحه الشمال الافريقي والسوس وطنجة واسلام الكثيرين من البربر :

وندع الآن الشرق الأقصى لننتقل الى المغرب الافريقي فنرى أن ولاية أفريقية آلت في سنة تسع وثمانين الى موسى بن نصير فظن البربر في الشمال الافريقي أنهم قادرون على ضرب القوة الاسلامية لكنهم أخطأوا التقدير وخانهم الظن ، فقد كان موسى الرجل القوى الصلب ، فاستطاع ان يشل حركتهم ، ويخمد نائرتهم ، ويطفىء ثورتهم ، وكانت خاتمة حربهم ضده فتحه طنجة التى ولى عليها « طارق بن زياد » . ثم أغزى ابنه مروان بلاد « السوس الأقصى » التى تجاور المحيط ، وأغلب سكانها من البربر ، وقد ولوا عليهم زعيما منهم اسمه «مزدانة الأسوارى» . ونستطيع أن نتصور ضخامة مكسب المسلمين اذ كتب الله لهم النصر يومذاك ، واذا كانت العبرة بالخواتيم فانه كان في الوقت ذاته نصرا للبربر اذا أسلموا . وسيصبحون حتى يومنا هذا ركيزة من ركائز الدين في الشمال الافريقي يعتز بهم الاسلام ويذبون عن بيضته ويحمون ذماره ، وأصبحوا أخوة للعرب تجمعهم آمال وآلام واحدة مشتركة .

ولقد كان رسوخ قدم موسى فى المغرب مشجعا له على التطلع الى البحر وما وراءه ، فبلغت جيوشه أقصى ما يمكن ان تبلغه من أراضى الساحل الغربى حتى أطلت على المحيط الأطلسى أو « بحر الظلمات » ولم يوقفها عن التقدم سوى أمواجه العاتية . . واذا كانت تلك الأراضى قد دانت للقائد المسلم فقد عزت عليه فى الوقت ذاته مدينة « سبتة » التى كان يحكمها أمير نصرانى اختلفت فيه المراجع ، أهو قوطي ممن لهم السلطة فى أسبانيا ؟ ، أم هو عامل من عمال الروم ، وان كانت الأحداث ترجح أنه كان من الفريق الأول اذ تؤكد الرواية الاسلامية أنه كان لصلته بلذريق ــ آخر ملوك القوط الغربيين في شبه جزيرة ايبيريا ــ أثر فى توجيه أنظار موسى الى ما وراء « العدوة » . وأخذ موسى فى الوقت ذاته ــ وقد أغرته

ظروف محلية وأخلاقية ـ على أن يعد من العدة في البحر ما يمكنه من دخول أسبانيا ، واستعان في ذلك بانشاء سفن يستطيع بمن يجرده عليها من مضايقة البيزنطيين والقوط الغربيين، وكانت احوال أسبانيا السيئة عاملا على مساعدة موسى بن نصير فقد تكاتفت قواته بقيادة « طريف بن مالك » المغربي مع قوات « يوليان » على أن تطأ الساحل الأسباني وذلك سنة ٩١ للهجرة · وان النظرة المتأنية لهذه الحركة لتبين ان أثر يوليان كان ثانويا ، وأن روعة الفتح انما تعود الى المسلمين الذين أولوا البحرية ـ في هذا الظرف على وجه الخصوص ـ بالغ اهتمامهم فتمكنوا بقيادة طارق بن زياد من الوصول الى الشاطيء الأسباني ونزلوا في بقعة لاتزال حتى اليوم تحمل اسم ذلك البطل المسلم ، وكان أول عمل عمله هو أن حصن المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء ، وجاء المدد الى موسى ، ودار القتال بين الجيشين : الاسلامي وعسكر القوط ، وأسفر في وقعة « شذونة » سنة ٩٢ هـ عن نصر مؤزر للمسلمين اذ يسرت لهم هذه المعركة الطرق الى الداخل فتمكنوا من طرق أبواب قرطبة وغرناطة وطليطلة ، وحينذاك قام موسى على رأس قواته وأكمل فتح جزء من أراض أخرى في أسبانيا القوطية ··

موسى يجمع بين الفتح والتعمير :

ونتوقف عند هذا الحد لنعود فنقول : لقد كانت احدى يدى موسى تحارب والأخرى تعمر وتبنى ، فأقام دارا لبناء السفن قرب « قرطاجة » مما يبشر بأن تكون هذه النواحي رباطا اسلاميا ، فقد واكب الفتح انشاء أسطول اسلامي في الغرب وهو الأسطول الذي حقق للاسلام السيادة في هذه الناحية من البحر الأبيض المتوسط ، وسلب من القوط الغربيين كثيرا من الموانى مما جعل الشمال الافريقي يدين للعرب أكثر مما يدين به لغيرهم الذين تلفتوا فلم يجدوا في أيديهم سوى « سبتة » ويحكمها أمير قوطي هو المعروف بالكونت يوليان ·

فتح ميورقة ومنورقة وغزوة الأشراف :

وشهدت هذه السنوات نشــاطا اسلاميا ففى سنة ثمانين للهجرة خرج عبد الله بن موسى بن نصير باشارة من ابيه ــ وفى ثلة كبيرة من الجند ووجوه الناس وأكابر المسلمين ــ الى جزيرتى ميورقة ومورقه فعتحهما الله عليه ، وسميت هذه الغزاة بغزوة الأشراف لكثرة من كان فيها من أشراف الناس ، وترجع أهمية هذا الفتح الى أنه أصبح للمسلمين قواعد بحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وسوف يترتب على هذا الفتح انتشار النفوذ الاسـلامى سياسيا وتجاريا فى هذا الحوض .

★★★

احداث هامة فى خواتيم القرن الأول :

وشهدت الفترة الأخيرة من القرن الأول للهجرة عدة أحداث أخرى منها ما هو اداري بحت كاستعمال الوليد « لقرة بن شريك » على مصر ، كما أصبح عمر بن عبد العزيز أميرا على مكة والمدينة والطــائف .

كذلك كان من الأحداث ما هو خاص بالعــلاقات الخارجية لاسيما مع البيزنطيين ، كارسال الأمير « عباس بن الوليد » على رأس حملة بلغت « ارزن الروم » من مدن ارمينية ، ومثل غزوة « مسلمة » لأرض الروم من ناحية سورية وفتحه الحصون الخمسة التى بها .

كما شــهدت هذه الســنة موت أنس بن مالك بن النضر الأنصارى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أسن وجاوز التسعين من عمره بست سنوات ، وهو عند بعضهم قد بلغ مائة

وسبعا ، ويقال انه آخر من مات بالبصرة من صحابة النبى عليه الصلاة والسلام .

وقد ذهبت الكعبة الشريفة لأول مرة فى هذه السنة ولم تجر العادة بتذ هيبها من قبل ، اذ بعث الوليد الى عامله بمكة « خالد بن عبد الله القسرى » بصرة فيها ثلاثون ألف دينار ضربها صفائح رقيقة وجعلها على باب الكعبة والأساطين التى بداخلها وعلى الأركان والميزاب ..

★★★

بطولات الشاب محمد بن القاسم الثقفى فاتح الهند والسند :

وكان الحجاج قد ندب ابن عمه « محمد بن القاسم الثقفى » لفتح بلاد السند ، وكان ابن العم هذا حينذاك فتى فى السابعة عشرة من عمره ، لم تمنعه طراوة سنه من قيادة جيش الاسلام لمحاربة قوم تمرسوا بالقتال وفنونه ، حتى قال فيه القائل :

ان المرؤة والسـماحة والندى   لمحمد بن القاسـم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة   ياقرب ذلك سؤددا من سؤدد

وعرف محمد بن القاسم الثقفى فى التاريخ بفاتح السند التى زحف منها الى « مكران » وكان الصدام عنيفا بينه وبين « داهر » أو ظاهر أو زاهر ملك البلاد ، ولكن القائد الشاب المسلم تغلب على خصمه ، وظل يسير من نصر الى نصر الى أن ولى الخلافة « سليمان بن عبد الملك » وكان كارها للحجاج وعماله ونوابه فأصاب رذاذ سخطه فاتح السند ابن القاسم ، فأمر باحضاره فحملوه اليه على أسوأ صورة لم يكن أحد من المسلمين أو غيرهم يتوقعها لشاب فتح الله على يديه بلادا لم يكن أحد يحلم بها ، وظل محمد بن القاسم

مرسما عليه ، واختلف الناس فى موته • ولقد كان محمد بن القاسم الثقفى غرة فى جبين الفتح الاسلامى الا أن الخصومات الشخصية أودت به ولم يكن له يد حتى يصيبه مثل هذا الأذى الذى حاق به ، ولكنها كراهية من سليمان بن عبد الملك للحجاج أصابت كل من كانت له صلة به ، وكان من بينهم محمد بن القاسم هذا فاتح الهند ، فلما جاؤوه به قيده وعذبه وما له من جريرة ، واختلف الناس فى صفة هلاكه فمن قائل انه مات فى الأسر تحت الضرب والعذاب ، ومن قائل انه قتل نفسه بيده ليتخلص من الشدة البالغة التى كان يعانيها وما نحسب ذلك الا من خيال البعض ، فانه ان يفعل ذلك بنفسه يخرج على الاسلام •

لم تكن الهند جديدة على المسلمين فقد عرفوها تجارا منذ أيام جاهليتهم ، فلما كان صدر الاســـلام استولوا على « مكران » واتخذوها ــ كمـــا يقول البـــلاذرى ــ « ممرا يغيرون منه على الســـند » •

ولقد خرج محمد بن القاسم حتى بلغ « الدبيل » ــ ميناء تلك البلاد ــ وتم له فتحها ، فكان أول ما عمله أن بنى لله مسجدا اعترافا بفضله •

وكان الهنود قد استعدوا للمســـلمين بالفيلة وعليهم ملكهم « زاهر » أو « داهر » أو سمه ما شئت من اسم قريب فى النطق من هذا اللفظ ، فزحف المسلمون الى « ملتان » بعد أن أهلك الله « هذا » الملك •

وفى هلاك « زاهر » يقول قاتله مفاخرا :

الخيل تشهد يوم زاهر والقنا ... ومحمد بن القاســـم بن محمد
أنى هززت الرمــح هزة ماجد ... حتى علوت عظيمهم بمهنـدى
فتركته تحت العجــاج مجندلا ... متعفر الخـــدين غير موســـد

★★★

أهل الصغد يصالحون المسلمين :

أما فى بلاد ما وراء النهر فقد توالت انتصارات المســـلمين بقيادة الباهلى قتيبة يأخذ بعضها بحجز البعض الآخر ، ودوى خبر انتصاراته فى كل صقع ونادى ، وبلغ ذلك مسامع أهل الصغد فأيقنوا أن الخير كل الخير لهم فى مصانعته والسعى الى موادعته ، فبعثوا فى سنة تسعين يعرضون عليه الصلح فأقرهم عليه وعلى السلام يكون بينه وبينهم ، على أن يؤدوا الجزية للمسلمين .

وقيل فى الأسباب التى دعت أهل الصغد الى الصلح ما رأوه من استسلام بخارى لقتيبة .

★★★

فرار يزيد بن المهلب واخوته واستيلاء الخوف على نفس الحجاج :

واذا كان الحجاج قد سره هذا النصر فقد بلبل خاطره ما كان من هرب « يزيد بن المهلب » واخوته ـ وكانوا فى حبسه ، فقد فروا رغم شدة يقظته فى مراقبتهم وكثرة الحرس الذى جعله عليهم ، لكنهم دبروا حيلة مكنتهم من الفرار ، وأحس الحجـــاج بالسخرية به وبمرارتها حين سمع قول الفرزدق :



ولم أر كالرهط الذين تتابعوا على الجذع والحراس غير نيـام
مضوا وهمو مستيقنون بأنهم الى قدر ـ آجـالهم ـ وحمام

ونجح الهاربون فى الوصول الى سليمان بن عبد الملك الذى أمنهم ، ثم كتب فيهم الى أخيه الوليد سائلا اياه الأمان لهم ، فاستجاب الوليد وتجاوز عن يزيد بن المهلب ورده الى سليمان فارضى آل المهلب واطمأنت نفوسهم بعد انزعاج « **وقالوا الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن • ان ربنا لغفور شكور** » •

★★★

على أن قصة يزيد بن المهلب لم تنته عند هذا الحد ذلك أنه لما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز عزله وحبسه مرة أخرى ولكن كان حبسه فى حلب هذه المرة ، وظل فى سـجنه حتى قام رجـال فأخرجوه منه وأطلقوه وذلك بعد موت عمر ، فمضى بهم الى البصرة واستولى عليها وذلك فى السنة الثانية من القرن التالى ، ولم تهدأ له الحياة فقد شبت العداوة ضارية بينه وبين مسلمة بن عبد الملك وهى عداوة انتهت بحرب بينهما أفضت الى قتل يزيد فى موضع يسميه الطبرى بالقصر •

★★★

الحرب مع اهل تركستان ومقاتل بلدة « شـومان » ، ثم قتـال أذربيجـان :

وشهد مطلع العقد الأخير من القرن الأول للهجرة قتالا عنيفا بين المسلمين وكفار ما وراء النهر فى تركستان فى بلدة « شومان » التى قام ملكها بطرد عامل قتيبة عليها ، ثم لج فى الخيانة حين وثب على أحد رسولى القائد المسلم فقتله فغضب قتيبة لهذه الفعلة

النكراء وزحف على « شومان » وملك قلعتها ، وغنم وسبى ، ثم كانت ذروة نكبتها فى هلاك ملكها .

وبعث قتيبة من مكانه هذا من جبى له جزية أهل « الصغد » فلما تم له ما تم من فتح وجباية وجزية انكفأ الى بخارى وقد رسخت هيبة الاسلام والمسلمين فى تلك النواحى .

★★★

اذا كان هذا كله قد تم على يد قتيبة فقد رفرفت فى الوقت ذاته فى نواحى « أذربيجان » رايات بنى أمية ، ركزها هناك « مسلمة بن عبد الملك » اذ استسلم له كثير من القلاع والحصون .

فتح الأندلس ووقعة شذونة وخاتمة لوذريق :

على أن أكبر الفتوحات ذات الأثر الضخم فى مستقبل الأمة والملة بل وفى مسيرة التاريخ الأوربى المسيحى والشرقى الاسلامى على السواء كان فتح الأندلس على يد والى طنجة « طارق بن زياد » الليثى مولى موسى بن نصير ، اذ عبر البحر من « سبتة » فى سفن أمده بها حاكمها « جوليان » كما ذكرنا من قبل لأمر فى نفسه ضد الملك لذريق القوطى ملك أسبانيا النصرانية الذى كان فى جيش كثيف استعد به لصد المسلمين ، فلما رأى طارق كثرة جيش العدو كتب الى مولاه « موسى بن نصير » يستمده النجدة فأمده بخمسة آلاف محارب ، وجرت بين الجانبين موقعة عرفت بوقعة « شذونة » ، نصر الله فيها عسكر الاسلام ودارت الدائرة على القوط وملكهم الذى كان ذلك اليوم هو آخر العهد به وآخر عهده هو بالدنيا ، واختلف الناس فى نهايته اذ عثروا على جواده قرب ساحل البحر ، أما هو فلم يقفوا له على أثر ، فرجحوا موته غرقا .

وقال البعض فى تفسير الغموض الذى أحاط بخاتمته انه من كثرة جراحه ألقى بنفسه فى النهر فابتلعه اليم « فما عثروا عليه حيا ولا ميتا » كما يقول ابن الابار .

وقال آخرون انهم عثروا على جواده وعلى نعله ... فصار أسطورة يغلفها الخيال ، ولا يعرف أحد حقيقة مصيره ، ولا يدرى أى واحد على أى شكل كانت نهايته ، ولامراء فى أن جيش القوط انهزم أمام الفاتح المسلم هزيمة نكراء ، وفتح الله البلاد على المسلمين الذين تابعوا الزحف على بعض المدن الاسبانية الأخرى كطليطلة وأستجة وقرطبة وغرناطة ، فارتفعت راية التوحيد ونودى بالله أكبر لأول مرة فى تلك البقاع، وانساب النداء عذبا رقيقا ليجذب اليه الكثيرين من أهل اسبانيا الذين أخذوا بالحضارة والاسلام ، وساهموا فى التنمية الفكرية والروحية والعمرانية ، حتى أصبحت الأندلس منارة الملة السمحة وموطن الثقافة والايمان ، الى أن عدا على ذلك كله حقد أسود بعد بضعة قرون ، وكان مما ساعده على أن ينشب مخالبه فى الأمة الاسلامية تفرق كلمة أهلها وتشتت الأهواء ، وتنكب رجال منها عن طريق الهدى فظلموا أنفسهم وكفروا بنعمة الله « فاذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين » .



احداث سنوات الوليد الأخيرة ونهاية القرن الأول للهجرة :

وكانت السنوات الأخيرة من حكم الوليد والعقد الأخير من القرن الأول للهجرة حافلة بالأحداث مع بلاد ما وراء النهر ، فقد غزا قتيبة « سجستان » سنة اثنتين وتسعين ، وتمكنت فى نفوس الجميع هيبة المسلمين حتى ان ملك خوارزم راسل قتيبة سرا فى العام التالى ليعينه على أخ له ناصبه العداء ، ففسد ما بين الشقيقين

وانصرمت بينهما حبال الأخوة ، فاستجاب له قتيبة وزحف على الأخ المتمرد .

ثم جاءه كتاب من ملك خوارزم الذى كان قد لجأ الى مدينة يسمونها مدينة « الفيل » مما وراء النهر ويصفونها بأنها أحصن بلاد الناحية ، وورد فى هذا الكتاب أنه يصالحه على عشرة آلاف رأس ، ويطلب اليه أن يعينه على أخيه فتم الأمر لملك خوارزم كما أراد .

ولقد ذكر البلدانيون والمؤرخون معا أنه لما فتح قتيبة « خوارزم » كان يقال لقصبة الاقليم التى استولى عليها « الفيل » ثم صار اسمها « المنصورة » ، ويقال انها كانت تقوم على الجانب الأبعد من نهر « جيحون » ، غير ان فيضان « جيحان » ما عتم ان طغى على المنصورة وخربها .

قتيبة يزحف على الصغد واستعانتهم بملك الشاش وأمراء فرغانة ثم صلحهم مع قتيبة :

اذا كان النصر يجلب النصر فقد قام أحد رجال قتيبة وأخبره أن الوقت اذ ذاك (أعنى سنة ثلاث وتسعين) أنسب ما يكون للغلبة على « الصغد » لأنهم آمنون أن يأتيهم القائد المسلم عامهم هذا ، وكان « الصغد » قد نقضوا ما بينهم وبين المسلمين منذ زمن ، فبادر قتيبة الى لزحف عليهم وحاصرهم شهرا أعطبهم فيه وان لم يكن فى هذا الشهر حرب ولا قتال . فاستجاشوا بملك « الشاش » وأمراء فرغانة وغيرهم . وكانت « الشاش » تعد خط الدفاع الأول فى وجه الترك فى نواحى بلاد ما وراء النهر ، فما راعهم الا ومجانيق المسلمين ترميهم بالدمار ، فبعثوا الى قتيبة يسألونه أن يكف يومهم هذا حتى يصالحوه غدا ، فكان جوابه فيما بينه وبين رحاله « جزع

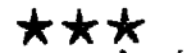
العبد » . ثم استجاب لهم فصالحوه على مبلغ من المال يحملونه اليه كل سنة وأن « تفرغ المدينة من كل مدجج بالسلاح ، وان يبنى بها مسجد » ، فتم الصلح على هذه الشروط ودخل قتيبة المدينة ، وصلى شاكرا الله وحطم من أصنامهم ما وصلت يداه اليه .

★★★

فلما كانت سنة خمس وتسعين امتد ظل الاسلام على نواح كثيرة من بلاد ما وراء النهر وكان كل ذلك بفضل ألمعية القائد العربى المسلم « قتيبة بن مسلم الباهلى » الذى رفع اسم قبيلته « باهلة » ، فكان لها بسببه الذكر الحميد الباقى ما بقى التاريخ .

ولقد رأينا أن الأمر تمكن لقتيبة فى بخارى وكش ونسف وخوارزم ، وحينذاك وضع خطة ليكمل الفتح وهى أن يتجه هو ذاته الى فرغانة على رأس بعض العسكر الاسلامى أما البعض الآخر فيسير الى بلاد الشاش بمن انضاف اليهم من جند بخارى وغيرها . أما بلاد الشاش فهى المعروفة اليوم بطشقند ، وسار الجند مع جند بخارى عند دلتا نهر « جيحون » .

ووطأت أرض « الشاش » ثم لحقت به فى « كاشان » عاصمة فرغانة قوات جديدة وزحف الجميع منها الى « خجندة » التى هى أول مدن فرغانة من الغرب ، وهناك رفرفت الراية الاسلامية ، فلما فرغ من ذلك منتصرا أمده الحجاج — عامل الخلافة على المشرق — بعسكر من العراق وكان ذلك فى السنة التالية ، وبذلك تجمعت تحت لواء قتيبة حشود كثيفة زحف بها على الشاش مرة أخرى وذلك سنة ست وتسعين ، فأتم فتحها ، ووجد الاسلام فى ربوعها مكانا ينزله بالترحاب ، فيتعرف عليه الكثيرون ممن شملتهم عناية الرحمن فهداهم الى الحق المبين .



دخول موسى بن نصير على الخليفة بدمشق :

وتشهد سنة خمس وتسعين دخول موسى بن نصير دمشق قادما من أفريقية استجابة لأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك اذ استدعاه فاستخلف موسى أولاده الثلاثة على البلاد الداخلة فى نطاق حكمه ، فكان أحدهم فى « اشبيلية » وثانيهم بالمغرب الأقصى وثالثهم على أفريقية وحمل موسى بن نصير الأموال ــ كما يقولون ــ على « العجل والظهر » وصحب من الأسرى ثلة كبيرة من أبناء أشراف القوط « وعلى رؤوسهم تيجان الذهب ، وفى أوساطهم مناطق الذهب » ، وكان ما حمله من الغنائم لا يقدر بثمن لكنه يصور مدى ما بلغته تلك البلاد الواقعة الى الغرب من ثروة ضخمة ضل أصحابها فاتخذوها حلية ولم يشكروا نعمة الله عليهم ليجعلوها نماء للبلد ، وقوة للناس ، وسلاحا يدفعون به من يغير عليهم .



موت الحجاج :

على أن هذه السنة ذاتها شهدت يد الردى تمتد الى الحجاج ابن يوسف الثقفى ، الذى كان لموته وقع اليم فى نفس قتيبة اذ كان فضل الحجاج عليه عظيما فى تشجيعه على فتح ما فتح الله به عليه من البلاد والأمصار فيما وراء النهر ، ولامداده اياه دائما بالعسكر الاسلامى الكثيف والحشود الضخمة ، غير متوان ولا مقصر ، ولتوليته اياه خراسان التى كانت مركزا ومنطلقا لنضاله فى الفتوحات المباركة فى مستقبل الدين فى هذه المناطق النائية الأعجمية ، ولذلك قيل انه لما بلغه خبر وفاة الحجاج تمثل بقول القائل :

لعمرى لنعم المـــرء من آل جعفـر
بحـوران أمسى ، أعلقتـه الحبائل

فان تحى لى أملك حياتى ، وان تمت :

فما فى حيـــاة بعد موتك طائـــل

وكان الوليد يعلم ما سوف يحدثه موت الحجاج فى نفس قتيبة من جزع وحزن ، فكتب اليه بالاستمرار فيما هو فيه من مناجزة العدو ، ويعده على ذلك خيرا .. فهل وفيى بما وعد ؟!! .

★★★

حرب الروم وغزو هرقلة وبعض أعمال أرمينية وموت البعض :

اذا كان المسلمون قد التفتوا الى ما وراء النهر والى الأندلس فانه لم يفتهم الالتفات فى الوقت ذاته الى الروم ، فقد تم لهم فى نفس الســـنة غزو « هرقلة » من مدن البيزنطيين وكذلك مدينة « قنسرين » من أعمال أرمينية على يد العباس بن الوليد الذى كان يقال له « فارس بنى مروان » لكثرة ما افتتح من الحصون والقلاع فى بلاد بنى الأصفر . وعلى الرغم من أعماله الباهرة الا أنه مات فى الحبس .

المسلمون والهند وأيام ابن كبشة القليلة :

وكما مات الحجاج فقد مات الوليد ــ سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا ــ ، فتولى مكانه أخوه سليمان بن عبد الملك الذى بادر فولى « يزيد بن أبى كبشة » السند بعد ان انتزع الأمر من يد فاتح السند محمد بن القاسم الثقفى الذى سار سيرة عادلة اسلامية فى أهل تلك البلاد المفتوحة حتى انهم كانوا أول الجازعين لخاتمته .

على ان ولاية ابن أبى كبشة لم تطل اذ ما لبث ان مات بعد فترة لم تتجاوز عشرين يوما ، فخلت بلاد الهند من فاتحها وواليها ،

وكان لسحب الخلافة ابن القاسم بالصورة التى تم بها سحبه ما شجع أصحاب الترات وأهل الأحقاد والمتربصين بالسوء للاسلام على اغتنام الفرصة لاسترداد بعض ما ضاع من أيديهم أيام وثنية البلاد ، وان قام عمر بن عبد العزيز بعد قرابة ثلاثة أعوام بمحاولة طيبة لاستعادة تلك النواحى وردها الى رحاب الاسلام .

نهاية ابن القاسم وغيره من كبار رجال الاسلام :

وقال البعض انه لو بقى ابن القاسم الثقفى فى الهند وتحت يده مثل الذى كان له أيام الحجاج لفتح من البلاد أكثر ، ولتوغل الاسلام فى شبه القارة الهندية ، ولكن صدق القائل :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا

ليوم كريهة وسداد ثغر

كما لم يعوا قالة الامام على كرم الله وجهه فى موقف كهذا الموقف من قبل منذ نصف قرن تقريبا من هذه الأحداث يوم حملته الظروف على أن يقول :

سيفقدنى قومى اذا جد جدهم

وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر

اذا كانت هذه هى نهاية محمد بن القاسم الثقفى فقد شهدت سنة ست وتسعين خاتمة حياة قتيبة بن مسلم الباهلى مطاولا من لا تجوز بين الرعية مطاولته ، فانطوت صفحة من كتاب مجد خالد حتى قال فيه القائل :

كـــأن أبا حفص قتيبـــة لـــم يسر
بجيش الى جيش ولم يعـــل منبـــرا

ولم تخفق الرايات ، والجيش حـــوله
وقوف ، ولم يشـــهد له الناس عسكرا

دعتـــه المنـــايا فاســـتجاب لربه
وراح الى الجنـــات عفـــا مطهرا ،

على أنه مات قبله فى ثانى الربيعين أو أول الجمادين من السنة ذاتها ـ الخليفة الوليد وأين مثل الوليد فى خلفاء بنى أمية ؟ ... فتح الأندلس وتم فى عهده فتح ميورقة ومنورقة ، ثم « طوانة » وبيكند ، وبخـارى ، وسردينية ، ونسف ، وكش ، وشـــومن ، وخوارزم ، وسمرقند ، والصغد ، وكابل ، وفرغانة ، والشاش ، وبعض الهند ، والدبيـل وغير ذلك من بلاد لم تعرف الاســـلام الا على يد رجاله وقواده العظام ، ولا زال بها الاسلام الى اليوم بصورة أو بأخرى .

ولقد بنى الوليد مسجد دمشق ، وأمر بتوسعة المسجد النبوى الشريـف ، وكان أول من عمل البيمارســـتان للمرضى ، ودار الضيافة ، وأجرى الأرزاق على المجذومين والعميان ، ووصفوه بأنه أول من « أجرى طعام شهر رمضان فى المساجد » .

واتسع ملك الوليد وامتد سلطانه شرقا وغربا ، ولما دلاه عمر ابن عبد العزيز فى قبره قال يخاطبه :

« لتنزلنه غير موسد ولا ممهد » .

« قد خلعت الأسلاب ، وفارقت الأحباب ، وسكنت التراب ، وواجهت الحساب ، فقيرا الى ما قدمت ، غنيا عما أخرت » .

وصدق عمر وهل يبقى الا وجه ربك ذو الجلال والاكرام ؟

أين الذى الهرمـــان من بنيـــانه
ما شأنه ؟ ، ما قومه ؟ ، ما المصرع ؟

وأصدق من هذا القول الأخير قول الحق تبارك وتعالى :

« أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة » ، صدق الله العظيم .

★★★

استخلاف سليمان بن عبد الملك وأعماله وفتح حصن « برجمة » ودخول الصقالبة الجيش البيزنطى :

وتولى الخلافة فى جمادى الآخرة سنة ست وتسعين سليمان ابن عبد الملك وكان اذ ذاك بالرملة من أعمال فلسطين ، فلما قدم دمشق صعد المنبر فخنقته العبرات فأنشد :

ركب تخب به المطى ، فغافل
عن سيره ، ومشمر لم يغفل

لابد أن يرد المقصر ــ والذى
حب النجاب ــ محلة لم تحلل

ثم بين سياسته أنه عازل كل أمير كرهته الرعية ، ومستعمل على كل بلد من أجمع عليه خيار أهله واتفقت كلمتهم عليه فذلك خير تزكية له ، وأنه جاعل للغزو أربعة أشهر ، وفارض لذرية الغازى سهم المقيمين ، « وآمر بصدقة كل مصر فى أهله الا سهم العامل عليها وفى سبيل الله وابن السبيل . فانه للخليفة وأنه أولى بالنظر فيه » .

★★★

ثم بعث سليمان بن عبد الملك بصائفة سنة ست وتسعين وعليها أخوه مسلمة بن عبد الملك ، ففتح حصن « برجمة » وآخر من حصون الروم يعرف بحصن « عوف » ، ويقال له أيضا حصن الوضاح ٠٠ وقيل بل كان ذلك فى السنة التالية والأرجح ما ذكرناه اذ أن خلافة سليمان كانت في جمادى (أى فبراير سنة ٧١٥ م) ، ولابد أن تكون الصائفة بعد ذلك ببضعة شهور لا ان يبقى عاما وبعض عام دون غزوة ٠

ثم فتح مسلمة بعدئذ أيضا حصن « الحديد » ، كما شتى « عمر بن هبيرة » فى البحر لتخويف الروم وبث الفزع فى نفوسهم ، وكانت الأحوال الداخلية في بيزنطة مضطربة فى تلك الأثناء وكثرت بها الثورات التى انتهت بخلع الامبراطوار « انستاس » الثانى وقتله على أيدى الثوار ٠

★★★

وكان لاستعمال بيزنطة الصقالبة أثر فى هذه الأحداث ، فقد دخلوا الجيش البيزنطى كجند مرتزقة ، ثم صار لهم كثير من الأمر والنهى تعدى الحدود العسكرية الى الادارة الحكومية وزاد من اضطراب الأمور فى امبراطورية الروم استفحال الخطر البلغارى ٠

حصار المسلمين القسطنطينية :

على أنه فى تلك اللحظة التى نتكلم عنها ــ وهى نهاية العقد الأول من القرن الثامن للميلاد ــ تلقت الامبراطورية البيزنطية ضربات موجعة ــ وان لم تكن مهلكة ــ على أيدى المسلمين الذين حاصروا القسطنطينية وهددوا مراكز المسيحية الشرقية لولا أن قيض الله لها « ليو الايسورى » فأقام دولة جديدة ٠

وقد خرج الخليفة سليمان بنفسه الى « دابق » ونزلها وأعطى الله عهدا ألا ينصرف حتى يدخل الجيش ـ الذى يوجهه الى الروم ـ القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة ٠

★★★

التنظيمات الادارية :

أما من الناحية الادارية فقد ولى سليمان على « خراسان » « يزيد بن المهلب بن أبى صفرة » فغزا « جرجان » ومعه أهل الكوفة والبصرة والشام ووجوه أهل خراسان والرى ٠ على أن الغزو لم يكن يسيرا لكثرة الجبال ووعورة الطريق وشدة مراس الأهالى فى تلك النواحى ، وانتهى الأمر أخيرا بمصالحتهم اياه على خمسمائة ألف درهم يؤدونها اليه كل عام ، كما بعثوا اليه بالهدايا وثياب وطبالسة وألف رأس ٠

وغزا يزيد بن المهلب أيضا « طبرستان » ففتحها الله عليه ، كما كثرت الأموال والغنائم عنده ، فبسط كفه بالعطاء غير ضنين به ، وأجزل الوصل حتى قال فيه القائل :

ما زال سيبك يا يزيد بحوبتى حتى ارتويت ، وجودكم لا ينكر
أنت الربيع اذا تكون خصاصة عاش السقيم به وعاش المقتر

وحج سليمان كما قالوا سنة سبع وتسعين ، وتعجب من هذا الخلق الكثيف من ضيوف الرحمن الذين لا يحصيهم الا الله تعالى ، ولا يسع رزقهم سواه ، فرد عليه عمر بن عبد العزيز بقوله « يا أمير المؤمنين هم رعيتك اليوم ، وهم غدا خصماؤك عند الله !! » ، فبكى سليمان بكاءا مرا ، ثم قال « بالله أستعين » ٠

المسلمون والقسطنطينية واستعمال الروم لأول مرة السلاسل على البسفور :

لم تطل أيام سليمان بن عبد الملك فى الخلافة ولكنها اتسمت بحدوث أكبر حملة خرجت لضرب الروم وهى الحملة التى خرجت لغزو القسطنطينية سنة ثمان وتسعين ، وان سبقتها استعدادات استغرقت عامين تقريبا ، وجعل الراية فى هذه الغزوة لأخيه مسلمة . وقال المؤرخون المسلمون فى ذلك ان سليمان أمر أخاه مسلمة أن يقيم على محاصرة القسطنطينية حتى يفتحها « فشتى عليها وزرع الناس بها وأكلوه » ، وظل مقيما حتى موت أخيه سليمان .

وكانت الأحوال فى الامبراطورية البيزنطية اذ ذاك تجتاز منعطفا بالغ الدقة والحرج من جراء الاضطرابات الداخلية والمنازعات بين المسئولين هناك كجستنيان الثانى وباردانيس وأناستاسيوس الثانى وتيودوسيوس الثالث ، فلم تطل مدة أطولهم حكما عن أربع سنوات .

وفى التمهيد لحملة القسطنطينية تذكر المصادر العربية أنه حين هم مسلمة فى دابق بالخروج بمن معه استصحب معه « ليون الرومى المرعشى » الذى سيعرفه التاريخ بعد قليل باسم الامبراطور ليو الايسورى وزحف المسلمون حتى بلغوا القسطنطينية فحاصروها فعرض أهلها أن يدفعوا الجزية فأبى مسلمة الا أن يفتحها عنوة ، ثم عادوا فطلبوا أن يبعث اليهم بليون حليفه للتشاور فلما ذهب اليهم ليو هذا وعدوه ـ كما تقول بعض المراجع العربية ـ أن يولوه مكان امبراطورهم « تيودوسيوس » الثانى ان هو احتال على مسلمة ليرد العسكر الاسلامى عن عاصمتهم ، فعاد « ليون الرومى المرعشى » الى مسلمة يراوده الأمل فى تاج بيزنطة ، وتملؤ الخديعة قلبه فكان

له ما أراد ، فغدر بالمسلمين بعد أن توصل بهم الى عرش بيزنطة ٠٠٠
هذا ما تـورده بعض المراجـع العربيـــة ، ولكن فيما تقوله هذه المراجع نظر ٠

وكان « ليو » هذا شامي الأصل وكان يعرف العربية اذ عاش بين المسلمين ســـنين طويلة من عمره ، قالوا فلما ارتقى كرسى الامبراطورية لبس جلد النمر ودبر محاربة المسلمين ٠

هذا هو التصور للأحداث حينذاك ٠

ونعود الى مهاجمة المسلمين للقسطنطينية فنقول ان الجيوش الاسلامية والأساطيل العربية تقدمت حتى طرقت أبواب العاصمة ، ونطالع فى حوليات المؤرخ « ثيوفانس » البيزنطى أن ألفا وثمانمائة سفينة اسلامية عبرت القرن الذهبى ووقفت أمام العاصمة المسيحية فاستعمل الروم النار الاغريقية بكثرة تفوق الوصف والتصور ، وكان لهذه النار أثرها فى اتلاف الكثير من السفن الاســـلامية والرجال مما فت فى عضد المسلمين ، وتكالب عليهم ــ الى جانب ذلك ــ زمهرير الشتاء وتناقصت المئونة بصورة أفزعت المهاجمين كما اتفق البلغار مع الروم ضد العرب ٠

وفى هذا الحصار كان أول استعمال الروم للسلاسل الحديدية الثقيلة بين جانبى القرن الذهبى والبسفور لتعويق السفن ومنعها من الدخول ٠

★★★

المسلمون يفتحون حصن المرأة من حصون الروم وموت سليمان ابن عبد الملك :

اذا كانت حملة المسلمين على القسطنطينية لم تؤد الى النتيجة المرجوة فان ذلك لم يحمل العرب على اليـــأس من القتال ومحاربة

البيزنطيين فى غير هذا الموضع ، فقد غزا « داود بن سليمان » أرض الروم ، وفتح « حصن المرأة » من ناحية ملطية ، وكانت للمسلمين اليه غزاة منذ أيام معاوية بن أبى سفيان سنة ثلاث وثلاثين للهجرة ٠

ويشهد شهر صفر من سنة تسع وتسعين موت سليمان ابن عبد الملك وكان مقيما بدابق من أرض « قنسرين » منذ خروجه الى هناك للغزو ، وقال ثقات المؤرخين انه أطلق « فى خلافته الأسرى وأخلى السجون وأحسن الى الناس ، كما استخلف عمر بن عبد العزيز : الذى كان الشامة الغراء فى وجه بنى أمية » ٠

وكان فى سليمان ـ كما يقول البعض ـ اعجاب بنفسه حتى سمى نفسه « بالملك الفتى » ، ونعته البعض بفتى العرب ، ويقال ان بيتين لجارية أنشدتهما له رداه الى الواقع وصرفاه عن خيلائه وهما :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى	غير أن لا بقاء للانسان
ليس فيما علمته فيك عيب	كان فى الناس غير أنك فانى!!

فارعوى وازدجر ، وصدق الحق تبارك وتعالى اذ يقول : فى محكم كتابه « **كل نفس ذائقة الموت وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور** » وصدق الله العظيم ٠

ولقد كتب وهو فى دابق كتابا وختمه ، ولم يعلم أحدا من الناس بما تضمنه هذا الكتاب ، فلما مات وفتحوه وجدوا عهده لعمر بن عبد العزيز ، فيقال ان وجوه بنى عبد الملك تغيرت اذ ذاك ، فلما سمعوا عبارة « ٠٠٠ وبعده يزيد بن عبد الملك » ،

تراجعوا ، وتم الأمر كما أراده سليمان ، وكان فى عمر بن عبد العزيز الخير للاسلام وللمسلمين بل ولبنى أمية حتى قيل فيه « هو نجيب بنى أمية » ، فقد كان من أعماله ما محى بعض ما ساء المسلمين من فعال لبعض خلفائهم فى مسلكهم السياسى ، اذ كان من محاسن خلقه وسياسته ، أن منع سب الامام على ـ كرم الله وجهه ـ على المنابر ، ولم يدع مظلمة من مظالم بنى أمية لحقت الناس وعلم بها أو رفعت اليه الا أزالها ، فكان رحمة للناس ، وكان محببا الى نفوسهم •

أما مجمل القول فى سليمان فانه كان فصيحا بليغا ، يرجع الى دين وخير ، ومحبة للحق وأهله واتباع للقرآن والسنة المشرفة ، أما من حيث تكوينه الجثمانى فقد كان نحيفا مما لا يتفق وما حاول بعض المؤرخين رميه به من افراطه فى الطعام افراطا بلغ حد الشراهة• وأعجب الناس سمته حتى نعتوه بخامس الراشدين ولم يطل عهده فى الخلافة ، فقد مات سنة ١٠١ هـ لكنه أم سمت الراشدين ونهج نهجهم ، ولم تغره زينة الملك ولا جاه الحكم واكتفى بدابته بدلا من مراكب الخلافة من البراذين والخيل والبغال ، وأقام بداره حتى لا يحرج أولاد سليمان فيخرجهم من دار الخلافة الا ان هم أرادوا وحين يريدون •

ثم كتب الى عماله ونوابه ألا ينالوا أحدا فى خطبهم بسوء ، وأن يقولوا فى خطبة الجمعة الآية الكريمة « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** » •

وكان لهذا الأمر وقع كريم وأثر طيب فى نفوس المسلمين عامة ، وكثر الثناء عليه فقد صان الكثيرين أن ينالهم أحد بسوء ، حتى قال فيه كثير عزة :

تكلمت بالحق المبين وانمـــا تبين آيات الهـــدى بالتكلـم
وصدقت معروف الذى قلت بالذى فعلت، فأضحى راضيا كل مسلم

وكان عمر مثالا أمينا للرجل المسلم الزاهد الا فيما متعه الله به عن حق ، فهو لا يحرم طيبات ما أحل الله ، ولا يطمع فى مال قد يضر ، أو جـاه قد يؤذى ، أو شىء يخاله يغضب رب الخلق ، وانجر ذلك الى كثير ممن حوله ، فقد حدثوا أنه خير زوجته فاطمة بنت عبد الملك فيما عندها من جوهر كان أبوها قد أمر لها به وبين رد هذه الجواهر الى بيت المال ، فآثرت زوجها على كل شىء ، فوضع الجواهر فى بيت مال المسلمين ، فلما مـات وولى الخلافة يزيد ابن عبد الملك رفضت ما عرضـه يزيد عليها من رد الجواهر اليها وقالت : « لا والله ، لا أطيب به نفسا فى حياته .. وأرجع فيه بعد موته » .

وهكذا قالت ،وهذا أدب الزوجة المسلمة فى حياة زوجها وبعد موته .

★★★

ورأى عمر بن عبد العزيز – يوم ولى الخلافة – ما فيه جيش الاســـلام وعلى رأسه مسلمة فى بـــلاد الروم وفى البحر عند القسطنطينية من شدة وأهوال وقلة فى المئونة وفقـده لكثير من السفن والسلاح وبعض الرجال فبادر فأرسل اليهم خيلا عتاقا قيل انها بلغت خمسمائة فرس ، وطعاما كثيرا نجدة لهم ، وبعث أيضا بعثا أغاث المسلمين ، وحض الناس على معونة عسكر الرحمن ثم أمرهم بالقفول .



تحركات الترك الخزر المريبة ضد المسلمين :

وتطالعنا فى زمنه تلك الجماعات التى تسكن قرب بحر قزوين وفيما وراء النهر والتى تآلف المؤرخون على تسميتها بالترك وهى تتحرك تحركات مريبة وتغير على « أذربيجان » وتهاجم من بها من المسلمين على حين غفلة منهم ، وكان هؤلاء المسمون بالترك كثرة والمسلمون قلة، فغلبت الكثرة الباطلة القلة المؤمنة الشجاعة مما أزعج بال الخليفة عمر بن عبد العزيز فأرسل عسكرا قيل انه كان عليه ـ كما ذكر ابن الأثير وابن كثير ـ « حاتم بن النعمان الباهلى ، والظاهر ان هناك خطأ فى الاسم لأن لحاتم هذا خبرا فى سنة ثلاثين للهجرة ، أى قبل هذا التاريخ بسبعين عاما تقريبا ـ ، فتقول الأخبار انه صالح يومذاك أهل « مرو » حين بعثه اليهم عبد الله بن عامر فصالحه أهلها . وربما كان الأصح أن يقال ان الذى بعثه عمر ابن عبد العزيز فى سنة تسع وتسعين انما هو ابن لحاتم بن النعمان الباهلى ، ولعل الخبر الصحيح عند اليعقوبى اذ يسميه بعبد العزيز.

وعلى أية حال فقد قاتل هذا الباهلى « الترك » قتالا عنيفا تغلب فيه عليهم ، واستقدم منهم خمسين أسيرا جاء بهم الى الخليفة .

عمر بن عبد العزيز يضع الجزية عمن أسلم من أهل خراسان :

وتأتى السنة الخاتمة للقرن الأول للهجرة أعنى سنة مائة لتشهد حسنة من الحسنات التى ازدان بها هذا القرن اذ أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز عامله على « خراسان » وهو « الجراح ابن عبد الله » أن يضع الجزية عمن أسلم فوضعها الجراح عنهم ، ولكنه فرض عليهم الختان فتافف القوم فمنعه عمر من ذلك فى كتاب منه اليه يقول له فيه :

« ان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم داعيا ولم يبعثه جابيا ولا خاتنا » ·

وكانت وصية عمر الى الجراح حين وصل أول مرة الى خراسان قوله له :

« لا تضربن مؤمنا ولا معاهدا سوطا الا فى حق ·

« واحذر القصاص فانك سائر الى من يعلم خائنة الأعين » ·

وبعث أهل التبت للجراح وفدا يسأله ان يبعث اليهم من يعرض عليهم الاسلام ويعرفهم به ، فتوجه اليهم « السليط بن عبد الله الحنفى » ·

★★★

أحداث بارزة لها دلالاتها تميز بها القرن الأول للهجرة (يوم السقيفة ومقتل عمر وعثمان وعلى وظهور الخوارج والغدر بالحسين :

أما وقد انقضى قرن من الزمان على العالم منذ الهجرة الشريفة فلنقف لحظات نلتقط فيها الأنفاس لنطالع بعض المعالم الكبرى فى مجتمع ذلك القرن ·

لقد جاء الاسلام ليلم الشمل ويبنى الأمم بناء سليما ، الا أن هناك أحداثا جرت ربما أساء بعضها الى مسيرته السلمية كالفتن التى شبت بين المسلمين واختلفت فى دوافعها وعواقبها ، ولعل أولها ما جرى يوم السقيفة والنبى عليه الصلاة والسلام ما زال مسجى فى فراشه ، ولولا حكمة عمر بن الخطاب التى رأبت صدعا كاد أن يحدث فى لحظة كانت من أحرج اللحظات فى التاريخ ، ثم ما كان بعد ذلك من خروج البعض الذين جعلوا الارهاب سيفا مسلولا لتحقيق مآربهم الدنسة ، كوثوب أبى لولؤة المجوسى على

الفاروق عمر بن الخطاب ، ثم ما كان من مقتل ذى النورين عثمان ابن عفان وخروج البعض على الامام على كرم الله وجهه حين رفض هذا البعض ما جرى من التحكيم الذى لم يكن له يد فيه بل كان راغبا عنه ولكنهم أرغموه عليه ، وما أعقب ذلك من معارضة قوية صادفت الدولة الأموية ، ثم ما كان من ظهور الخوارج الذين كانوا أولا جماعة واحدة ثم صاروا طوائف متعددة ، وما كان من مقتل الحسين بن على الذى غدر به جماعة منوه خيرا ثم نكصوا ثم جاء من بعدهم من عرفوا بالتوابين ، وظهور أمثالهم فى حركة المختار بن أبى عبيدة الى غير ذلك من الأحداث الدامية فى عواقبها ، المبيرة خواتيمها والمهلكة بما أحدثته من شرخ كبير فى جدار الوحدة الاسلامية وظهور المذاهب الطائفية ٠

وقل أن خلا عهد أحد من الخلفاء من ثائر أو أكثر ، أو متمرد أو عاص ، أو من تحركه عصبية عرقية لكنها تتخذ من الدين بشكل أو بآخر ستارا ومجنا حتى لتكاد الحقيقة تضـــيع بين مختلف الدعاوى ، وتطمسها أمور ليست تمت اليها بصلة ، والحقيقة منها بريئة ٠

تحرك الجراجمة :

ثم كان هناك مثل الذى يحدث فى العصر الحديث من تحريك دولة معينة لجماعة معينة لاثارة القلق فى دولة أخرى ، وهذا ما نراه ظاهرا فى الجماعة المعروفة بالجراجمة فى الشام فقد كانت تحركهم الدولة البيزنطية ، ولكن عبد الملك بن مروان استطاع ان يتجنب شرهم بقـدر ما هو مقبول فى هذا العصر اذ اتفق مع الروم على أن يتخلوا عنهم لقاء مبلغ كبير أشبه بالرشوة يدفعه للروم ليكفوه شر هذه الطائفة وخطرها ٠

حركة ابن الزبير وشدة الحجاج عليها :

وظهرت في هذا القرن الأول للهجرة حركة عبد الله بن الزبير التي أرقت بال الخلافة الأموية بجذورها وامتداداتها ، والتي حملت عبد الملك بن مروان ــ ممثلا في واليه الحجاج بن يوسف الثقفي ليجعل الشدة والعنف أساس سياسته في القضاء على أنصار ابن الزبير أو على الأقل على تجريدهم من السلاح الذي يكونون به خطرا عليه وعلى الدولة التي هو خادمها ٠

كذلك صادفت الدولة الأموية طوال القرن الأول خطر الخوارج الذين امتد خطرهم على مدى القرون التالية ، ولم يكن الخوارج كالتوابين الذين ساعدت الظروف الخليفة عبد الملك بن مروان على أن يقضي عليهم فيما عرف بأرض الجزيرة في اصطدامهم بعبد الله ابن زياد سنة ٦٥ هـ ٠

ولقد اختلطت الدوافع السياسية بالتطلعات الشخصية ، وهذا طبيعي ــ كما اختلطت بالأماني القومية والعصبيات المحلية والعرقية ، وخرجت كل هذه في مسوح الدين ولبست عباءة الاسلام ولم تتورع عن اتخاذ القرآن وسيلة فأولت القرآن تأويل مختلفة وفسرت الأحاديث وفق ما تراه ، ودست كلاما زعمته من الأحاديث الشريفة فزيفت على الرسول الكريم ما لم يقله لتبرير دعوتها حتى لقد اتسم بعضها بالعنف مما أخرجها من جوهر الدين ، فما في الدين قتل ولا اغتيال ٠

تفسير أحداث القرن الكبرى على ضوء الحياة اليومية ، وظهور شخصيات معارضة :

وثارت القوميات المحلية ومن هنا يمكن اعتبار حركة ابن الزبير حركة معارضة من أهل الحجاز اذ رأوا السلطة تنتقل من اقليمهم

الى دمشق فتصبح مركز القوة بعد ان كانت مكة ثم المدينة مركز الثقل السياسى ودار الخلافة .

ولقد أدى هذا التطور الجديد الى ظهور رجال عملت السياسة ـ لا الدين ـ على أن تكون لهم الصدارة والكلمة العليا فى تسيير دفة الأمور أمثال المغيرة بن أبى شعبة الذى شابه عمرو بن العاص فى دهائه ، ولعب كل منهما دورا مماثلا لدور الآخر .

وهناك أيضا الحجاج بن يوسف الثقفى وقد انخرط فى صغره بشرطة عبد الملك بن مروان الذى عهد اليه بعدئذ بمحاربة ابن الزبير والقضاء على ثورته التى اعتبرها تمردا فتحرك الحجاج وفى ذهنه هذه الصورة فاستعمل كل وسائل الشدة لقمع حركة ابن الزبير وقتله ، ولم يكن الحجاج بالرجل الذى يتردد عن استعمال أقصى ضروب العنف والفظاظة مع خصوم الدولة أو من تحوم حولهم الشبهات ، لا يعبأ بدين ، ولا ترده تقوى ولا خوف من عقاب الآخرة ، ولم تأخذه رحمة بصغير أو كبير ، ولا بقوى أو ضعيف حتى كرهه الناس وبرزت صورته فى التاريخ سفاحا طاغية ، ولكن كان يبرر له ذلك كله أنه يعمل لما فيه صالح الدولة واستقرار الأمور ، ويرى أن أمن الدولة فوق كل شىء .

ولقد ماثله فى شدته وعنفه رجل أفرزته طبيعة الأيام اذ ذاك ونعنى به « زياد بن أبيه » الذى استلحقه معاوية وولاه البصرة وخراسان وكان أول من أصطنع العسس .

ومن الرجال الذين قدموا الدولة على كثير من الأمور « عمرو ابن العاص » داهية العرب وان كان فى عصر النبوة ، ولكنه برز واضحا فى مستهل عهد بنى أمية وهو فاتح مصر ومدخلها فى

الاسلام ، وكان عمرو يؤيد معاوية بن أبى سفيان وله الفضل فى تثبيت دعائم خلافته ثم مات سنة ٤٣ هـ ٠

وممن ظهر على مسرح السياسة فى ذلك القرن الأول وكانت له يد طــولى فى دعم الدولة الجـديدة والاســـلام على الرغم من استعماله الشدة بصورة اشمأزت منها النفوس ، أقول من هؤلاء « مسلم بن عقبة المرى » الذى عهـد اليه يزيد بن معاوية بتأديب أهل المدينة المنورة لخروجها على خلافته فركب أسوأ مركب اذ أفحش فى القتل وسفك الدماء واستباح الحرمات بها وهى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصارت « الحرة » أبغض وقعة تقشعر لها الجلود ٠ ولما مات « المرى » نفس الناس عن كراهيتهم له فنبشوا قبره وصلبوا هيكله كما تذكر بعض المراجع ٠

ثم هناك « المستورد بن عليفة » الخارجى الثائر والخطيب المصقع ، وقد أخذ البيعة لنفسه من رفاقه فى السلاح ونادوا به أميرا للمؤمنين وكان مصرعه سنة ٤٣ هـ ٠

واذا كنا قد ذكرنا « المستورد بن عليفة » فلابد لنا أن نذكر معه قطرى بن الفجاءة » من الأزارقة الخوارج وقد جمع قطرى بين البراعة فى السيف وذلاقة اللسان ، فكان خطيبا مفوها وفارسا معلما ، وشاعرا لا يشق له غبار واستخلفه أصحابه عليهم ، وهزم عسكر الحجاج أكثر من مرة ، ثم قتل فى ساحة الحرب بالرى عام ٥٧ هـ ٠

ومن أبطال المسلمين فى أخريات عهد الامام على كرم الله وجهه « القعقـاع بن عمـرو التميمى » الذى أبلى البـــلاء الحسن فى « القادسية » ، ولما تم فتح المدائن غنم دروع كسرى ، وشارك فى صفين الى جانب على ومات سنة أربعين للهجرة الشريفة ، وقد

وصــفه ابن عمرو فى الاســتيعاب وابن الأثير فى أســد الغــابة بالفروسية ، كما قال فيه أبو بكر « صوت القعقاع فى الجيش خير من ألف رجل » ، ووصفه الجزرى بأنه « كان من أعظم الناس بلاء » .

. . .

ومن الخوارج « نجدة الحرودى » الحنفى الوائلى الذى تنسب اليه طائفة « النجدية وكان ذا أطماع كبيرة حتى لقد تسمى بأمير المؤمنين ، وكان موته قتلا سنة ٣٩ هـ ، واختلف المؤرخون فى سبب قتله وان كان الأرجح أنه لقى خاتمته على يد رفاقه لأمور انكروها عليه .

وممن ماتوا فى القرن الأول للهجرة المســـــور بن مخرمة « الصحابى الورع الذى شارك فى فتح أفريقية الى جانب عبد الله ابن سعد بن أبى سرح » وحارب مع عبد الله بن الزبير فى الدفاع عن مكــة وقتل ســـنة ٦٤ هــ ، اذ رمى بحجر منحنيق ، وكان عبد الرحمن بن عوف خاله ، وكان هواه مع على بن أبى طالب فى الشورى ، وقالوا عنه انه كره بيعة يزيد وكان مصرعه من حجر منجنيق وهو يصلى فى الحجر ، ومن شاء المزيد عنه فالمزيد فى كتاب نسب قريش لمصعب .

ومات فى الربع الأخير من هذا القرن « عبد الله بن الزبير » الذى قيل فيه انه كان أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، وكان ذا همة عالية ، وكان يتطلع كما يقول البعض الى الخلافة بعد موت يزيد بن معاوية ، ودانت له بعض الأمصار كمصر والحجاز والعراق ومعظم بلاد الشام ، ثم انهض عبد الملك بن مــروان الحجاج لقتاله فقاتله سنة ٧٣ هـ .

واذا كنا قد ذكرنا عبد الله بن الزبير فلابد أن نذكر أمه الصحابيــة الطاهرة أســماء بنت أبى بكر ، فقد تزوجها الزبير

ابن العوام فأولدها «عبد الله» هذا . وهى التى عرفت بذات النطاقين يوم صاحبت أباها الصديق فى خروجه مع الرسول العظيم مهاجرا . ولقد حاربت أسماء فأبلت البلاء الحسن ، وجابهت الحجاج بعد أن قتل ولدها فكانت نعم المرأة فى ثباتها وشجاعتها ، وثبتت ولدها فى القتال وشجعته على مواجهة نهايته ما دام يعرف أنه على الحق حتى قال فيها القائل :

ان أسماء فى الورى خير أنثى ... صنعت فى الوداع خير صنيع
جاءها ابن الزبير يحمل درعا ... فوق درع منسوجة من نجيع

وكانت وفاتها سنة ٧٣ ، بعد أن كف بصرها لكن لم تعم منها البصيرة ، وكانت محدثة وراوية صادقة ، ومما نقل عنها قولها ان ورقة بن نوفل كان يقول « اللهم انى لو علمت أحب الوجوه اليك ولكنى لا أعلم ، ثم قالت « ثم كان يسجد على راحته » .

وعدها ابن هشام ثم الذهبى من بعده السادسة عشرة من السابقين الأوائل .

ومن الشعراء الذين ماتوا فى هذا القرن « الحارث بن خالد بن العاص » المخزومى وهو من شعراء الغزل فى مكة وأخباره مع عائشة بنت طلحة حفيدة الصديق تمتلىء بها صفحات التاريخ وقيل بل الذى له أخبار معها هو « عمر بن أبى ربيعة ، وربما شبب بها الاثنان ، وعلى أية حال فقد كانت عائشة بنت طلحة ممن يحفظن الشعر ، وقد تزوجت فيمن تزوجت « مصعب بن الزبير » الذى طلب اليها أن تتحجب حتى لا يفتن الناس بجمالها فأبت عليه ما طلبه منها وأنكرته عليه قائلة انه ما كان لها أن تستر جمالا رزقها الله ، وما هى بمخفية اياه عن العيون ، فان لها من عفتها عونا ونصيرا . وقد ماتت عائشة هذه عام ١٠١ هـ .



أوليات الدعوة العباسية :

وفى السنة التى هى ختام المائة الأولى كان ابتداء الدعوة العباسية اذ وجه محمد بن على بن عبد الله بن عباس الدعاة الى كثير من البلاد فجاءته وفود أهل العراق وخراسان وبايعوه دون أن يعلم بنو أمية ، وكان جهل الأمويين دليلا جليا على أنهم لم يعودوا أهلا للحكم ، وأنهم باهمالهم انما يحفرون قبرهم بأيديهم فى المشرق، وكان أحرى بهم ان يكونوا أيقاظا لكل ما جرى لا سيما ما كان فى الخفاء ، وأن يتوقعوا الشر وان لم تبد للعيون دلائله ، فالحذر سبيل النجاة .

معالجة أمور الأندلس وولاية السمح الخولانى :

وكان عمر بن عبد العزيز قد استعمل فى هذه السنة « السمح ابن مالك الخولانى » على الأندلس لما عرفه فيه منذ أيام الوليد ـ من أمانة ودين ، ثم قرر أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن أفريقية وتكون تابعة للخلافة فى دمشق دون غيرها ، فتم له ذلك ولم تعد الأندلس من أعمال عامل أفريقية ، فجاءها « السمح » فى رمضان سنة مائة وشرع منذ البداية فى تطبيق العدل بصورة أحسها الجميع حتى ليشهد أحد مورخى النصارى فى ذلك الوقت بأنه رفع مكانة العبيد ويسر عليهم سبل التحـــرر من الرق ، مما ترتب عليه استجابة الكثيرين منهم للاسلام فدخلوا فى دين الله أفواجا يتلو بعضها بعضا ، وهكذا رد الاسلام عليهم انسانيتهم ، وتخلصوا من رق العبودية التى كانوا يرسفون فيها هم وآباؤهم من قبل .

وبنى السمح قنطرة قرطبة الشهيرة على نهر الوادى الكبير ، وكانت له أعمال جليلة شهدها مطلع القرن التالى .

أحداث أثرت فى بيزنطة وظهور الخطرين السلافى والآفارى :

ولقد شهد القرن الأول للهجرة هذا حركات داخلية خطيرة فى امبراطورية الروم التى كان ظهور الاسلام مؤديا الى حدوث قلق سياسى داخليا واضطراب فى أملاكها سواء ما تاخم منها حدود الدولة الاسلامية أو بعد فى آسيا الصغرى ، كما أحدث انتفاضة فى مستعمراتها بايطاليا مما أدى الى تقلص هذه الأملاك الى الحد الذى هز من هيبتها كاستيلاء المسلمين على مصر وانتزاعهم اياها من قبضتها ، وكذلك الشمال الأفريقى بفضل ظهور القوة البرية الاسلامية التى أخذت تهدد القسطنطينية ذاتها ·

★★★

كذلك ظهرت فى هذا القرن العناصر التى كانت تعدعها الامبراطورية البيزنطية عناصر متبربرة مثل السلاف والآفار ، واذا كانت الامبراطورية الرومية قد عمدت حينا الى تقسيم أملاكها فى آسيا الصغرى الى وحدات ادارية وعسكرية عرفت باسم « التيمات » Themes فان قيام هذه الأقسام كان محاولة لرأب الصدع والدفاع عن هذه النواحى أو تسهيل الدفاع عنها ·

الصراعات والانشقاقات المذهبية فى بيزنطة :

كذلك كانت الامبراطورية البيزنطية تعانى صراعا مذهبيا ، وكابدت كنيستها انشقاقا منذ عهد بعيد حتى قبل ظهور الاسلام وتعددت المجامع والمجالس الدينية ، ولقد بلغ هذا الاضطراب العقائدى فى الداخل أشده بقيام الحركة التى عرفت فى التاريخ بالحركة اللا أيقونية أو حركة رفض عبادة الصور والتماثيل والتهاويل الدينية ، الا أن هذه الحركة تمخضت عن ردة زاد فيها الاهتمام بالأيقونات ، ثم جاء عهد ليو الايسورى الذى ربما كان لنشأته الأولى فى آسيا الصغرى واتصاله المباشر بالمسلمين أثر فى

توجيه فكره لمجافاة عبادة الصور والأيقونات حتى انه مضى فى سياسته التطهرية فرفع تمثالا للمسيح عليه السلام كان قائما أمام القصر الامبراطورى فكان ذلك العمل من جانبه نذيرا بخلخلة فى العلاقات بين الشعب البيزنطى وبين السلطة الحاكمة ، وكانت هذه الأفكار الجديدة مجال أخذ ورد بين الجانبين استمر زمنا طويلا منذ أواخر القرن الأول الهجرى •

ولقد أدت هذه السياسة العقائدية الى توتر العلاقات بين كنيستى رومة وبيزنطة ، ورأت الكنيسة الرومانية الفرصة مواتية لتحل محل القوة الشرقية المسيحية فى قلوب المسيحيين الشرقيين •

★★★

وبعد فهذه صورة عالم القرن الأول للهجرة الذى امتدت خلاله رقعة الاسلام شرقا وغربا ، والذى شـــاهد انهيار دولة الأكاسرة واستيلاء المسلمين على كثير من بلادهم والبلاد التى كانت لهم السيطرة عليها كما شاهد انتصار الاسلام فى أفريقية وبلاد ما وراء النهر •

ولعل من أكبر الأحداث استيلاء المسلمين على مصر التى ستكون نقطة ينطلقون منها الى القارة الأفريقية لينشروا الاسلام داخليا فى نواحى هذه القارة وكانت قصة كبيرة نعرض لها بايجاز •

القرن الثانى

أطل المحرم من العام الأول من القرن الثانى للهجرة الشريفة يوم الاثنين والأرجح أنه يعادل فى التاريخ الجريجورى الرابع والعشرين من يوليو سنة ٧١٩ وكانت الدولة الأموية هى صاحبة الأمر والنهى فى الشرق والغـرب الاسلاميين يومذاك ، وكانـت رقعة الاسلام قد امتدت شرقا فجاوزت بلاد ما وراء النهر ووصلت الى تخوم الصين تقريبا ان لم تكن توغلت فى بعضها ، كما رفرفت رايته على بعض بلاد الهند ، ثم انطلقت غربا فشملت كل الشمال الأفريقى من مصر وبرقة والمغرب وافريقية ، ثم عبرت مضيق جبل طارق فخفقت فوق الجزء الأكبر من اسبانيا القوطية التى أصبح قسمها الاســلامى يعرف بالأندلس والذى صار رمزا للحضارة والتقدم الإسلاميين فى أوربة العصور الوسطى التى هى أوربة الجهـالة والتأخر الفكرى والاجتماعى والثقافى فى تلك الأوقات .

وصحب دخول الاســلام فى تلك الجهـات كلهـا : شرقها وغربها قيام حضارات امتزجت فيها الحضارة الاسلامية بالنافع الطيب من الحضارات التى كانت موجودة قبل دخول الاسلام ذلك لأنه لا يوجد صراع بين الحضارات التى كانت موجودة من قبل ، ولكن أصبح للانسان فى تلك البلاد التى دخلها الدين الحنيف قيمة لم تكن له فى ظل النظم التى كانت سائدة من قبل ، فقام هذا الانسان الجديد بأعباء الحكم وادارة دفة أمور بلاده بعد أن كان هذا « الانسان » كما مهملا حتى فى البلاد التى كانت على المسيحية التى كانت المحبة بين الناس أساسا فى دعوة عيسى عليه السلام .

واستطاع هذا الانسان الجديد - وقد تحرر بفضل الاسلام طوال القرن الأول للهجرة - أن يعمل فى ميدان الثقافة فينتج وترقى مداركه ، ومن هنا كانت غزارة الانتاج الفكرى فى بلاد العالم الاسلامى مما تشيد به المخطوطات التى تزخر بها المكتبات العامة والخاصة فى يومنا الحاضر فى الشرق والغرب ، وعلى الرغم من ضخامة ما هو موجود من هذه المخطوطات الا أننا نطالع بين آونة وأخرى خبر اكتشاف مخطوط جديد والعثور عليه « لأول مرة » ، مما يعمل على زيادة تراث المعرفة الانسانية .

نقدم هذه الكلمة فى وداع القرن الأول للهجرة لندخل مع القرن الثانى رضيعا يحبو ولكن كان له من سلفه ما يجعله ذا بأس شديد ، وكانت الخلافة الأموية قد مضى عليها ستون عاما وهى أعوام حافلة بالأمور الجسام فى شتى ميادين الحياة .

ثم ان هذا القرن الأول كان مليئا بالأحداث فى السياسة والعلم والدين والفكر والثقافة والفنون والمعرفة والعمران ، كما شاهد قيام مدن جديدة لم تكن موجودة من قبل ثم هناك حركة فكرية دفاقة بالحياة .

كذلك ورث هذا القرن الجديد من سالفه أمورا كانت تبلبل الخواطر من الاضطرابات الاقليمية والمنازعات الدينية والآراء والأفكار التى قد لا يستقيم بعضها مع الحياة السوية .

عهد عمر بن عبد العزيز حلقة وصل بين القرنين الأول والثانى :

أما من ناحية الحكم ففى سنة احدى ومائة كان هناك الخليفة عمر بن عبد العزيز الذى ولى أمور المسلمين سنة تسع وتسعين للهجرة ، ولقد أحسن عمر الحكم والسياسة ، وسار على نهج طيب سديد كاد مر السنين أن يجعله جديدا وما هو بالجديد ، فقد ألفه الناس منذ الدعوة الاسلامية وتجلى واضحا فى خلافة الراشدين

حتى عد البعض ـ وهم على حق ـ عمر بن عبد العزيز خامس خلفاء هذه الفترة « الراشدين » • وسارت صورة عمر التقى العادل المصلح جنبا الى جنب مع الأحداث الضخام الرائعة التى كان هو أول الساعين اليها من حيث نشر الاسلام •

وصول الخولانى الى منطقة لانجدوك بفرنسا والاحتكاك الحربى باكويتانيا وتنظيماته الادارية :

ففى هذه السنة المشار اليها قام والى الأندلس « السمح ابن مالك الخولانى » ـ وهو من قضاعة ـ بالزحف على منطقة لانجدوك، أو سبتمانيا (جنوب فرنسا الحالية) وكانت فرنسا تعرف اذ ذاك بأرض غالة ، ولقد تردد ذكر هذه الغزوة عند الكاتب الاسبانى المسيحى « ايزيدور » الباجى بصورة نستدل منها على أهميتها التى يرجع بعضها الى ما حفلت به هذه الناحية من الأماكن التى كانت خط دفاع يمتد من الشرق الى الغرب ، وكانت آمنة مطمئنة فجاءها الخطر من حيث لا تحتسب ، واستولى « السمح » على كثير من القلاع وأقام فيها حاميات اسلامية •

كذلك زحفت القوات الاسلامية الأندلسية على اقليم « أكويتانيا » حيث كان الصدام فى تولوز « العاصمة المعروفة عند العرب باسم « تولوشة » •

على أن أهمية هذه الغزوة تتمثل فى أن « السمح بن مالك الخولانى » أقام فى أعقابها فى « سبتمانيا » حكومة اسلامية ، وعمد الى توزيع الأراضى التى كانت ملكا لأشراف الفرنجة بين العرب وبين سكانها الأصليين الذين لم يكونوا يملكون شيئا من قبل فى ظل الحكم السابق ، ولقد تسنى للسمح أن يتغلب على العدو وأن يفتح بلاد هذا العدو وترتب على هذا التوسع الجغرافى أن أصبحت القوة الاسلامية قريبة كل القرب من القوة الفرنجية المعروفة بالأسرة الميروفنجية ، وسيكون لهذا القرب آثاره فى صدام لم يكن ثم مفر

منه بين الجانبين فقد عز على الأمير الميروفنجى المعروف فى تاريخ العصور الوسطى باسم « اردو » دوق آكويتين أو « آكويتانيا » أن يتقدم البطل المسلم السمح بن مالك ويستولى على كثير من الأماكن والحصون هناك لا سيما عاصمة الدوق وهى « تولوز » المعروفة فى المراجع العربية كما قلنا باسم « طولوشة » وكان رد الفعل أن جمع الدوق تحت رايته جماعات نصرانية من البشكنس والقسقونيين ، والتقى القائد الفرنجى بالقائد العربى فسقط السمح من على ظهر جواده ، وان قالت بعض المصادر انه تم عزل السمح جزاء ما أصابه من خذلان أمام دوق « أكويتانيا » وتولى مكانه « عنبسة بن سحيم » الذى تابع مسيرة سلفه فتوغل فى جنوب فرنسا وتم له فتح حصن « قرقشـونة » فى المنطقة المعروفة باسم « سبتمانيا » . ونجد تفاصيل هذا الخبر عند بعض مؤرخى الأندلس .

جاء عنبسة فسار بعسكره حتى بلغ ليون ومنطقة « برجنديا » ، وأسكره النصر فلم يتوقف حتى بلغ ما يعرف الآن بالرون ، وهنا غلبه العدو فاستشهد سنة ١٠٧ هـ ليتسلم راية الفتح الاسلامى فى غالة (فرنسا الحالية) « عبد الرحمن الغافقى » الذى أخضع كثيرا من الأماكن فى طريقه حتى بلغ مشارف « الجارون » فدانت له « بوردون » فلم يجد الوالى المسيحى بدا من الاستغاثة بشارل مارتل الذى انتصر على الغافقى فى تور « أو بواتييه » عام ٧٣٢ م وتسمى المراجع العربية هذه الموقعة باسم « بلاط الشهداء » ، وكان من نتائجها أن ارتدت الجيوش الاسلامية فعد ذلك من الأيام الكبيرة فى تاريخ الغرب ، وقال الأوروبيون فى تواريخهم انه لولا هزيمة الغافقى لأصبح القرآن يتلى فى معاهد أوربة ولتحولت كنائسه الى مساجد يتردد فيها الآذان وشهادة أن لا اله الا الله ، وأن محمدا رسول الله .



خاتمة الخليفة عمر بن عبد العزيز وخلاصة القول فيه وعده خامس الراشدين :

ومات عمر بن عبد العزيز ودفن بدير سمعان من أرض حمص ، وكان مولده بمدينة حلوان بمصر سنة احدى وستين .

وكان عمر شديد الحرص على العمل بالقرآن والسنة ، وكان عنده ميل طبيعى للتمسك بالدين ، واتخذ له مجلس شورى من أبرز فقهاء المدينة المنورة فكان لا يقطع أمرا الا بعد استشارتهم ، أما هؤلاء الفقهاء فهم عروة وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة وأبو بكر ابن عبد الرحمن الحارثى وأبو بكر بن سليمان بن خيثمة وسليمان ابن يسار والقاسم بن محمد بن حزم وسالم بن عبد الله وعبد الله ابن عامر بن ربيعة وخارجة بن زيد بن ثابت .

ولقد ثبت عن أنس بن مالك قوله عن عمر بن عبد العزيز « ما صليت وراء امام صلاة أشبه بصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الفتى (يعنى عمر بن عبد العزيز) حين كان على المدينة » .. ونعتد بهذا القول من أنس على وجه الخصوص لشدة ورعه وصدقه وملازمته لنبى الرحمة عشر سنوات غير مقطوعة .

ومن آثار عمر الطيبة أنه أمر ولاته بعمل خانات فى النواحى التى هم فيها ، وفرض عليهم أن يستضيفوا ويقروا من يمرون بهم من المسلمين يوما وليلة ، وأن يتعهدوا دوابهم .

أما ذو العلة منهم فيقرونه يومين وليلتين ، فان كان منقطعا أمدوه بالمال والزاد والظهر بما يوصله الى بلده .

هذا هو عمر بن عبد العزيز أو ذلك بعض من هذا الرجل الذى عاش للاسلام ومن أجله ، ومات الميتة التى يرجوها المؤمن الصادق :

عمت صنائعه الخلائق كلهم   فالنـاس فيه كلهم مأجـور
والناس مأتمهم عليه واحـد   فـي كل دار رنـة وزفير

وكان موته فى رجب سنة احدى ومائة بعد آن ولى الخلافة عامين ونصف العام ، فبايع الناس فى التو ليزيد بن عبـد الملك اذ أوصى بذلك أخوه سليمان بن عبد الملك فكان لسليمان ما أراده ·

خلافة يزيد بن عبد الملك والصعوبات التى صادفهـا داخليـا ، وظهور فتنة شوذب الخارجى :

وصادف يزيد فى أول ولايته صعابا جمة منها خروج طائفة ـ وان تكن صـغيرة ـ من أصـحاب بسطام الخارجى المعروف بشوذب ، وغرتهم الأمانى واستفحلت فتنته ، غير أن جند الكوفة أخمدوها فسكنت النائرة ، وسارت سفينة الدولة فى بحر هادىء ، وساهم جند الشـام بما لهم من انتماء شديد وولاء كبير للدولة الأموية ، ذلك لأن جند الشام كما قال بعضهم ·

« هم البحر يرمى كل جاهل بأمواجـه فتطويه » فـلا يبقى له أثر ·

كان بسطام ـ ويعرف باليشكرى ـ من بنى شيبان وقد سكت عنه عمر بن عبد العزيز فتمادى فى غيه ، فلما ولى يزيد الخلافة لم يجد بدا من قتاله ، وكثرت مرات القتال حتى اذا أنفذ اليـه الخليفة « سعيد بن عمرو الحرشى » قضى عليه وعلى فتنته ومن معه · وكان على افريقية من قبل الخلافة الأموية التابعى الجليل اسماعيل بن عبد الله بن أبى مهاجر بن دينار « الذى يعتبر من أعظم ولاة بنى أمية ، وقد انطوت نفسه على الحب العظيم للدين والتفانى الصادق فى نشره والتعريف به ولقد بذل جهدا غير منكور فى هداية البربر حتى انه كان معه عشرة من التابعين الاعـــلام

فانفذ كل واحد منهم الى ناحية من بلاد المغرب فعرفوا القوم بالملة تعريفا صحيحا حتى اننا نجد فى كتابات مؤرخى المغرب كابن عذارى وابن خلدون ما يشير الى ان الكثيرين ممن فى افريقية أسلموا فى عهد هذا التابعى الجليل ابن أبى مهاجر ، وكان اسلام البربر فتحا وبشيرا بالخير اذ أخذ الناس أنفسهم بالنظر فى كتاب الله بل وتعلموا العربية ، وترتب على ذلك ازدهار ثقافى وتعمق فى الملة والتحصيل حتى غدا الكثيرون ممن كانت البربرية لسانهم أساتذة فى العربية هم ثم أبناؤهم ·

المسلمون وصقلية :

ولما كانت السنة الثانية من القرن الثانى للهجرة وطأ عسكر الاسلام فى الغرب أرض صقلية وكانت الراية يومذاك لمحمد بن أوس الأنصارى ، وكانت الغنيمة كبيرة ، وعاد العسكر الاسلامى منصورا سالما · على أن تمام فتح هذه الجزيرة كان فيما بعد على يد أسد بن الفرات قاضى المغرب فى مستهل القرن الثالث فقد خرج بحملة ولاه قيادتها زيادة الله ·

وفى السنة الثانية من القرن الثانى للهجرة أقر الخليفة يزيد بن عبد الملك ولاية محمد بن يزيد على المغرب وكان غازيا بصقلية ، كما ارتضاه بربر افريقية وعربها على السواء فسار فى القوم سيرة حببتهم فيه ، كما نهج هو نهجا أعفاهم به من كثير من الضرائب فشكروا له هذه اليد عليهم وهى يد بيضاء مشكورة غير منكورة ·

وراحت وفود التابعين الأجلاء تأتى الى المغرب مما سيكون له أثره الكبير فى اقامة المساجد التى كانت فى الوقت ذاته دور علم ومعرفة وندوات لدراسة السنة الطاهرة ·

الامويون وخراسات فى مطلع القرن الثانى للهجرة والدعوة العباسية :

أما فى المشرق فقد كان لاستتباب الأمور فى الدولة أثرها فى مساعدتها على عمل مافيه مصلحتها فقد تمكن « مسلمة بن عبد الملك بن مروان » (المتوفى سنة ١٢٠ هـ) من ارسال « سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم » ـ الملقب بخذينة ـ الى خراسان لتأديب بعض الجماعات التى كانت تتحرك بين آن وآخر ، غير أن سعيد هذا اصطدم بطوائف كثيرة من الخراسانيين وأهل الصغد فتكاتفوا ضده فلم يظفر بشىء ٠

ولابد أنه كان للدعوة العباسية أثرها فى هذه النواحى البعيدة ، هذا على الرغم من ان هذه الدعوة كانت لاتزال برعما لم يتفتح بعد ولكنها وجدت أرضا خصبة كما ساعد على نموها عوامل كثيرة ما بين اقليمية محلية وسياسية ودعايات موتورة أجنبية ٠

تحرك الزعيم التركى كور صول ضد الأمويين

وشهدت هذه السنة أيضا ـ أعنى سنة اثنتين بعد المائة ـ تحرك طائفة من الترك للانضمام الى الصغد فى محاربة المسلمين ، وكان صاحب راية الكفر يومذاك رجلا اسمه « كور صول » فصالحه نائب سمرقند ، وهو « عثمان بن عبد الله بن مطرف » وذلك حين نزل « كورصول » على قصر الباهلى ٠ ثم انتدب عثمان بن عبد الله قوة نازلت الترك فاظهرت هذه القوة من الشجاعة ما حمل العدو على الفرار فحاول العسكر الاسلامى تتبع الفارين ، لكن قائدهم نهاهم عن ذلك وأمرهم الا يحملوا من المتاع الا المال ، وأن يحملوا من لايقدر على المشى فانطلقوا الى « قصر الباهلى » وخلصوا من كان

هناك من المسلمين ، واندفعوا الى معسكر الترك ففاضت أيديهم بالغنائم ، وكان الخوف الذى بثه العسكر الاسلامى فى نفوس الأعداء مروعا حتى قيل عنهم « لم يكونوا آنسا بل جنا وشياطين مردة » .

ويورد اليعقوبى فى تاريخه أن ملكة فرغانة جاءت الى سعيد بن عبد العزيز المعروف بسعيد خذينة وهو يحارب « الصغد » وأخبرته أن « الصغد » نزلوا « خجندة » ، وطلبوا اليها أن تأذن لهم بدخول بلادها حتى يصالحوا العرب ، واشترطت الملكة على سعيد ـ لقاء هذا الخبر ـ ألا يغزو أرضها ، ثم زادت بأن ليس لدى الصغد مئونة فأرسل سعيد خيلا عليه « سورة بن الحر » التميمى الدارمى ، وقيل فى ذلك انه لما علم الترك بقدوم « سورة بن الحر » استعدوا لصده فأكثروا من مقاتليهم ولكنه لم يعبأ بما حشدوا بل زحف عليهم فأجلاهم ، فأوقدوا خلفهم النيران ففر الأعداء أمام « سورة » فهلك الكثيرون منهم بالنار .

على أنه بمطالعة تاريخ الطبرى والكامل لابن الأثير نرى تناقضا كبيرا بشأن هذا القائد ، فمن قائل انه احترق يومذاك ومن قائل أنه ظهر عليهم .

ولقد ترتب على هذه الفتوح ان عهد سليمان الى أخيه مسلمة بن عبد الملك فى رمضان سنة ١٠٢ بولاية الكوفة والبصرة وخراسان وجمعها كلها له ، فاستناب مسلمة على الكوفة « محمد بن عمرو بن الوليد » ، وعلى البصرة « عبد الرحمن بن سليم الكلبى » وقيل بل استعمل عليها « شعيب بن الحارث التميمى » فضبطها أحسن ضبط ، وساس أمورها أحسن سياسة شهد له بها الجميع ، وأثنى عليه التاريخ من جرائها الثناء الذى هو أهل له .

على أن مسلمة ـ أثناء ولايته العراق وخراسان ـ لم يرفع الى دمشق شيئا من الخراج ·

كذلك استعمل مسلمة زوج ابنته « سعيد بن خذينة » على خراسان ، وكان فى سعيد حدة لا يجوز لمن يلى هذه النواحى ان يكون عليها ـ نظرا لطبيعة أهلها وهم قوم جبليون عرفوا بشدة مراسهم وأنفتهم البدوية وما جبلوا عليه من حب للحرية وسرعة الغضب ان أحسوا أن كرامتهم قد خدشت ·

وكان سعيد فى الوقت ذاته لايحسن التصرف وفق ما تمليه عليه ضرورة الوقت ، فاذ رحنا نسال المؤرخين عنه نعتوه تأدبا ولطفا بأنه « كان متنعما لينا » ·

وكان أهل خراسان احوج لمن يماشيهم على الا يضر ذلك بالدين أو ينتقص من هيبة الدولة أو يقلل من قدرها ·

ولاية ابن هبيرة العراق وخراسان :

ولما كان آخر هذا العام عهد الخليفة الى « عمر بن هبيرة » الفزارى بالعراق وخراسان فولاه مكان أخيه مسلمة عسى أن تنتظم الأمور وتنضبط الأحوال أكثر من ذلك ، وليس من شك فى أن خراسان كانت منطقة تحتاج الى كثير من الاهتمام والرعاية فلم يحدث قط أن وليها وال واستقامت له الأمور حتى مسلمة أخو الخليفة الذى كان قد استعمل فى أقل من عامين ثلاثة من الولاة بعد قتيبة بن مسلم الباهلى ، فلم يطل بأحدهم العهد أكثر من بضعة شهور ، واستلفت ذلك الأمر نظر الشاعر الفرزدق فقال محذرا ابن هبيرة :

راحت بمسلمة البغال عشية فارعى فزارة ، لا هناك المرقع
عزل ابن بشر وابن عمرو قبله وأخو هراة لمثلها يتوقع

وصدق الفرزدق فيما تنبأ به فقد عزل الهروى بعـــد قليل ولم يكن ما قاله هذا الشـــاعر الخنذيذ من باب التكهن أو ضرورة اقتضاها الوزن والقافية بل كان عن ادراك تام للأحوال واستقراء صحيح للواقع وقراءة للأحداث ومعـــرفة دقيقة بطبيعة الأفراد والاقليـم ٠

يزيد يعلن مبايعته ولاية العهد لأخيه هشـــام ثم الوليد بن يزيد وسبب ذلك :

وفى سنة اثنتين ومائة أيضا بايع « يزيد بن عبد الملك » بولاية العهد لأخيه « هشام بن عبد الملك » ، ثم من بعده لابنـــه الوليد بن يزيد ، وقد قدم يزيد هشاما على الوليد لأن الوليد كان يومذاك صبيا لايتجاوز أحد عشر ربيعـــا من عمره ، وكان الوقت اذ ذاك يتطلب رجلا تمرس بالسياسة وعرك ألاعيبها ، وعـــرف الرجال حتى يخافوه ٠

ثم ان الذى حمله على ذلك أيضا أنه خاف أن يرجف المرجفون فى العراق بأن أمير المؤمنين قد مات دون ان يكون له ولى عهـــد يعرفونه فيفت ذلك فى عضد العسكر لاسيما فى المناطق الشرقية القاصـــية ٠

وهناك طائفة من المؤرخين تأبى الا أن تجعل من الخبر قصـــة وهو أن الخليفة يزيد بن عبد الملك بدا له ان يبايع ابنه « الوليد » بولاية العهد ، وكان هشام بالجزيرة فوجه اليه « خالد بن عبد الله » القسرى يحسن له خلع نفسه من ولاية العهد ٠ على أن « القسرى » لامه وهو جالس معه على تسرعه فقال له هشام : « وكيف السلامة من يزيد ؟ » ٠

فقال له خالد « على أنا » .

فقال هشام « افعل ما بدا لك فانها يد مشكورة لك عندى » .

ومضى خالد ثم عاد اليه بعد حين وقال له : « يا أمير المؤمنين ، انى أتيت رجلا صعبا فأناشدك الله ألا توقع العداوة والشر بينكما ، ولا توجد للناس سبيلا للطعن فيكم والاختلاف عليكما ولكن اجعل الوليد ولى عهدك بعد أخيك » .

قيل : فاستجاب يزيد لهذه النصيحة وخلى أخاه ـ كما هو ـ أى قبل ولده .

أما هشام فلم يزل يذكر لخالد ذلك الصنيع فشكره عليه حين ولى الخلافة فولاه العراق .

وفاة الضحاك بن مزاحم الفقيه المفسر :

ومات فى هذه السنة بخراسان الفقيه المفسر « الضحاك بن مزاحم الهلالى » الذى ، ذكر الذهبى عنه أن الامام أحمد وثقه . وورد فيه أنه كان « فقيه مكتب عظيم فيه ثلاثة آلاف صبى » . ووصفه ابن كثير بأنه تابعى جليل ، وأنه روى عن أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وجماعة غيرهما من التابعين ، ثم نقل ما قاله الثورى عنه اذ قال مشيرا الى علو مكانته « خذوا التفسير عن أربعة : مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جابر ، والضحاك ابن مزاحم » . وقالوا انه كان يعلم الصبيان حسبة .

موت مروان بن الحكم :

ومات فى هذه السنة مروان بن الحكم .

كما ولى امرة مصر فى هذه السنة « حنظلة بن صفوان » وهى ولايته الأولى عليها ، وذلك باستخلاف أخيه بشر بن صفوان له لما ولاه الخليفة يزيد بن عبد الملك امرة افريقية وكان ذلك فى شوال من السنة •

رسل ميسرة الداعى للدعوة العباسية فى زى تجار :

ولما تولى « عمر بن هبيرة الفزارى » أمر خراسان جاءه القوم برسل من « ميسرة » داعية بنى هاشـم الذى أخذ على عاتقـه بث الدعوة العباسية تحت ستار الهاشمية ، وكان هؤلاء الرسل فى زى تجار فسألهم ابن هبيرة عن حالهم ومن يكونون ، فأصروا على أنهم تجار فخلى سبيلهم ، ولكنهم أخرجوا من خراسان •

وكان « محمد بن على بن عبد الله » قد وجه « ميسرة » هذا من أرض الشراة منذ عامين الى العراق • على أن الطبرى يورد فى شأن هؤلاء الرسل خبرا آخر اذ يجعل قدومهم زمن سعيد بن خذينة ويقول : « جاءه تميمى وقال له : « ان هاهنا قوما ظهر منهم كلام قبيح » • فطلبهم سعيد خذينة فجىء بهم اليه فسألهم من يكونون فقالوا : « نحن أناس من التجار » ، فقال لهم فما هذا الذى يحكى عنكم ؟ » قالوا « لاندرى » ، قال « اجئتم دعاة ؟ قالوا ان لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا » •

فسألهم سعيد خذينة أن يأتوه بمن يعرفهم فجاءه أناس من الخراسانيين ، جلهم من ربيعة واليمن وقالوا له : « نحن نعرفهم ، وهم علينا ان أتاك منهم شىء تكرهه » • فخلى سعيد سبيلهم وما علم أنهم دعاة عباسيون لايبغون الا هدم بنى أمية وحكومتهم واقامة بنى العباس ، ولم يكن تصرف سعيد خذينة ناجما الا من أن الدعوة لبنى العبـــاس لم تكن قد تبلورت أو اتخذت شـــكلا يستلفت

الانتباه ، وكان الواجب يقتضى عليه آلا يفوته مثل هذا الأمر ولكنهم التزموا بطابع السرية والخفاء الشديدين وهما ما راعته الدعوة العباسية فى فجر ظهورها من الالتزام بالسرية المطلقة والتظاهر بكل ما يبعدها عن مظنة الريبة من بنى أمية وعمالها حتى تجد سعة وفسحة من الوقت ليقوى عودها ويكثر دعاتها ويتضاعف أنصارها والمؤيدون لها ، وكان ذلك مما يؤخذ على الدولة اذ كان ينبغى عليها أن تأخذ بالشك وتجعل له الصدارة حتى يثبت اليقين ٠

★★★

ثم كانت مكرمة ليزيد بن عبد الملك حين أنكر على واليه بالمدينة « عبد الرحمن بن الضحاك بن يسر الفهرى » ما بلغه عنه من أنه خطب التابعية فاطمة بنت الحسين بن على فأبت فأرسل اليها رجالا بأنه يحلف بالله لئن لم تستجب ليضربن أكبر ولدها بالسياط ، فكتبت بالخبر الى الخليفة يزيد الذى كره أن تضام امرأة عربية مسلمة وهو خليفة فأبى الا أن يصون حرمتها ، ويؤمن روعها ، ويدخل الطمأنينة عليها بعد ازعاج ، فأخرج « عبد الرحمن بن الضحاك » مما بيده وأمر أن يؤخذ بأربعين ألف دينار ٠

وتم الذى شاءه الخليفة ليكون احقاقا للحق وعظة لمن تسول له نفسه استغلال سلطته ٠

وقيل : ورؤى عبد الرحمن بن الضحاك فيما بعد وفى عنقه خرقة صوف يسأل الناس ٠ فانا لله وانا اليه راجعون ٠

ارجاع الأندلس اداريا الى افريقية :

وأجرى الخليفة فى هذه السنة (١٠٢ هـ) بعض التغييرات والاصلاحات فى النظم الادارية السائدة يومذاك ، ذلك أنه أعاد

الأندلس ولاية تابعة في ادارتها لافريقية بعد ان كان سلفه جعلها تابعة مباشرة للخليفة بدمشق .

ثم عهد الى « بشر بن صفوان » بامرة افريقية ، فاستخلف بشر أخاه « حنظلة بن صفوان » عليهـــا ، ثم كتب الى يزيد بما استحدثه فأقره فأصبحت امرة مصر لحنظلة ، وهي الولاية الأولى له عليها .

مصر والمغرب والأندلس :

ولما كانت السنة الثالثة بعد المائة الأولى للهجرة الشريفـة استخلف حنظلة على مصر « عقبة بن مسلم التجيبي » وأخذت مصر منذ ذلك الحين ترتبط بالمغرب الأقصى وبالأندلس ، ويدعم بينهما رباط من الحكم الادارى .

وزاد الاهتمام بأمر الأندلس من جانب بنى أميـــة فقـدم « عنبســة بـــن ســـحيم الكلبى » الى الأندلس فى صفر عـــام مائة وثلاثة من الهجرة .

كما شهدت له هذه السنة فتوحات جمة ليست فى افريقية ولكن فى أوربة وخاصة فى غالة ، كما شهدت سهول وجبال مناطق « بروفانس » وبرجنديا رايات المسلمين تخفق فى أعاليهـــا ، وتقـــدمت هذه الرايات حتى بلغت أعالى الرون وأصبحت بـلاد الأندلس بهذه الأحداث تمثل خطرا على ما وراء جبال البرانس . على أنه ما كاد عنبسة يموت ـ كما سنرى عام ١٠٧ هـ ـ بسبب جراح أصابته فى غارة من غاراته حتى توالى ســتة من الولاة على الأندلس فى فترة لم تتجاوز خمس سنوات مما يستحق الانتباه اذ يشـــير ذلك الى أن تلك البـــلاد كانت تمر اذ ذاك بدور من الاضطرابات الخفية التى لم يكن فى الاستطاعة التغلب عليها الا أن

ينشغل القوم هناك بحرب أو أن يحدث حدث خطير يكون نقطة انتقال • وهذا ما سنراه فى حينه •

قتال الخزر واستشهاد كثير من المسلمين :

وخرج فى رمضان من تلك السنة الى بلاد الخزر طائفة من المسلمين عليهم « معلق بن صفار النهرانى » فى قول أو « تبيت النهرانى » فى قول آخر ودخلوا بلاد « الخزر » من أرمينية فصادفوا جموعا غفيرة من أهل البلاد الأصليين والقفجاق ومن انضم اليهم من كفار تلك النواحى •

لم يكن للعسكر الاسلامى هذا تمرس بجو تلك الناحية وتكاتفت ضدهم الأهوال من زمهرير الشتاء وطلائع التتار التى أخذت تزحف فى تلك الأصقاع الجبلية التى ألفتها واعتادت عليها مما أدى الى استشهاد معظم هذا الجند الاسلامى فى بقعة اسمها « مرج الحجارة » وانتهت باستيلاء الخزر على معسكر الاسلام ، ولما عاد « النهرانى » منهزما مكسورا الى يزيد بن عبد الملك لامه الخليفة فقال له : « يا أمير المؤمنين ، والله ما جبنت ولا تنكبت عن لقاء العدو ، ولقد لصقت الخيل بالخيل ، والرجال بالرجال •• ولقد عانيت حتى انقصف رمحى ، وحاربت حتى انقع سيفى • غير أن الله يفعل ما يريد » •

وازعجت الهزيمة الخليفة يزيد بن عبد الملك وبلبلت خاطره وساءه ما حاق بجنده الاسلامى وأراد أن يرمى تلك الناحية بمن يكون على يده اندمال الجرح فعهد بولاية أرمينية الى « الجراح بن عبد الله الحكمى » الذى تمنى على الله ألا يكون نصيبه فى مجاهدة الكفار نصيب سلفه « النهرانى » فأخذ يخادع « الخزر » ، فيقف حين يظنونه زاحفا ، ويزحف حين يظنونه واقفا فصاروا فى حيرة منه ، ثم فاجأهم بأن كر عليهم كرة باغت بها

مدينة « الباب » المطلة على بحر الخزر والتى يطيل المقدسى فى وصف مناعتها ، فلما دخلها « الحكمى » لم يجد الترك الخزر ولكنه أصاب من الغنائم شيئا كبيرا ٠

ثم لاقاه ابن ملك الخزر عند بقعة يسميها العرب فى مراجعهم « أران » ، ويسميها المستوفى « بين النهرين » وهى غير بين النهرين التى بين دجلة والفرات بل هى أبعد من هذا بكثير ودون الأرضين من أراض وصحراوات ، فكتب الله النصر للمسلمين وفتحوا حصن « بلنجـر » عنوة وأحسن الجراح الحكمى لصاحب الحصـن فرد عليه أمواله وأهله سالمين فلم يجر عليهـم ضرر ولا تشفى منهم ، فحفظ صاحب الحصن للجراح الحكمى هذه اليد وأصـبح هو للمسلمين عينا ، ثم كتب الجراح الى الخليفة يزيد بن عبد الملك يسأله المدد فوعده بالاجابة ، لكن الأجل لم يمهل الخليفة فقد أدركه الموت فأصبح عبء الوفاء بهذا الوعد على عاتق الخليفة الجديد هشام بن عبد الملك الذى ابقى الجراح على ما بيده ٠

الأمويون فى مهب الريح :

كانت الأخطار أكثر ما تكون فى بلاد ما وراء النهر وكان تطور الأحداث على هذه الصورة كفيلا بأن ينبه الأمويين الى ما قد يهب على الدولة من أعاصير عاتية تنطوى على الخطر عليهم وتأتيهم هذه المخاطر من تلك النواحى التى استفادت من بعدها الجغرافى عن الخلافة وطبيعة أرضها الجبلية ، ومسالكها الضيقة ، ودروبهـا الملتوية فكانت أرضا صالحة لدعاة ليست أهواؤهم مع حـكومة بنى أمية ، ولرجال لاهم لهم الا ازعاج السلطة الأموية ٠

وحينذاك كان مولد « أبى العباس بن محمد بن على » صاحب الجهد الكبير فى اقامة الدولة العباسية فلما جاء الى أبيه جماعة من أهل خراسان أخرج الأب لهم الوليد فى خرقة وله خمسة عشر يوما

وقال لهم : « هذا صاحبكم الذى يتم الأمر على يده » ، فقبلوا أطرافه ٠

ولما كانت السنة الخامسة بعد المائة كتب يزيد الى عامله بالعراق عمر بن هبيرة يأمره أن يمسح السواد فمسحه ، وكان السواد لم يمسح منذ خلافة عمر الفاروق رحمه الله ٠

قتال الخزر واستشهاد كثير من المسلمين :

كان هذا آخر ما فعله يزيد بن عبد الملك فقد مات فى شعبان من تلك السنة وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره ، ونجد اختلافا فى المراجع التى أشارت الى مكان موته ، فبعضها يجعله فى « أربد » من أرض البلقاء ، وغيرها يجعله فى الجولان ، وسواهما ينص على أنه كان بحوران ، ولكن الذى لا يختلفون فيه هو انه مدفون بالبلقاء من أرض الشام بعد فترة خلافة استمرت خمس سنوات وشهرا ٠

خلافة هشام بن عبد الملك وأحداث وقته :

ولما كان يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان من سنة خمس بعد المائة بويع بالخلافة لأخيه هشام بن عبد الملك بن مروان وكان فى الرابعة والثلاثين من عمره ٠ لم يكد هشام يتولى أمر الخلافة حتى عمد الى العراق فولى عليه خالد بن عبد الله القسرى بدلا من عمر بن هبيرة ، وأراد خالد أن يستعمل رجلا من قومه اختاره ثم انكر عليه جهله بالكتابة ، فجاء له بمن يعلمه رغم تقدم سنه وفوات وقت التعليم والتحصيل ، ولكن قريبه هذا انكب على التعلم والكتابة فلم يمض اسبوعان حتى كان كما تقول الكتب يقرأ ويكتب كأحسن ما يكون لمن كان فى مثل عمره ، فلما عرف خالد القسرى ذلك منه أعجبه أمره وولاه عمل المعونة فى الرى ثم ولاه الشرطة بعدئذ ٠

ثم عهد الخليفة الى عامله بالسند : « الجنيد بن عبد الرحمن المرى » فأغزاه بعض بلاد « الكرج » ، ففتح وغنم وسبى ، حتى انه كتب الى الخليفة بعد حين يقول :

« انى نظـرت فى ديـوانى فوجدت ما أفـاء الله به على منذ فارقت بلاد السند كثيرا ·

« أفاء على بسبعمائة ألف رأس من السبى ·

« وحملت ثمانين ألف ألف درهم ·

« وفرقت فى الجند أمثالها مرارا » ·

وهكذا شهد مطلع القـرن الثـانى للهجرة ثراء بيت مال المسلمين · وتاديب أقوام حاولوا الانتزاء على الخلافة ، ولكن كان هناك أشياء فى الظلال والخفاء تؤذى الدولة يـوم يأذن الله لهذه الأشـياء بالظهور ·

★★★

حكومة بشر بن صفوان الكلبى بالمغرب :

أما بلاد المغرب وافريقية فقد كان عليها فى مطلع القرن الثانى للهجرة « بشر بن صفوان الكلبى » ، ولاه عليها يزيد بن عبد الملك الذى كان يميل الى التعايش السلمى بين العرب والبربر واتخذ القيروان قاعدة له ·

كانت وفاة هذا الكلبى سنة ١٠٩ هـ وكان قبل وفاته قد مضى بما تجمع لديه من الأمـوال ـ لاسـيما ما استصفاه من أمـوال موسى بن نصير ـ الى الخليفة الجديد الذى أقره على ما بيده من اقليم المغرب ، فهل كان ذلك بسبب ما حمله اليه ؟ وما كان يحس به من أنه فى حاجة اليه ؟

- ونلمح هنا ظاهرة جديدة هي أن كلا من المغرب والأندلس أخذ يكون لنفسه ذاتية معينة وكيانا خاصا ، ذلك أن الفتوحات التى يقوم بها الولاة هناك كانت أكثر ما تكون صادرة من الوالى نفسه وليست بتوجيه من دمشق حتى أن امداداتهـا كانت من المغرب أو الأندلس .

★★★

الخزر وأرمينية مرة أخرى :

وسجل التاريخ فى العقد الأول من القرن الثانى للهجرة وفى السنة التاسعة على وجه الخصوص الغزوة التى قام بهـا « مسلمة » الى بلاد الخزر ، وكان من خبرها فى بادىء الأمر أنه لما ولى أرمينية واذربيجان سنة سبع ومئة هجرية وجه على مقدمة جيشـه « سعيد بن عمرو الحرشى » الى الخزر الذين كان معهـم عدد كبير من الأسرى المسلمين تقدرهم المراجع العربية بعشرة آلاف أسير ، فحارب سعيد الخزر واستنقذ الأسرى منهم ، ثم فتح الله عليـه عدة مدن ، وقتل ابن خاقان الخزر ، ثم اتصل مباشرة بالخليفة مما أغضب مسلمة الذى بادر الى عزله وتولى هو الحرب مكان . وسعيد هذا هو المعروف فى المصـادر الاسلامية بفارس قيس ، وهو نعت لا ينكره عليه أحد .

وسار مسلمة بنفسه فى بلاد الخزر حتى بلغ « جـرذان » (وقد تنطق أحيانا كرزوان) وهى بلدة واقعة بين الجبال من نحو تخوم الغور ، وقد وصف ياقوت بلدة جرذان « بأنها مدينة آهلة ، وأهلها كلهم مياسير » ، وان كانت اليوم من المدن المندثرة ولم يعد لها وجود ، وكانت « جرذان » مدينـــة شـــديدة الحصانة بالغـة المناعة ، لكن لم تجدها مناعتها ولم تمنعها حصانتها من أن تسقط فى يد الفاتح المسلم ، الذى ســار الى « شروان » وهى فيما يلى النهر قرب بحر قزوين ، فسالمه أهلها ، وكان نصر الله على عسكره

عظيما فاستسلمت له مدن كثيرة الواحدة أثر الأخرى كانما هي حبات عقد انتثرت لتسقط في يده ، ولقد جعل مسلمة على مقدمته هنا « مروان بن محمد » فانتصر العسكر الاسلامي ولكن مروان كان يطلب المزيد ، واكتفى مسلمة بما بلغه من نصر على ملك الخزر ، ولذلك فانه لما تولى بعده محمد بن مروان الولاية تابع الغزو هناك ، وكانت انتصاراته مدوية رائعة •

الفتوح في نواحي قزوين :

وتشهد السنة السابعة بعد المائة أيضا عدة غزوات منها ما كان في نواحي قزوين ، ومنها ما كان في بلاد ما وراء النهر ، ثم منها غزوة « أسد بن عبد الله القسري » في بلاد « الغور » التي عرفها الطبري بأنها « جبال هراة » ، ويذكر البلدانيون المسلمون أنها جبال بين غزنة و « باميان » ولكنها تؤلف اليــــوم قسما من أفغانستان ، وقالوا ان أهلهـــا حين رأوا رايات المسلمين خافوهم واشتد فزعهم منهم ، فعمدوا الى أثقالهم فصيروها في كهف في جبل يعرف بجبل « ملع » (بضم أوله تتلوه لام ساكنة) ليس اليه طريق ، فأمر أسد القسري بصنع صـــناديق وضع فيهـــا الرجال ثم دلاها بما تحمل بالسلاسل ، فوصــــل الرجال الى متاع القوم وأخذوا ما استطاعوه وكان شيئا كثيرا ، فقال الشاعر في ذلك :

أرى أسدا تضمن معطفات تهيبها الملوك ذوو الحجاب
الى « غورين » حيث حوى أزب وجلجل بالسيوف وبالحراب
فان تزر الجبال جبال « ملع » ترى من دونها قطع السحاب

ثم كان الصدام في العراء بين المعسكرين الاسلامي والكافر ، فهزم الله المشركن وظهر المسلمون بحمده تعالى ، وكانت هذه أول مرة يدخل فيها الاســــلام تلك المناطق البعيدة المجهولة الا عنـــد

الأقلين والتى يصعب الوصول اليها الا لمن أراد الله له التيسير ٠ وانطلق الاسلام من هناك الى وسط آسيا وشرقيها ، فكان ما تم على يد أسد بن عبد الله القسرى شيئا جليلا حتى قال أحدهم يمدحه :

أرى أسـدا فى الحرب اذ نزلت به
وقارع أهل الحرب : فاز وأوجبا

أتتك وفود الترك ما بين كابـل
وغورين اذ لم يهربوا منك مهربا

وقدر لأفغانستان منذ ذلك الحين — أن تكون قوة للاسـلام والمسلمين ، وأن يكون أهلها أهل خير للملة والدين فى تلك النواحى يعضون عليه بالنواجذ ، ويتفانون فى الدفاع عنه ، لاترضيهم غير دعوة التوحيد وشهادة الا اله الا الله وأن محمدا رسول الله ٠

عنبسة بن سحيم والغرب الاسلامى وانتصاراته :

فاذا تركنا هذه الناحية من الشرق الأسيوى وانتقلنا الى أقصى الغرب وفى الساحة الأوربية حيث الأندلس وجدناها فى العقد الأول من القرن الثانى للهجرة تؤلف قسما هاما من الأراضى الاسلامية ، وكان المسلمون فيها يعيشـون بأرض تتربص فيها بهم الأعداء ، لكن كان قد تولى أمر البلاد حينذاك « عنبسة بن سحيم الكلبى » الذى أمضى سنوات فى تنظيم الجيش الاسـلامى والاعتماد فيه على الفرسان ، كما ضبط تلك النواحى أحسن ضبط حتى استقامت له الأمور ، فلما اطمأن الى أن الأرض التى يقف عليها صلبة زحف على الشمال عابرا جبال « البرنات » ، وغزا « سبتمانيا » ، واستولى على قرقشونة ٠ وتشير المراجع العربية الى أن أهل قرقشونة « صالحوه على نصف أعمالها وعلى جميع ما فى المدينـة من أسرى المسلمين وأسلابهم ، وأن يعطوه الجزية ويلتزموا بأحكام أهل الذمة » ٠

ثم تقف المراجع العربية عند هذا الحد من الأحداث الكبيرة وتنتقل بعد ذلك مباشرة الى موت عنبسة ، غير أن المصادر المسيحية الغربية تبين لنا أن انتصار عنبسة القائد المسلم على نصارى « قرقشونة » حمل الفرنجة هناك على محالفته مما ساعده حينذاك على متابعة الزحف في وادى الرون حتى لقد هادنه دوق أكويتانيا ، وأحسن القائد المسلم السيرة في النصارى هناك ، وكانت معاملته اياهم ذات أثر كريم فى نفوسهم حتى لقد قال الكاتب المسيحى ايزيدور الباجى وكان من المتعصبين ضد الاسلام والمسلمين الكارهين له ولهم والذى لايترك أمرا ولا حادثة تمر الا وينال منهم ، ولكنه قال فى حق القائد المسلم « ان رفقه بالأهالى وكريم معاملته لهم رسخت مكانة الاسلام فى جنوب فرنسا وهدهدت من حدة كراهية الناس له وللمسلمين » . وخير الشهادة ما جاء من العدو .

واطمأن عنبسة الى ما آلت اليه الأحداث وما انتهت اليه الأمور من خاتمة ارتضاها فلما شرع فى العودة لقى مصرعه فى شعبان سنة سبع بعد المائة الأولى من الهجرة . لم يمت عنبسة رغم أنفه ولا مات على فراشه وبين أهله ، وانما مات مجاهدا شهيدا ، فرحم الله الشهداء وأثابهم من فضله وكساهم رحمته .

عزل أسد القسرى :

ولما كانت سنة تسع بعد المائة كتب الخليفة هشام بن عبد الملك الى عبد الله بن خالد القسرى يأمره بأن يعزل أخاه « أسدا » عما بيده بسبب ما ترامى اليه من اظهاره الكبرياء وتعاليه على الناس وتفاخره تفاخرا لامبرر له ، اذ كان يقول :

« أمير المؤمنين خالى .... وخالد بن عبد الله أخى » .

ولم يحسن أسد بن عبد الله معاملة رجال تدرك الدولة ـ كما يدرك هو أيضا ـ ما كان لهم من اياد بيضاء عليها ، كما يعرف الجميع صدق طويتهم لها ٠

وقال البعض ان سبب عزله راجـــع الى ما أثاره هو ذاته من شقاق وأضرمه من نيران العصبية الحمقاء ٠ وأطاع خالد الخليفة فعزل أخاه ، ثم استأذن له فى الحج فما صـــده ٠ ثم قفل أسد راجعا الى العراق ، ومعـه دهاقين خراســـان بعد ان اســـتولى « الحكم بن عوادة الكلبى » على خراسان ٠

ولاية الوليد بن رفاعة الفهمى على مصر

اما مصر فقد تولى أمرها فى هذه السنة « الوليد بن رفاعة بن خالد الفهمى » الذى كان يستعمل على شرطتها الفهميين ، ولعل من أكبر الأسباب التى تمت فى مصر وكان لها أثرها البارز فى تعريب البـــلاد ما تم حينذاك من نقله الكثيرين من القيسيين الى مصر ، حتى قيل ان جملة من نقلوا ـ فى احدى المرات ـ بلغ أربعة آلاف قيسى استقروا فيما يعرف الآن بمحافظة الشرقية وفيما يعرف بالحوف الشرقى واتخذوها دار اقامة لهم ووطنا جديدا واختلطوا بالعنصر الوطنى وتزاوجو فيهم فجرت الدماء العربيـــة فى عروق المصريين ، كما جرت الدماء المصرية الفرعونيـــة فى عروق العرب واتحدوا جميعا ليكونوا مصريين مسلمين ٠

وغنى عن البيان انه كان لهذه الجماعة القيسية أثرها الكبير فى تعميق عروبة مصر وتعميق الطابع الاسلامى ٠

وترتب على ذلك ان استقام النطق باللسان العربى وما تبع ذلك من ازدياد الاقبال على دراسة القرآن الكريم والحديث الشريف ،

فخرج جيل من الفقهـــاء والمحدثين والعلماء وأهل اللغة وتسابقوا الى ما فيه الخير للجميع ٠

فتح حصن الطينة :

وفى هذه السنة خرج معاوية بن الخليفة هشام بن عبد الملك (المتوفى عام ١١٩) غازيا فى أرض الروم ففتح الله عليه حصنا من حصونهم اختلف المؤرخون فى اسمه فمنهم من سماه - كابن تغرى بردى - بحصن « ألطينة » ، ومنهم من ســـماه بطيبة كابن الأثير ، وقال غير هؤلاء وهؤلاء (كخليفة بن خياط) انه حصن الغطاسين ٠

ولقد أصيب مع معاوية بن هشام فى هذا الخروج جماعة من أهل أنطاكية ٠ وواكب هذه الغزوة غزو عبد الله بن عقبة بن نافع للروم فى البحر ، وبذلك تهاوت الضربات على البيزنطيين بحرا أو برا ٠

ويبدو ان هذه الغزوة التى قام بها معاوية بن هشام كانت مناوشة صغيرة فلم يذكرها ابن كثير ، كما أن أبا المحاسن فى كتابه النجوم الزاهرة يقول انه فى أعقابها « افتتح معاوية بن الخليفة هشام بن عبد الملك حصنين كبيرين من أرض الروم » ، ولم يسم أبو المحاســـن هذين الحصنين مع نعتهما بما يدل على كبرهمـــا وأهميتهما ٠

ولكن اســـتقراء الأحداث عند غير أبى المحاسن من المؤلفين المسلمين يدل على ان أحد الحصنين كان يعرف باسم « صمالة » أو « صملة » ، وأما الآخر فاسمه « البوة » ٠

وفاة الحسن البصرى وابن سيرين :

ومات فى هذه السنة (سنة ١١٠ هـ) اثنان من كبار رجالات البصرة ، أحدهما العـــالم الفقيه الحسن البصرى امام أهل تلك

المدينة العظيمة التى تبوأت عن حق مكانة تنزلها منزلة الصدارة بين مدن العالم الاسلامى وحواضره ، شرقيه وغربيه ، وكانت ذات تاريخ مجيد موصول على مدى القرون ٠

وكان الحسن البصرى من الطبقة الثانية من التابعين ، وقد نعته الذهبى فى العبر « بحبر زمانه » ، وحسبك بهذا من تزكية وتقدير ، وحسبك بالذهبى من رجل يعرف قيم الرجـــال وينزل كلا مكانته الصحيحة ٠

★★★

ثم تلى الحسن البصرى فى الوفاة بعد ثلاثة أشـــهر تقريبا « محمد بن سيرين » ، وذكروا عنه أنهم أرادوه للقضاء ففر الى الشام واليمامة ، فالقضاء ثقيل ، وويل لمن يضل فيه الحكم ٠ ويقال فى ابن سيرين هذا انه أنصارى بالولاء ، وذاعت شهرته بتفسير الرؤيا وكانت وفاته سنة ١١٠ بالبصرة ٠

★★★

خروج مسلمة بن عبد الملك الى تفليس :

ثم أهل شهر جمادى الآخرة من سنة عشر بعد المائة الأولى على الدنيا فاذا بها ترى القائد العربى العظيم « مسلمة بن عبد الملك » يخرج كمألوف عادته على رأس العسكر الاسلامى ولكن الى « تفليس » ببلاد الخزر التى تتألف من ولايتين احداهما « اللان » التى يلتقى فيها مســلمة بملك الترك الذى تكتفى المصـــادر العربية بنعته بخاقان ، وهو لقب لا يحـدد شـخصا معينـا كقولهـــم قيصر وكسرى والنجاشى فالقياصرة والأكاسرة والنجاشيون كثيرون ، ولكن أى « خاقان » كان هو المقصود ؟ ٠

ويتصل القتال بين عسكرى مسلمة والخاقان عظيم الترك مدة تقرب من شهر ويكون مع الخاقان خاقانات غيره مثل خاقانى نسف وفرغانه وغيرهما ، وتتعثر خطى الخزر أذ تفتح السماء أبوابها بمطر دافق فيكثر الوحل ، ولعل هذا هو الذى دعى بعض المؤرخين العرب لتسمية هذه الغزوة « بغزوة الطين » ، ويقول أحدهم « ان المحاربين سلكوا مسالك ومواضع غرق فيها دواب كثيرة ، وتوحـل فيها خلق كثير فما سلموا وقاسوا شدائد وأهوالا صعابا » ٠

على أن الله كتب النصر لمسلمة وحاقت الهزيمة بالخزر ففر كبيرهم الذى جلب عليهم ذلك ملتمسا الابقاء على حياته بالهرب ، وينقل بعضهم عن أحد المحاربين قوله : « ان مسلمة قفل من باب اللان فلقيه الخزر فناوشوه حتى حجز بينهم الليل ، ورجع مسلمة سـالما » ٠

على أنه يبدو أن الخاقان ملك الخزر قد لقى مصرعه فى هذه المعركة اذ لم يوقف له على أثر ، فقال المؤرخون انه فر ولم يحسب القوم أنه قتل ، وبالرجوع الى مصادر هذه الفترة يجد الانسان نفسه فى حيرة بالغة لتضارب الآراء والأخبار حول الحدث الواحد ، وحول هذا الحدث الذى نحن بصدده الآن بالذات ، فاذا قيل ان « الخاقان » قتل أو مات ، فان هناك ما يشـير الى انه عقـد مع المسلمين صلحا « خرجوا بمقتضاه من البلد » ، وربما كان الذى مات « كان غير الخاقان » الذى عقد الصـلح وربما حل فى القيادة « خاقان » غير المقتول ٠ على أننا نصادف فى السنة التالية خروج الجراح الحـكمى ــ فى ولايته الثانيـة لأرمينية واذربيجان ــ الى تفليس ، ونسمع عن اغارته على مدينة للخزر يسمونها « البيضاء » وحرفها الفرس فجعلوها « بيزاء » ، فتم للمسلمين فتحها ، واذ ذاك جمع الخزر جموعا كثيرة مع ابن أحد الخاقانات ، وقد سار بعدئذ

ابن هذا الخاقان وحاصر أردبيل فى أذربيجان ، ومما تحسن الاشارة اليه فى هذا الموضع ان المفسر الكبير ناصر الدين بن على ينسب الى هذه المدينة وعرف باسم « البيضاوى » كما عرف تفسيره بالبيضاوى أيضا . وشهدت هذه السنة من سنى الهجرة ما فعله « اشرس بن عبد الله السلمى المنعوت فى المراجع الاسلامية بالكامل » نائب خراسان . وأسلم على يد شرس بن عبد الله السلمى فى سمرقند وفيما وراء النهر طائفة كبيرة على ان ترفع عنهم الجزية فقيل ان غالبهم اسلم لكنــه عاد ففرض الجزية عليهم فحــاربوه ، وحق لهم ذلك فما كان يجوز له وهو المسلم ان يأخذ الجزية منهم وقد وضعها عنهم الاسلام اذ أسلموا .

وقيل فى الدفاع عن أشرس انه كتب الى متولى خراج سمرقند يقول له :

« بلغنى أن أهل السغد وأشباهم لم يسلموا رغبة ، وانما دخلوا فى الاسلام تعوذا من الجزية ، فانظر عندك من اختتن وأقام الفرائض وحسن اسلامه وقرأ سورة من القرآن فارفع عنه خراجه » .

هكذا كانت النية حسنة من عامل الخراج ومن أشرس الذى توفى سنة ١١٢ .

ولئن صح ما ذكرته بعض المصادر عن سياسته التى اتبعها فى جمع الضرائب فان الطريق الذى سلكه كان ذا عوج ، وحسابه عليه عند الله تعالى .

وفاة الفرزدق وجرير :

ومات فى هذه السنة شاعران كانا من أكبر شعراء العربية على مدى تاريخها الطويل الحافل بالشعراء ، والشعراء السياسيين ،

وهما الفرزدق وجرير ، لم يفصل بين الواحد منهما والآخر في الموت غير شهور قلائل · وكانت بينهما مقاولات ومناظرات وأهاج حفظها الأدب العربى ورددتها الأجيـــال جيـــلا بعد جيل وكانت موضع دراسات بين الأدباء والمستشرقين حتى يومنا هذا ، وهى تمثل دورا من الحياة الفكرية فى الاسلام ، كما كانت بين الشاعرين خصومات ، ولكن محى الموت ما كان بينهما ، وأمـــام الله يلتقى الخصـــوم يوم الحســـاب ·

★★★

الجراح يبنى جسرا باسمه سنة ١١٢ فى اذربيجان ووفاته :

وكانت سنة اثنتى عشرة ومائة من السنوات الحافلة بالمعارك فى الجبهة الشرقية ، ولعل أبرزها خروج الجراح الحكمى فى رمضان من تلك السنة من مدينة « برذعة » وقدومه الى أذربيجان حيث عقد جسرا على نهر هناك سمى « بجسر الجراح » ·

وكان غرض الجراح أن يحمل ابن خاقان الخزر على رفع الحصار عن « أردبيل » ، واستحر القتـــل فى الجانبين واستشهد الجراح الحكمى فى ناحية اسمها « أرشق » من ضواحى أذربيجان · فخلفه فى قيادة الجيوش الاسلامية « سعيد بن عمرو الحرشى » الذى جمع فى بردته بين التقوى والفضيلة والجهـاد فى ســـبيل نشر راية الاسلام ، ويطيب لمن يحبونه من المؤرخين ان يذكروا فى سجل أعماله الهامة قتله للخارجى « بسطام » اليشكرى المعروف بشوذب الذى أقلق بال الدولة الأموية منذ خروجـــه زمن عمـــر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ·

وتحمل أهل أردبيـــل مضايقـة الخزر اياهم بالمجانيق واستبسلوا فى الدفاع عن بلدهم ، ولم يسلموها الا بعد أن كلوا

فدخلها الخزر وأكثروا فيها من السبى والقتل ، وحملوا ما سبوا ظافرين منتشين ، فاستنقذهم « الحرشى » على غير انتظار منهم • وهكذا انقلبت هزيمة المسلمين الى نصر • وما النصر الا من عند الله يؤتيه من يشاء •

ولاية عبد الرحمن الغافقى على الأندلس عام ١١٣ :

وفى صفر سنة ثلاث عشرة ومائة كانت ولاية عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى على الأندلس . وكان أهلا لتحمل المسئولية والنهوض بالجسيم من الأمور ، وكانت هذه هى ولايته الثانية ، وقد أجمعت القبائل هنـــاك على احترامه ، واستهل حكمه منذ اللحظة الأولى بكل ما يرضى الرعية ولا يضر بصالح الدولة ، وسنراه بعد قليل رجلا يعتز به الاسلام اذ يعلى رايته فى بلاد غالة (فرنسا الحالية) •

أحوال بلاد الترك والخزر ومناطق جبال وانعكاسها على الدولة :

وكانت الأحوال فى الأقاليم الشرقية من بلاد الخلافة الأموية تتطلب اهتماما خاصا ، ذلك أن كفـــار الترك أو الخزر ومناطق « جبال » نواحى ما وراء النهر كانوا يطمعون أن يظلوا على وثنيتهم فعهد الخليفة هشام بن عبد الملك بولاية خراسان الى قائد من خيرة قواده وهو « الجنيد بن عبد الرحمن المرى » ، وكان له خبر طويل مع أهل تلك النواحى وقصة عجيبة ، ذلك أنه خـــرج فى حشـــد كثيف ، وسبقته الأخبار بعزمه على ضرب العدو ، وأبى الا أن تكون له احدى الحسنيين فاما النصر واما الشهادة ، ومع بأس « الخزر » وقوتهم وشدة شكيمتهم الا أنهم خافوه ، ولما عرفوا عنه ما عرفوا هابوه ، وأدركوا الجد فى عمله ، فراحوا يغورون الآبار والركايا التى فى طريق « كش » عساه ييأس فلم ييأس أو يقنط وهو المؤمن ، بل زحف حتى صار الى ناحيـــة تعرف بالشعب ، فصبحه خاقان انضم اليه أهل الصغد والشاش وفرغانة ، وصبر النـــاس حتى

تكسرت السيوف فكانت المعانقة ، وكان ممن استشهد فى هذا القتال سنة ١١٣ هـ سورة بن الحر التميمى فقد خضب هو وآلاف غيره من المسلمين أرض تلك البقاع بدمائهـم لايبغون غير هداية القوم وانقاذهم من الضلالة ٠

وكان سـورة بن الحر التميمى بطلا فى كل المعارك التى خاضها ، وأحدث فقده رنة أسى حتى قال الخليفة :

« انا لله وانا اليه راجعون ٠

« مصاب سورة بن الحر بخراسان والجراح بالباب !! » ٠

★★★

ثم أمد الخليفة المسلمين بنجدة ، على أنه لم تكن هناك معركة فاصلة وان استحر القتل فى الجانبين ، وعرفت هذه الواقعة بوقعة « الشعب » وامتدت فكانت فى سنتى اثنتى عشرة وثلاث عشرة بعد المائة ٠

على أن الأمر أصبح يهدد الوجود الأموى والاسلام فى هذه النواحى ، فوكلت الخلافة القيادة الى مسلمة بن عبد الملك ففرق الجيوش فى بلاد خاقان وفتح كثيرا من المدن والحصـون هنـاك ، وسبى وغنم ، ودان له ــ على حد قول المؤرخين « بلنجر من وراء النهر فى بلاد الخزر ، وقتل ابن خاقان » ٠

وكان مع مسلمة بن عبد الملك ابن عمه مروان بن محمد بن مروان (٧٢ ــ ١٣٢ هـ) ، الذى لم يقنع بما تم على يده من فتح ، وكره من ابن عمـه « مسلمة » أن يقف عند هذا الحد وقال عنـه « انه ما وطىء من أرض الخزر الا أدناها » ، فكان ذلك القول مما رشحه

لأن يلي الغزوة التالية سنة أربع عشرة بعد المائة حين ولاه هشام بن عبد الملك اذربيجان وأرمينية والجزيرة · ويلاحظ ان مروان هذا هو آخر خلفاء بنى أمية وقد ولى الخلافة خمس سنوات ·

حملات شبيب ومعاوية بن هشام والبطال :

وكانت للمسلمين غزوة فى أرض الروم · بقيـــادة « شبيب الباهلى » ، ثم تلتها غزوة قادها معاوية بن هشـــام (١١٥ هـ) وشهدت سنة ثلاث عشرة ومائة خـروج الغزاة وعلى رأسهم البطل الأمير أبو محمد عبد الله الانطاكى الملقب بالبطال الذى تتنول المصادر العربية بأن الروم كانوا يخافونه أشـد الخوف ولقد استشهد عـام ١٢٢ هـ ، ويبـــدو أن طائفـة قصروا عن المضى اكتفـاء بما فى أيديهم من غنيمة ، ولكن كان معه فى الوقت ذاته مجاهد راوية من حفاظ الحديث الشريف هو « عبد الله بن بخت » الذى عظم عليه انصراف الناس عن صاحبه وصاحبهم « البطال » فى مثل هذا الموقف وأمام عدو شرس لايضمر للمسلمين الا شرا ولا يريد لدين الله الا ضرا ، فركب ابن بخت فرسه ، وحمل على الخصم حملة صدق تبعه فيها من أحسوا بالعيب اذ انصرفوا عن « البطال » فلاموا أنفسهم وعاتبوها على ما كان منهم ، وصاح ابن بخت يخاطب فرسه وما يخاطب الا قومه :

« ما رأيت فرسا أجبن منك ·

« وسفك الله دمى ان لم أسفك دمك » ·

ثم رمى بيضته عن رأسه وصاح فى قومه معيرا اياهم على ما كان منهم من تراجع ، ومذكرا اياهـــم بما ينتظرهم ان هم جاهدوا فى سبيل الله وقال لهم فى صوت جهير :

« أنا عبد الله بن بخت •

« أمن الجنة تفرون ؟

« هلموا اليها ويحكم ، لا بقاء لكم فى الدنيا ولا مقام !! » •

فكان لهذه الكلمات أثرها النافذ فى قلوبهم ، ثم خالط القوم ومعه من تبعه فاستشهد ببلاد الروم ودفن هناك •

فتوح المسلمين فى فرنسا :

وفى أوائل هذه السنة تحرك عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى لأخذ الثأر للسمح بن مالك الخولانى ، ولما أصاب المسلمين عند أسوار « تولوشة » الفرنسية ، جمع جيشا قيل انه لم يجمع مثله فى أرض العدو ، وفتح الله تبارك وتعالى على الغافقى كثيرا من مدن جنوب فرنسا •

وعد المؤرخون هذه الحملة ذروة الصراع بين الاسلام والصليبية فى أوربة العصر الوسيط ، وكان اللقاء الدامى الكبير فى السهل الواقع بين مدينتى تور وبواتييه ، وكان على رأس الفرنجة شارل مارتل المعروف بشارل المطرقة ، والذى اعتبره الغرب المسيحى بطل النصرانية يومئذ ، واستحر القتال بين الجانبين وكاد النصر أن يكون للمسلمين لولا صيحة مجهولة فيهم بأن معسكرهم موشك أن يقع فى أيدى الأعداء فكان للصيحة أثرها السىء وعاقبتها الوخيمة ، فقد هب أكثر الجند الاسلامى للدفاع عن المتاع . أما عبد الرحمن فكان يحاول منعهم من الانصراف عن القتال اذ لاح النصر دانيا قريبا ينطلقون بعده الى وسط أوربة فى ظل الراية الاسلامية •



لكن الجند لم يستمعوا اليه ... وعادت وقعة « أحد » بكل ما حملت من معان وخاتمة .

ووجد العدو ثغرة فى صفوف المسلمين أتاهم منها ، وما أوتوا فى الواقع الا من أنفسهم .

وجاءت رمية سهم من العدو أصابت القائد العربى المسلم العكى اليمنى عبد الرحمن الغافقى السلمى فأردته فمات شهيدا .

وعرفت هذه الوقعة بمعركة بلاط الشهداء .

وكانت فى شعبان أو رمضان سنة أربع عشرة بعد المائة الأولى من الهجرة .

وكان لها دوى كبير كما قلنا من قبل فى الغرب الذى قال مؤرخوه القول الذى سبق وأن نقلناه فى غير هذا الموضع من أنه لو كان المسلمون قد انتصروا يومذاك ولم يجر عليهم من الخذلان ما جرى لكان القرآن يتلى فى معاهد باريس وجامعات لندن وأكسفورد وكمبردج .

وكان لهذا الكلام معناه عند من يتدبره .

★★★

مسلمة بن عبد الملك يغزو الخزر :

أما فى الشرق فقد كان « مسلمة بن عبد الملك على رأس العسكر الاسلامى الذى خرج كما خرج كثيرا من قبل لغزو الخزر ، ورغم ما أبداه من جرأة وشجاعة ، ورغم صموده أمام هذا العدو الشرس الذى أخذ يزداد بمن انضم اليه من أهالى تلك النواحى ، وعلى الرغم من أنه فتح كثيرا من مدنه وقلاعه ، وما أفاء

الله به على من معه من غنائم ضخمة الا أن ذلك كله لم يقع موقع الرضا والاستحسان من نفس ابن عمه مروان بن محمد بن مروان الذى كان يصحبه فى القيادة والذى جعله مسلمة على مقدمة العسكر ٠

وكان مروان يرى الا سبيل الى تأديب الخزر وحفظ هيبة الاسلام ومكانة الخلافة بينهم الا بأن يستمر المسلمون فى جهادهم حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، لذلك نراه ينفصل عن مسلمة ويمضى الى دمشق ، ويفاجأ به الخليفة مقتحما عليه مجلسه فيسأله عما جاء به فيقول له :

« يا أمير المؤمنين ٠٠٠ لقد ضقت ذرعا بما أذكره ولم أر من يحمله غيرى » ٠

فيسأله الخليفة عن هذا الذى ضاق به صدره ولم يحمله سواه فيقول :

«قد كان من دخول الخزر الى بلاد المسلمين وقتل الجراح وغيره من المسلمين ما دخل به الوهن على المسلمين ٠

« ثم رأى أمير المؤمنين أن يوجه أخاه « مسلمة » اليهم ، فوالله ما وطىء من بلادهم الا أدناها ٠

« ثم انه لما رأى كثرة جمعه أعجبه ذلك فكتب الى الخزر يؤذنهم بالحرب ، وأقام بعد ذلك ثلاثة أشهر فاستعدوا وحشدوا ٠

« فلما دخل بلادهم لم تكن له فيهم نكاية ، وكانت السلامة قصاراه » ٠

« وقد رأيت أن تأذن لى فى غزوة أذهب بها عنا العار وأنتقم من العدو » .

فعجب الخليفة هشام بن عبد الملك مما قاله ابن عمه مروان وأعجبته صراحته وحماسته ، فأذن له فيما سأله اياه من الخروج لغزو الترك ، وأمده كما يقولون بمائة وعشرين ألف مقاتل ، بعد أن سأله مروان أن يكتم هذا الأمر عن كل أحد .

ثم زاد هشام على ذلك بأن ولاه أرمينيـة .

ثم بعث الخليفة فى الوقت ذاته فجمع له العسكر والمطوعة من الشام والعراق والجزيرة حتى اذا تجمعوا سار بهم مروان مظهرا أنه قاصـد بلاد « اللان » وذلك للتعمية على الخزر حتى لا يستعدوا له .

ولما كانت كلمة الخزر تطلق على ولايتين هما انجاز واللان وتقع على البحر الأسود وتطل عليها جبل القفقاس فمن هنا نعرف أن المقصود من هذه الحملة هو خزر الانجاز .

وزاد مروان فى التعمية حين بعث الى ملك الانجاز يطلب مهادنته فلم يعارض الملك بل أرسل للتفاوض رسولا من قبله الى مروان الذى أمسك الرسول امساكا ظاهره الاحتفاء به ولكن كان باطنه تأخيره والتريث حتى يفرغ من استعداداته ، فلما تم له ما أراد واستكمل خطته أعاد الرسول الى مرسله بعد أن جاهره أنه قاصد بلاد مولاه الذى أرسله والذى لم يكن يتوقع هذا الزحف ، ولم يكن لدى الملك الانجازى الخزرى طاقة لمواجهة مروان وعسكره الكثيف فاحتار ما يفعل :

انه اذا ما قاتله فعند مروان من الجند والسلاح والكراع ما يجعل له اليد العليا فيخرج عليه المسلمون وقد انتصروا ، وان

تحققت الهزيمة بملك الانجاز . فقد قطع كل طرق للصلح بينهما . وتحير الملك ما يفعل ومن ثم شاور أصحابه ونزل على مشورتهم وخلى البلاد الى أقصاها ، فدخل مروان غانما سالبا سابيا .

ثم صالحه ملك الخزر على كثير ، وفعل فعله ملوك النواحى التى تجاوره وعاد مروان الى الخليفة منصورا وقد حقق هدفه .

البطال يغزو الروم ويأسر ولى عهدهم :

وتشير الروايات العربية الى أنه فى سنة أربع عشرة بعد المائة (٧٣٢ م) غزا « عبد الله البطال » الروم وهزم القوات البيزنطية. وأسر قسطنطين ابن ملكهم الذى يقول البعض انه قسطنطين ابن هرقل وهو خطأ تاريخى اذ يفصل بين زمانيهما أكثر من قرن ، لكن تبين لنا أنه قسطنطين كوبرونيموس Copronymus الذى تولى عرش بيزنطة بعد ليو الايسورى سنة احدى وأربعين وسبعمائة للميلاد ، أعنى سنة أربع وعشرين ومائة للهجرة ، ويزيد فى توضيح شخصيته أن الحوليات البيزنطية تذكر أن ليو الايسورى زوج ابنه قسطنطين هذا بابنة ملك الخزر رغبة منه فى مضايقة المسلمين ومكايدتهم ووضعهم بين شقى الرحى .

وفاة ابن رباح فقيه الحجاز والباقر :

ومات فى هذه السنة (١١٤هـ) من أعلام الأئمة فقيه الحجاز عطاء بن أبى رباح وكان عبدا أسود ، وقد رحل عن هذه الدنيا عن سن عالية ، وهو الذى وصفه أبو حنيفة فقال « ما رأيت أفضل منه » ، وقال فيه ابن جريج : « كان المسجد فراش عطاء بن أبى رباح عشرين سنة ، وكان من أحسن الناس صلاة » .

كما مات فيها أبو جعفر محمد بن على بن الحسين بن على المعروف بالباقر الذى كان على جانب من العلم فاق فيه غيره من أهل زمانه ، وكان يقول : « ما أدركت أحدا من أهل بيتى الا وهو يتولى الشيخين : أبا بكر وعمر » بالخير » • ويعده الامامية خامس الأئمة الاثنى عشر •

وذكر أبو الفدا فى مختصره انه أوصى أن يكفن بقميصه الذى كان يصلى فيه ، وزاد على ذلك فقال انه مات بالحميمة ، ونقل الى البقيع حيث دفن بها •

وحج بالناس فى هذه السنة خالد بن عبد الملك ، وقيل بل محمد بنى هشام • وسواء أكان هذا أم ذاك فان فى اختيار أحدهما ما يشير الى العناية الكبيرة بالموضوع وما للمسألة من دلالة هامة •

★★★

الطاعون فى الشام والعراق وواسط :

غير أنه حدث فى سنة خمس عشرة ومائة ان وقع الطاعون أولا بالشام ، وما لبث أن جاوزها الى العراق ، وازداد شدة وفتكا لا سيما بواسط التى يقال انه لم يلق بلد من الطاعون مثل الذى لقيته واسط ، ثم استفحل شدة فى جنوب العراق فهلك الكثيرون مما ترتب عليه قلة الأيدى العاملة مما مهد للقحط والمجاعة •

ولحق خراسان مثل ذلك فكان شرا مستطيرا •

★★★

موت الجنيد بن عبد الرحمن :

ولما أهل المحرم من سنة ست عشرة ومائة مات بمرو « الجنيد بن عبد الرحمن » والى بنى أمية على خراسان وقد أثنى

عليه الذهبى ، وكانت للجنيد كما رأينا يد غير منكورة فى محاربة الترك حين استجاشوا ضد المسلمين بسمرقند . ثم غزى «الصغانيان» فلم يلق كيدا ، كما أقره الخليفة هشام بن عبد الملك على السند عامين فعظم أمره وعظم شأن الاسلام خلال فترة ولايته . ثم سار الى أرض الصين داعيا ملكها للاسلام فلم يقبل منه . وكان ثم حرب وقتال تمخض أخيرا عن طلب الملك الصلح .

ثم غزا الجنيد « الكرج » ، وهكذا كانت حياته كتاب مجد وجهاد وانتصارات ورفعة للاسلام ، فلا عجب اذا سمعنا من يرثيه فيقول :

هلك الجود والجنيد جميعا ... فعلى الجود والجنيد السلام
أصبحا ثاويين فى أرض مرو ... ما تغنى على الغصون الحمام
كنتما نزهة الكرام فلما ... متما مات الندى ومات الكرام

ولاية السلولى افريقية وبناؤه جامع الزيتونة :

وفى سنة ١١٦ هـ ولى هشام بن عبد الملك عبيد الله ابن الحبحاب السلولى الموصلى افريقية ، وكان اذ ذاك واليا على مصر ، فبعث عبيد الله بعثا بقيادة « حبيب بن أبى عبدة الفهرى » أحد حفدة المجاهد المرابط عقبة بن نافع فغزى البعث السوس الأقصى وأرض السودان ، وفتح الله على البعث بكثير من الغنائم والذهب.

كذلك أنفذ عسكرا آخر الى صقلية فأصاب ناحية منها ، فلما هم الجند بالرجوع اعترضتهم سفن البيزنطيين فاقتتلوا اقتتالا شديدا فى البحر ، ثم فر البيزنطيون ولكنهم أسروا جماعة من المسلمين ظلوا فى أيديهم حتى افتدتهم الخلافة سنة احدى وعشرين ومائة . ومن أيادى ابن الحبحاب هذا التى لا تزال شاهدة له ونورا

في تاريخه بناؤه جامع الزيتونة : دار علم وصلاة وايمان ، ومشرق نور وهــدى .

★★★

على أنه فى السنة التالية كانت هناك جبهتان كبيرتان حاربت فيهما القوات الاسلامية ، أما الجبهة الأولى فكانت فى خراسان حيث خرج خاقان الترك الكبير وأفسد هو ومن معــه فى النواحى التى مروا بها حتى اذا بلغوا « مرو الروذ » تصدى لهم أسد بن عبد الله القسرى فحاربهم فهزمهم فشردهم ، وكانت « مرو الروذ » من أكبر بلدان تلك الناحية ، ولكنها كانت تسمى بمرو الصغرى . أما الجبهة الثانية التى شهدت العسكر الاسلامى فكانت عند ناحية تعرف بجبل « القبق » ، وكان هذا العسكر بعثا من مروان بن محمد والى أرمينية وأذربيجان منذ أن ولاه ابن عمه الخليفـــة أمرهمـا بعد أخيه مسلمة بن عبد الملك .

ونجح أحد البعثين فى فتح ثلاثة حصون من حصون « اللان » ، وذكر بعض المؤرخين وعلى رأسهم ابن كثير أن كثيرا من أهل تلك الناحية نزلوا بالأمان .

وأما البعث الآخر فقد توجه ضد أحد الملوك واسمه « تومان شــاه » فطلب قومه الصلح من المسلمين فأجابوهم اليه ، ثم بعث مروان « تـــومان شـــاه » الى الخليفة هشـــام بن عبد الملك فرده الى مروان الذى رده الى مملكته بعد أن لقنه درسا أدرك منه قوة الاسلام والمسلمين .

كذلك حدثوا أن معاوية بن هشام غزى أرض الروم المجاورة للتخوم الاسلامية ، وأصاب سبيا ، كما غزى أخوه سليمان فى

ناحية أخرى لم تحددها المراجع ، ففتح الله عليهما بعض الجهات ، وما نحسب هذا أو ذاك الا من الصوائف والشواتى .



ولاية عبد الله القسرى :

وكان هشــام الخليفة قد عهــد بــولاية خراســان الى « عاصم بن عبد الله الهلالى » قبل ذلك بعام ، فطمع عاصــم أن يزاد له العراق فى رقعة الولاية ، فكتب الى هشام يقول : « ان ولاية خراسان لا تصلح الا مع ولاية العراق » ، وكان ظنه ورجاؤه أن يضيف هشام ــ بعد قراءة هذا الكتاب ــ العراق اليه فيتسع مدى سلطته وسلطانه ، ويعظم قدره . واستجاب هشام لرأى الهلالى فضم العراق وخراسان بعضهما الى بعض لتكونا تحت امرة وال واحد ، كما أشار بذلك عصام ، ولكنه جعل عليهما « عبد الله ابن خالد القسرى » فكانت مرارة عاصم كبيرة ، اذ فقد الولاية وجنى على نفسه ونفع غيره بما أراده هو لنفسه . ولكن ما قدر الله كان .



مهاجمة الروم لمصر واستفحال خطر العباسيين :

وفى جمادى الآخرة سنة ست عشرة ومائــة للهجرة أقر الخليفة هشام على امرة مصر « عبد الرحمن بن خالد بن مسافر » فلم تطل مدته أكثر من بضعة شهور لعدم تمكنه من دفع البيزنطيين الذين أرسلوا قوة أصابت من أهل البلاد جماعة حملتهم أسرى ، وعد ذلك غفلة من الوالى مما أغضب الخليفة ، وحق له أن يغضب لرعيته ، فعزل عبد الرحمن .

على أن البعض يرجع سبب عزله الى أنه أكرم وفادة بعض دعاة بنى العباس ، فان يكن هذا صحيحا فقد حق للخليفة ـ وهو أموى ـ آن يغضب فيعزله ويكون هذا أبسط عقاب يجازيه به · ولكن هل يكفى هذا لضمان أمن الدولة من الخطر الذى راح يهددها والذى انتهى بازالتها واقامة دولة جديدة ناقمة عليها هى دولة بنى العباس ؟

لقد أخذ أمر العباسيين يستفحل بصورة لم تعد خافية على أحد وذلك فى نواحى خراسان التى دخلها سرا أحد دعاتهم واسمه « عمار بن يزيد » ويعرف « بخداش » · وراح يدعو الناس سرا لمبايعة محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، فاجتمع عليه خلق كثيرون ثم مالبث هذا الداعية أن جاهر بأقوال تدخل فى باب الكفر وصرح بمذهب « الخرمية » الملحدين ، وساءت سيرته فوقع فى يد « خالد بن عبد الله القسرى » ، وقيل بل فى يد أخيه « أسد » وسواء أكان هذا أم ذاك فقد جوزى بما يستحقه على ما بدى منه من كفر وفجور والحاد ، وهل يكون جزاء مثل هذا الا القتل ؟

ويبدو أن الدعاة كثيرون ، اذ يرد ذكر جماعة منهم وقعوا فى يد « أسد بن عبد الله » فرآى فيهم مخربين لأمن الخلافة الأموية ، ساعين للقضاء عليها ، فعاقبهم العقاب الذى يتكافأ مع جرمهم ، ولكن كثيرين غيرهم كانوا أبعد من أن تنالهم يد الدولة ، بالاضافة الى أنهم اتخذوا من خراسان وما حولها مركزا لدعوتهم ، وكانت يد الخلافة متراخية نسبيا عن هذه الناحية رغم خطورتها ، وهو أمر أحس به الكثيرون ، ونرى انعكاسا له فى آن أحد رجالات بنى أمية وولاتهم واسمه « على بن سيار » أحس به وأدرك مضرته ونادى سادته الأمويين بالتنبه لهذا الخطر وطالبهم بالوقوف ضده والقضاء عليه والا فسيكون فيه القضاء عليهم وعلى دولتهم ، فقد ذكرت المصادر العربية له شعرا يحذرهم فيه من الشر الماثل فقال :

أرى تحت الرماد وميض نار   ويوشك أن يكون له ضرام

والقصيدة أطول من هذا ، وسنورد بعضها فيما بعد فى غير هذا الموضع ٠

★★★

مروان بن محمد :

على أن مروان بن محمد الذى سيكون آخر خلفاء بنى أمية كان من أشد بنى أمية حرصا على ما فيه صالحهم ٠٠٠ ويبدو أنه وضع خطته ـ حين كان واليا على خراسان وأرمينية ـ على أن يمهد الأرض للدولة ، فبينما نرى عسكره الاسلامى فى بلاد « اللان » اذا بنا نرى بعض جنده يؤدبون « تومان شاه » ، ثم اذا بنا نراه يدخل منطقة قرب بحر الخزر ٠٠٠ فنطالع فى الحوليات الاسلامية كلمة « ورتنيس » التى تختلف هذه المراجع حولها اختلافا يجعل قارءها فى حيرة ، فالبعض من هذه المراجع يقول انها حصن فى بلاد « سميساط » ، ويقول بعضها الآخر : بل انه اسم ملك أعجمى من ملوك تلك النواحى ، وفى اختلاف هذه المراجع فى تفسير هذه الكلمة يقع القارىء فى اضطراب ٠

فاما الذين يقولون انه اسم رجل فمنهم خليفة بن خياط وابن الأثير ، ولعل هذا هو الأصح ، وأن ملك العدو كان اسمه « ورتنيس » ، ولعل حصنه الذى كان يتحصن فيه قد سمي باسمه، اذ تقول الرواية العربية الأخرى ان مروان بن محمد دخل أرض « ورتنيس » من ثلاثة أبواب فهرب « ورتنيس » الى الخزر وترك القلعة ، فوثب عليه أهل احدى بلاده وقتلوه وبعثوا برأسه الى مروان الذى أظهرها لأهل قلعة ورتنيس فنزلوا على حكم المسلمين »٠

★★★

اضطراب أمور الغرب الاسلامي ونهاية أبى الخطار :

ونعود الى الغرب الاسلامي فى هذه الفترة بالذات فنقول : لقد كان أبرز من ظهروا على مسرحه السياسى « أبو الخطار » حسام ابن ضرار الكلبى الذى كان يطوى صدره على عصبية قبلية وعلى حقد قبلى أسود مما أثار الكراهية ضده فى نفس القيسية بصورة حملت الزعيم المضرى « الصميل بن حاتم » على أن يقاتله ، وبذلك اضطرمت نيران العصبية بين طائفتين كانتا تتنازعان السيادة فى تلك النواحى ، ثم كانت ثورة انتهت بأسر « أبى الخطار » لكنه نجح فى الهروب الى « باجة » مركز تجمع اليمانية ، ثم كان القتل خاتمة حياته سنة ١٣٠ هـ ٠

وامتازت فترة حكم أبى الخطار ـ رغم قصرها ورغم اضطراب كثير من النواحى ـ أنه تمكن خلالها من استرضاء البربر هناك ، لا سيما من كانوا فى قرطبة ، وكان البربر دائمى التحرك خاصة فى مستهل حكم كل وال جديد ، مما لا يجعل مفرا لهذا الوالى أو ذاك من الاصطدام بهم مما ليس فيه خير لأحد الطرفين ٠

على أنه كانت هناك عوامل كثيرة تعمل على اذكاء الفتنة فى نفوس أهالى تلك النواحى لا سيما من جانب النصارى ٠

★★★

بعض وفيات هذه الفترة :

ولقد مات فى هذه الفترة وفى سنوات متتالية جماعة ممن هم حلية فى تاريخ الاسلام كعبد الله بن عبد الله بن « أبى مليكة » القرشى مؤذن الحرم الشريف ، كما مات فقيه أهل دمشق ابن أبى زكريا الخزاعى الذى نعته بعضـهم « بسيد أهل المسجد » لحسن خلقه ، وقال فيه الذهبى انه « ثقة » ٠

ومات قاضي الجزيرة الفقيه مهران الرقي ، الذى روى عن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وعن أبى هريرة ، وشارك فى الأخذ عنهما • ومات فى نفس السنة فقيه المدينة ابو عبد الله ناسع الذى كان عمر بن عبد العزيز قد بعثه الى مصر « ليعلم أهلها السنن » •

ومات عن سن عالية قاربت المائة فى قول ـ وجاوزتها فى قول آخر ـ قاضي الشام « أبو عمران ابن عامر اليحصبى » الدمشقى الذى يقال عنه انه قرأ نصف القرآن على ذى النورين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومات كثيرون غيرهم ممن وعوا السنة الطاهرة وحفظوا الحديث الشريف باسناده وأفشوه بين الناس ، لا يطلبون على ذلك أجرا ولكن كان أجرهم عظيما بما قدموا •

انتصارات مروان بن محمد فى ارمينية وغيرها :

وشهدت سنة تسع عشرة ومائة انتصــارات مروان بن محمد والى أرمينية وولده عبد الملك ، فقد غزى الأول غزوة « السانحة » مخترقا بلاد « اللان » ، وجاوزها الى أرض الترك حتى انتهى الى مدينة « البيضاء » التى يسميها الفرس بلسانهم وأهل هذه النواحى « ألبيزا » وكانت وقتذاك مركز اقامة خاقان تلك الجهة والذى فر عند قدوم المسلمين •

وأما ابنــه عبد الملك بن محمد بن مروان فقــد تغلب على « هزار طرخان » ومن معه •

غزاة أسد القسرى ثم موته :

على أن الغزوة الكبرى التى أوجعت الخزر كانت فى ســنة ١١٩ هـ أيضا حين أشاع خاقان الترك كذبا أن أسد بن عبد الله

القسرى » مات وكان جند الأخير متفرقا فى أرض « الختل » للغزو ، فكاد اليأس أن يجد سبيله الى بعض النفوس لولا أن وقف أحد الجند من العسكر الاسلامى وقال :

« لئن هلك أسد فلن يخزى الله دينه •

« وان الله حى قيوم •

« وان أمير المؤمنين حى وجنود الاسلام كثيرون »» •

فاطمأنت النفوس الهالعة ، وقرت القلوب الواجفة ، وعاد أسد من غزو الختل ، بعد أن فتح الله على يده احدى القلاع الهامة ، وكانت معارك بين الجانبين امتدت أياما طوالا ولكنها انتهت بانتصار المسلمين ، ودب اليأس فى نفوس أهل الكفر حتى ان خاقان الترك ضرب زوجته بخنجر أرداها قتيلة حتى لا تقع أسيرة فى أيدى المسلمين الذين استولوا على مدن كثيرة من مدن عدوهم •

ثم فتح الله على أسد بن عبد الله بلادا لم يصل اليها غيره ، وخلص المسلمات من أسر خاقان المذل الذى وقعت خيوله أو أكثرها فى أيدى المسلمين ، ثم بعث أسد بالبشير الى الخليفة هشام ، فكبر البشير على بابه تكبيرة سمعها هشام فكبر هو الآخر ، ثم قال له البشير : « الفتح يا أمير المؤمنين » !! وأخبره الخبر ، فنزل هشام عن سريره وسجد شاكرا لله على ما من به •

★★★

ثم مات أسد بن عبد الله القسرى فى العام التالى ، وكانت حياته صورة رائعة من البطولات الاسلامية والأمجاد الحربية حتى قال فيه رائيــه :

نعى أسد بن عبد الله ناع . فريــع القلب للبطل المطاع
ببلخ وافـق المقـدور يسرى وما لقضــاء ربك من دفـــاع
سقيت الغيث انك كنت غيثـا مريعا عنـد مرتاد النجـاع

وما كان الذى قيل فيه الا بعض ما يستحقه وانه لأهـل له ولما هو أكثر منه ٠

★★★

توسع مروان الحمار الحربى فى أرض تومان شاه :

ونطالع توسع الفتوحات فى سنة احدى وعشرين ومائة اذ يغزو مروان الحمار أرضا من أرمينية حتى يبلغ مكانا يسميه المؤرخون المسلمون « بيت السرير » ، ويسمى أحيانا بسرير الذهب، وقد عرف بعض المحققين هذه الناحية بأنها مملـكة واسعة بين « ألان » و « باب الأبواب » ، ومكانها اليوم فى جنوب الاتحاد السوفييتى ، ويدخل مروان أرض « تومان شاه » ويشـتد على « خمرين » ويفتح أرض « مسداد » ويكون له النصر ، ويصالحه أهل طبرستان ، ومن ثم فقد تم للمسلمين فتح كل شواطىء الخزر من أرمينية الى طبرستان ٠

ويخرج مسلمة بن هشام فى طائفة الى بلاد الروم فيبلغ ملطية ويغزو نصر بن سيار ما وراء النهر ويركع أمامه « كورصول » وكان ملكا لاحدى قبائل الترك وان اكتفت المصادر الاسلامية بأن تطلق عليه لقب « ملك الترك » ، ويعرض « كور صول » دفع الفدية فلا يقبل « نصر بن سيار هذا العرض فيزيد ملك الترك هو وقومه فى مبلغ الفداء ويأبى ابن سيار أن يتزحزح عما قاله له ٠

دخول حبيب بن أبى عبيدة صقلية ودفعها الجزية له :

أما فى الغرب فيقوم فى نفس السنة حبيب بن أبى عبيدة الفهرى بحملة يطأ بهـا أرض صـقلية ، ويظفر ظفرا كبيرا « لم يسمع بمثله » كما يقولون ، ويبلغ مدينتها الكبرى « سرقوسة » ويخافه نصاراها ويدفعون له الجزية ، وان سمتها بعض المصادر القـديمة .



ميسرة السقاء وحركته :

على أن بلاد المغرب تبدو اذ ذاك مضطربة من جراء ظهور من يعرف بميسرة السقاء أو الحقير وقد عمل على ظهوره ما كان من البربر تجاه الحكام العرب من انتزاء لا مبرر له ، وكان هؤلاء البربر قد كرهوا من عبيد الله بن الحبحاب والى افريقية ضربه لثوراتهم حين أنفذ جيشـا عليه « حبيب بن أبى عبدة الفهرى » ، فزجر الثائرين زجرا عنيفا وكانت مرارة هزيمتهم على يديه علقما فى أفواههم فقد أثخن فيهم وقتل منهم طائفة كبيرة ، فازدادت نقمتهم على الحكومة وان كتموا هذا فى نفوسهم الى حين .

واغتنـم هذه الفرصـة الكارهون للحكومة فراحوا يشيعون الكذب والأباطيل عن تجهيزاتها ضد البربر مما زاد فى نقمة هؤلاء البربر ، وراحوا يرجون أن يثأروا لأنفسهم لاسيما بعد أن ذاع بينهم ــ من غير حق ــ أن ابن الحبحاب يرتب ما يجعلهم عبيدا أو فى منزلة العبيد ، فانفوا من ذلك وهم ــ كما عرفهم التاريخ ــ قوم يحبون الحرية ويأبون الضيم ، ومن ثم كان من اليسير على الداعية الذكى الداهية الأريب أن يدخل عليهم من هذا الباب ، واغتنم الفرصة ميسرة فراح ينفث فيهم روح التمرد والعصيان ويعمل على اذكاء الفتنة ، واستجاب له البربر فجمعوا جموعهم

تحت قيادته وزحفوا على طنجة واستولوا عليها ، وظنوا الآمر قد استتب لهم فبادروا الى المناداة بميسرة أميرا و « خليفه » ، وزحفوا على بعض نواحي المغرب الأقصى وكان النصر فى ركابهم فحمل ذلك عبيد الله بن الحبحاب على أن ينفذ اليهم جيشا بقيادة خالد ابن حبيب فالتقى بميسرة وجها لوجه فى قتال هلك فيه ميسرة وان قال بعضهم بل وثب عليه رجال من رجالاته كرهوا منه بعض فعاله وأنكروها عليه فاغتالوه ، ونصبوا مكانه رجلا من زناتة يدعى « خالد بن حميد » ، ثم كانت بين القوتين وقعة دارت الدائرة فيها على العرب وقتل ابن حبيب ومعه كثير من أشراف العرب فى معركة عرفت بوقعة الأشراف ٠

ولقد انقسم أتباع ميسرة فريقين راح كل منهما يحارب الآخر ، ثم انتقل مجال الحرب الى غيرهما ، واكتوى المغرب كله بنيران تضره ولا تنفعه ٠

★★★

نشاط الدعوة العباسية :

هذا ما كان فى المغرب ، أما فى المشرق فتزداد الدعوة لبنى العباس وضد بنى أمية تحت شعار « الرضا من آل محمد » وهو شعار مبهم غامض عده كل من العباسيين والهاشميين أنه هو نفسه المقصود به ، ولكن سيعرف الكل حقيقة هذا الشعار بعد حين ، يوم يفرغ العباسيون من بنى أمية ويوم يفرغون من آخر خليفة أموى وهو مروان بن محمد ، وذلك بعد اثنتى عشرة سنة ٠

★★★

ولما كانت أواخر العشرينيات من القرن الثانى للهجرة تأزمت أحوال بنى أمية ، وزاد الأمر خطورة انصراف الوليد بن يزيد عن العناية بأطراف دولته وتشاغله باللهو عن أمور الحكم حتى

ان بعض المصادر لتصفه حين تترجم له بأنه كان « من فتيان بنى أمية وظرفائهم » وهى عبارة لها ما لها من معنى • وقد تزيد بعض هذه المراجع فتقول عنه « انه كان يعاب عليه الانهماك فى اللهو وسماع الغناء » ، ويقول عنه أحد المؤرخين : « عكف الوليد منذ بويع على شرب الخمر وسماع الغناء ومباشرة النساء حتى قتل سنة ١٢٦ هـ » •

ولما اتهمه البعض فى دينه لم يعد له مكان فى نفوس العامة فتولى مكانه فى رجب سنة ست وعشرين ومئة ابن عمه « يزيد ابن عبد الملك » الذى لقب « بالناقص » لأنه نقض الناس العشرات التى زادها الوليد « فلم يطل به الحكم أكثر من بضعة أشهر ، وأخذ أفراد أسرة بنى اميـة يحارب بعضهم بعضـا حربا توجع المسلم وتفرح العدو ويصفق لها الكافر ، هذا الى جانب تفاقم الدعوة لبنى العباس ، تلك الدعوة التى كانت أخطر معول فى تحطيم الكيان الأموى •

★★★

خلافـة مروان :

بويع مروان بن محمـد فى صفر سـنة سـبع وعشرين ومائة ولكن مبايعته لم تستطع أن تضع نهاية للمأساة التى بدأت توشك أن تقضى على الأمويين : حكاما وقادة •

على أن الحق يقتضينا ـ ويقتضى كل منصف ـ أن نقول ان مروان تولى الخلافة فى ظروف عصيبة قاتمة ، أهون ما فيها مبايعة أهل الكوفة بالخلافة لعبد الله بن معاوية من حفدة جعفر بن أبى طالب ، وتحرك « مرو الروذ » ضـد نصر بن سيار عامل الخلافة واغتنم أبو مسلم الخراسانى الفرصة للوقيعة بين الجميع ، وبدت الخلافة الأموية وكأنما قد أصيبت بالشلل فلم تمد ابن سيار

بالعون حين استمد منها العون ، ولم تأخذ بتحذيره اياها مما يحوطها ويهددها من أخطار ، حتى انه كتب لمروان يقول :

أرى خلل الرماد وميض نار ۞ ويوشك أن يكون له ضرام
فان لم يطفها عقلاء قوم ۞ يكون وقودها جثث وهام
وان النار بالعودين تذكى ۞ وأن الحرب أولها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعرى ۞ أأيقاظ أمية أم نيام
فان كانوا لحينهمو نياما ۞ فقل : «قوموا فقد حان القيام»

فما حرك ذلك ساكنا من بنى أمية ، ولا نبه غافلا ، فلا عجب أن أخذوا بغفلتهم ، ويأخذ ربك القرى وهى غافلة ·

ولقد شجع هذا التراخي الأموى رجلا كابراهيم بن محمد ابن على بن عبد الله بن عباس على أن يأمر أبا مسلم الخراساني أن يظهر الدعوة لبنى العباس بين أهل خراسان ، وأن يدعوهم بالمجاهرة بلبس السواد شعارا يعرف به المؤيد لهم من غيره ·

وامتثل أبو مسلم ، وبعث دعاته فى الناس هناك ، واستجابت له الغالبية القوية وظهر أمره حتى قيل انه أتاه فى يوم واحد أهل ستين قرية ، واستفحل أمر الدعوة واستغلظ عودها ، واتخذ الدعاة من خراسان مركزا لهم يصدر منه الدعاة ، وأصبح هذا البلد يهدد الكيان الأموى حتى قال النذير موجها كلامه ليزيد عامل بنى أمية هناك :

أبلغ يزيد وخير القول أصدقه
وقد تحققت أن لا خير فى الكذب
بأن أرض خراسان رأيت بها
بيضا اذا أفرخت حدثت بالعجب

فـراخ عـــامين ، الا أنهـــا كبـــرت
ولم يطــرن ، وقد سربلن بالزغـب

فـان يطـرن ولم يحتـل لهن بها
يلهـبن نـيران حـرب أيمـا لهب

وصـــــــدق النذير فيكون بئس العاقبـــة اذا تراخى من بيدهم الأمر ان لم يضربوا بيد من حديد أو يحتالوا على ما أنذرهم به النذير حتى لا تكون خواتيمها « نيران فتنة » ولهبا يأكل الوجود الأموى ، وحينذاك لا ينفع علاج ولا تجدى شكوى ، ولا تستطيع أية قوة فى دفع الدعوة الخراسانية ٠

انتشار الرايات السود :

ولقد استشرت الدعوة العباسية حتى ان أبا مسلم الخراسانى دخل « مرو » ونزل دار الامارة يـوم الخميس التاسع من جمادى الآخرة سنة ثلاثين ومائة ، وهرب نصر بن سيار فى شرذمة قليلة من الناس قيل انها بلغت نحو ثلاثة آلاف شخص ، وخلصت مرو لأبى مسلم وخفقت الرايات السود فى كل ناحية وحول قصر الامارة وبداخله وانتشرت فى كل جهة فأنى التفت آخذ السواد عينيك وعرفت انهم جميعا عباسيون ٠

أما فى غير « مرو فكان من أثر الدعوة لبنى العباس أن دخل الناس الكوفة على أبى العباس السفاح وسلموا عليه بالخلافة، وكان ذلك ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة ثنتين وثلاثين ومائة ، فقصد السفاح المسجد وصلى ثم خطب الناس خطبة شاكرا الله أن جعل الحق ونصرة الاسلام فى بنى العباس اذ أنهم كما قال :

« أهله وكهفه والذابون عنه والناصرون له » ٠

مبايعة أبى العباس :

لكن على الرغم من ذلك الأمر الكبير واقبال الناس على الدعوة وتاييدها الا أن الواقع يدل على أنه كانت هناك بطبيعة الحال أمور معوقة ، وكان هناك أمران على جانب كبير من الخطورة صادفتهما الخلافة الوليدة ، اما أولهما فان أبا سلمة الخلال (وزير آل محمد كما كان ينعت) أراد أن تكون الخلافة فى بيت على بن ابى طالب رضى الله عنه ، ولكن نقباء الدعوة وأمراءها قاموا فبايعوا أبا العباس، وكان يومها فى السادسة والعشرين من عمره ، حتى ان أول من سلم عليه بالخلافة كان أبو سلمة نفسه ، وكان العباس فى خطبته قد نال ممن يرى غير بنى العباس أحق بالامامة والرياسة والسياسة والسيادة ونعت هذا الغير بأنهم « سبأيون ضالون » ، فادرك كل فطن لبيب ـ وكلهم ذلك الفطن اللبيب ما يعنيه قوله هذا ٠

مروان بن محمد يحمل وحده لواء الحرب ٠ ووقعة الزاب :

أما الأمر الثانى الذى صادفته الخلافة العباسية وهى تحبو ، وكانت له الآثار الخطيرة فى مجريات الأحداث وفى تشكيل جانب من التاريخ الاسلامى اذ ذاك والى قرون قادمة تجاوزت حدود بلاد الخلافة الاقليمية الى المغرب والأندلس أقول ان هذا النصر الثانى هو تحرك الخليفة مروان بن محمد الأموى ، ذلك أنه حين كشفت الدعوة العباسية عن وجهها وأسفرت عن استخلاف أبى العباس السفاح للخلافة الجديدة تحرك الخليفة الأموى مروان بن محمد ، وكان السيل قد بلغ الزبى وكشر الشر عن أنيابه لبنى أمية ، وخرج مروان بجنده وبمن أيدوه ، والتقى عسكره بخصومهم عند « الزاب » أدنى الموصل يوم السبت لأحدي عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة سنة اثنتين وثلاثين بعد المائة ، فانكسر مروان بن محمد ، ودارت الدائرة عليه وعلى من معه ، وفر المغلوبون فكان الغرقى أكثر ممن قتلوا ، فلما رأى ذلك عبد الله بن على العباسى

تلى قوله تعالى مخاطبا رجاله « واذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون » ، ثم صلى ركعتين شكرا لله وتلى قول الحق تبارك وتعالى « ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » صدق الله العظيم .

★★★

وكأن المصائب لا يأتين أفرادا فقد واكب هذه الأحداث الدامية أن ضرب الله كثيرا من البلاد بالطاعون ، وكان أول ظهوره بالبصرة فى رجب من العام الماضى ثم اشتد فى رمضان حتى بلغ فى اليوم ألف جنازة .

مروان بن محمد فى مصر وخاتمته :

أما ما كان من شأن مروان بن محمد فقد فر بعد هزيمته فتنكرت له البلاد وأهلها بعد أن كانوا له مطيعين ، ولكن هم الناس فى الدنيا تبع ولمن تحالفه شيع ، وكما يقول الشاعر « ولام المخطىء الهبل » فقد سار مروان الى فلسطين واجتازها الى مصر ، وكان مطاردوه يلحون فى طلبه عساهم يقبضون عليه ، فمضى على وجهه حتى بلغ فسطاط مصر وعبر النيل والتجأ الى قرية أبو صير من قرى صعيد مصر فقاتلته جريدة عباسية فغلبته ، ثم كتب مطاردوه الى أمير المؤمنين أبى العباس السفاح بما آلت اليه نهاية مروان وذلك فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وانتهت حياة مروان بمصرعه على أسوأ صورة ، ومثل البعض بجسده فارسلوا برأسه الى أبى العباس السفاح بالكوفة « فسجد » كما قالوا « شكرا لله تعالى » وذلك يدل على ان مروان كان يخيف بنى العباس وأنه كان الشوكة التى تقض مضجعهم ، وانتهت صفحته ولم يخرج من الدنيا الا بما قاله التاريخ من أنه « كان آخر الخلفاء من بنى أمية » ، وبه انتهت الدولة الأموية كقوة سياسية فى

الشرق ، بيد أنها سوف تبعث من جديد ولكن فى الغرب بالأندلس، بعد أن عاشت فى الشرق الاســـلامى قرابة قرن من الزمان كان قرنا حافلا بالأحداث العظيمة ، وقد مد فيه رجالاتها لواء الاسلام على كثير من رحاب المعمورة شرقا وغربا ، وأعلوا نداء « الله أكبر » فى أصقاع كثيرة كانت أدنى فى معتقداتها من العرب فى جاهليتهم فصيروها تدعو للحنيفة السمحة ، وحارب الأمويون من قبل أعداء الدين من مشركين ووثنيين ، وحاقدين وهراطقه ، وهل أدل على عظمة بنى أمية فى خدمة الاسلام من أنهم بلغوا جنوب فرنســا ووسطها وصيروا البحر الأبيض المتوسط بحيرة اسلامية بعد أن كان يسمى ببحر الروم .

★★★

على أن الخلافة العباســـية الجديد أزعجهـا أن تخلع بعض النواحى السواد وتلبس البياض ، كأهل قنسرين ودمشق وحمص وأهل الجزيرة ، وساور الشك الخلافة فى بعض الرجال ـ كأبى سلمة الخلال الذى كان يعرف بوزير آل محمد ، وكأبى مســـلم الخراســـانى .



تولية أبى جعفر المنصور الجزيرة وغيره من آل بيته :

وفى هذه السنة ـ أعنى سنة ١٣٢ هـ ـ وجه أبو العباس الســفاح أخاه أبا جعفر المنصـــور واليا على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية ، كمـا استعمل أخـاه يحيى على الموصـل ، وولى عمه « داود بن على بن عبد الله بن العباس » على المدينة المنورة ومكة المكرمة واليمن والطائف واليمامة ، وولى أبو العباس « سليمان » على البصرة وأعمالها ، وعمه الآخـر « اسماعيل بن على على كور الأهواز » . واتخذهم جميعا من آل بيته ليطمئن اليهم .

هذا من ناحية التنظيمات الادارية فى الولايات الاسلامية .

★★★

أما من ناحية الجهاد فقد بعث أبو العباس السفاح : « موسى بن كعب بن عيينة التميمى » الى الهند ، فلم يقصر فيما ندب من أجله ، وعادت راية الاسلام ترفرف هناك من جديد ، كما غزى أبو مسلم الخراسانى بلاد الصغد ، وغزى أحد قواده بلاد « كش » ، وأصاب من الأوانى الصينية المنقوشة بالذهب شيئا كثيرا ، وكان هذا شيئا جديدا لفت الأنظار الى ما يمكن أن تكون عليه الأوانى الصينية من شأن فى التجارة .

★★★

وفاة السفاح ومبايعة المنصور والتخلص من كل ذى خطر :

ولما كان ذو الحجة من سنة ١٣٦ هـ مات أبو العباس السفاح بعد خلافة استمرت أربعة أعوام وتسعة أشهر ، فتقدم أخوه المنصور فدخل الكوفة ثم ارتحل الى الأنبار وبايعه أهل العراق وخراسان وسائر البلاد والشام ، وشغل حينا بمن لم يبايعه ، فلما فرغ من ذلك كله كان أكبر ما يؤرق باله توجسه الشر يأتيه من أقرب الناس اليه وهو أبو مسلم الخراسانى الذى أشعرت نهايته المنصور الطمأنينة والأمان ، فتمثل بقول القائل :

فألقت عصاها واستقر بها النوى ... كما قر عينا بالاياب المسافر

وكان حقا ما توجسه المنصور فان رحلة أبى جعفر المنصور كانت شاقة طويلة ، وقد آن الأوان له أن يستريح ويقر عينا الى بناء الدولة ودعم أركانها فى الداخل والخارج .

موقف الـروم :

ورأى البيزنطيون أن يعاجلوا الخلافة الجديدة وهى مازالت وليدة تحبو ، ومازالت غضة العود عساهم يستطيعون أن ينالوا من المسلمين شيئا ، ولذلك يقول المؤرخ فازيلييف : أن انتقال الحكم من الأمويين الى العباسيين وما صاحب ذلك من بعض اضطرابات داخلية ـ لا سيما فى أطراف الدولة ـ ساعد الامبراطور قسطنطين الخامس بن ليو الايسورى على ان يفكر فى مد تخوم الامبراطوريه فى الشرق على طول حدود المسلمين فى آسيا الصغرى ، والعجيب أن هذا التخطيط العدوانى من جانب الروم لا ينال من المؤرخين المسلمين الا التفاتة عابرة فيقولون انه فى سنة ثلاث وثلاثين ومائة « خرج طاغية الروم قسطنطين الى ملطية وكمخ فنازل الأخيرة » واذ ذاك استنجد أهلها بأهل ملطية فسار اليهم ثمانمائة مقاتل من المسلمين فقاتلهم الروم ، فلم يكن من قسطنطين الا أن نازل ملطية وألح فى حصارها وراح يرميها بالمنجنيق حتى استسلمت » ، ونزح أهلها عنها الى بـلاد الاســلام وتفرقوا فى الجزيرة • ثم مضى البيزنطيون الى « قاليقلا » وهى منطقة الجبال فيما بين « ارستاس » والفرات الغربى ، وكان للعدو الغلبة عليها •

هذه هى تحركات البيزنطيين العدوانية وانها لكبيرة ، ولكن يبدو أن أكثر المســلمين كانوا يجدون المرارة فى أن يذكروها بالتفصيل ، ولعل ذلك راجع الى تهاون الرد عليها كما ينبغى أن يكون الرد من جانب المسلمين •

لقد كان ذلك مأساة نجمت عن الضعف الذى انتاب الدولة الاسلامية ولكنه ضعف عابر لن يلبث ان يزول •

وكانت هذه الفترة فترة انتقال فى تاريخها •



صفة الدولة الجديدة :

ولقد قامت الدولة العباسية كأشد ما تكون الدول القوية : متانة في التكوين والكيان ، وهيبة في النفوس ، والتفاتا الى الصالح العام فى النواحي الدينية والاقتصادية والعمرانية ، واطمأن بالها الى حد كبير من ريح قد تهب عليها وتنـــال منها حتى قال فيها القـــائل :

أصـــبح الملك ثابت الأســـاس بالبهاليل من بنى العبـــاس

وبدأت الخلافة العباسية بأبى العباس السفاح كما رأينا ، وأخذت فى مطاردة فلول بنى أمية ، غير أن واحدا منهم اســـمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان استطاع ان يفلت من مطاردة العباسيين الدامية ولم يقع فى أيديهم فنجى من مذبحة هلك فيهـــا الكثيرون ، ووقعت هده الكارثه عند نهر « أبى فطرس » وهلك الأمويون الا حفنة كان منهم « عبد الرحمن بن معاوية » ففر الى المغرب محتميا بأخواله هناك من قبيلة « نفزة » البربرية فوصل اليهم بعد جهد ومشـــقة ، ثم نجح فى أن يبلغ الأندلس بعد رحلة شاقة كلها أخطار كان الموت يترصده فى كل خطوة منها ، لكنه تغلب على كل هذا حتى بلغ أخيرا ـ كما قلنا ـ المغرب التى كانت هى والأندلس تجتازان حينذاك فترة أليمة هى انعكاس لما يجرى فى الشرق .

خبر عبد الرحمن بن معاوية :

وقصة هذا المغامر الجرىء عبد الرحمن بن معاوية من أشد قصص الحياة والتاريخ اثارة .

ولقد ذهب عبد الرحمن هذا فى التاريخ بلقب عرف به ذلك هو عبد الرحمن الداخل وبصقر قريش ، وليس من شك فى أنه

البطل الأموى الاسلامى العظيم الذى استطاع ن يقيم بهمته وعزمه وحزمه دولة اسلامية كبيرة أكبرها الغرب والشرق على السواء ، وبقيت فى الحياة عدة قرون ولم يقض عليها الا أبناؤها ممن تقاسمتهم الأهواء والعصـــبيات فتكاتفت عليهم ممالك النصرانية التى كانت تتربص بهم الدوائر ٠

ومن العجيب ان عبد الرحمن بن معاوية هذا نجح فى أن يصل الى الغرب سالما ولم يكن معه سوى مولى له اسمه بدر ، وشاء يمن طالع عبد الرحمن الداخل أن يدخل الأندلس اذ لم يكن دخوله اياها بالأمر الهين ولكنه اســتطاع لأمــر أراده الله ان يدخلهــا فكان ما أراده الله ٠

وتمـــكن عبد الرحمن الداخل أن يتألف الكثيرين من أهل أفريقية ، وكذلك من فى كورة غرناطـة من جنـد الشـــام ومن رجال العصبة المروانية التى رحبت بقدوم الأموى الشريد عبد الرحمن بن معاوية ، وجرت أحداث جمة وطويلة ــ وان كانت مريرة ــ ولكنها انتهت بيوم عرف بيوم « المسارة » فى ظاهر قرطبة كتب الله فيه النصر لعبد الرحمن فدخل جامع البلد فى العاشر من ذى الحجة سنة ثمان وثلاثين ومائة للهجرة ، وصلى الجمعة يومذاك وشكر الله على ما أولاه من النعمة ٠ وهكذا كان يوم « المسارة » نقطة هامة فى تاريخ الاسلام فى الغرب أولا ، ثم فى التأريخ عامة : اسلاميه ونصرانيـــه ٠

الروم يحاولون الصيد فى الماء العكر :

وليس من شك فى أن أخبار المغرب والأندلس كان لها صداها عند البيزنطيين الذين لم يغب عن بالهم أن نجـــاح عبد الرحمن بن معاوية فى دخول الأندلس أمر يزعج الخلافة العباسية ولذلك نراهم يغتنمون الفرصة ليبددوا جهود ونشاط العباسيين فيهاجمون

« ملطية » ويدخلونها عنوة ويهدمون بعض سورها ، ثم يغادرونها ، وكان القائم بذلك الامبراطور قسنطين الخامس فيقود الحملة بنفسه مما يدل دلالة واضحة على أنه آخذ للأمر عدته ، وللوضع أهبته ، فيبعث المنصور من يعيدون الى البلد من شردهم الروم ، ويبذل المنصور من أجل ذلك مالا كثيرا ، وتقوم ملطية مرة أخرى قوية وتخرج منها صائفة سنة تسع وثلاثين ومائة فتتوغل فى أرض العدو .

الاهتمام بالمسجد الحرام :

ونرى من ناحية أخرى ان المنصور يزيد فى توسعة المسجد الحرام ، ولم يكن هو أول من زاد فى سعته كما أشرنا من قبل فى أكثر من موضع ، فقد حدث مثل هذا سنة سبع عشرة باشارة من عمر بن الخطاب حين وجد المسجد قد ضاق بالمصلين فأخذ ما لاصقه من الدور وهدمها وأضاف أرضها الى المسجد وأدخل ثمنها فى بيت المال ، ثم أقام جدارا حوله .

ونتابع حركة التوسع فى المسجد فنقول ان ابن الزبير زاد فى توسعته أيضا ، والثابت أنه هدم جدارا حتى وصل الى أساس ابراهيم وكان الناس يطوفون ويصلون من وراء ذلك ، ثم جعل الحجر الأسود فى تابوت وأعاد بناء الكعبة على ما كان الرسول يريد أن تكون عليه ، كما أخبرته بذلك خالته عائشة أم المؤمنين ، ثم حفر الأساس وادخل الحجر فيما حفر ، وكان ذلك سنة أربع وستين .

ونقل ابن كثير عن الواقدى أنه جعل للكعبة بابين موضوعين بالأرض ، أحدهما للدخول والآخر للخروج ، وزاد فى سعة الكعبة عشرة أذرع .

ولما جاء المنصور إستمع لشكوى الناس من ضيق المسجد فأراد من عامله على مكة أن يشترى المنازل التى تلى المسجد حتى

يزيد فيه ، فامتنع الناس عن البيع ، واصطدمت الرغبتان بعضهما ببعض فأمر المنصور بهدم المنازل فهدمت ، وأدخلت عامة دار الندوة فيه حتى زاد فيه ضعفه ، وكانت الزيادة مما يلي دار الندوة وناحية باب منى ولم تكن الزيادة من الناحية التي تلي الصفا والوادي .

هكذا قال اليعقوبي وزاد فقال « ان ابتداء ذلك كان سنة ثمان وثلاثين ومائة ، وفرغ منه سنة أربعين » .

هكذا كانت التوسعة زمن المنصور للحرم الشريف .

★★★

ولقد ورث المنصور عن أبيه اهتمامه بالعمارة فزاد في المسجد الحرام زيادة كبيرة تمثلت في اضافته دورا كثيرا مجاورة له ، وأقام على ذلك « يقطين بن موسى » . ولم يكلفه بشيء سوء هذا العمل .

الاضطرابات الداخلية في بيزنطة :

وواكبت هذه الأحداث اضطرابات في بيزنطة فقد اغتنم أحد كبار رجال الدولة ــ وكان صهرا للامبراطور قسطنطين الخامس ــ فرصة خروج الامبراطور لقتال المسلمين وهاجمه ودخل القسطنطينية وتمكن من جمع السلطة في يده لمدة عام وبعض عام وأعاد عبادة الأيقونات ، فلما رجع الامبراطور رأى دعم الحركة اللا أيقونية وعقد مجمعا دينيا لمناقشة هذا الموضوع ، ولكن البابا امتنع عن مشاركة أحد من رجاله هذا المجمع فرأسه « تيودوسيوس » اسقف « افسوس » ولعل أهم قرارات هذا المجمع هي التأكيد على منافاة الأيقونات وصور القسيسين وما شابه ذلك للفكرة المسيحية ، الشر الواقع على رؤوس عباد الأيقونات وأنصارها ، بل امتد هذا الضرر الى كثير من الأديرة ومن بها من الرهبان والراهبات ، حتى كان من النوازل الكبرى ارغام الرهبان والراهبات على الزواج ،

وتطورت الأمور الى وضع ساد فيه الارهاب حتى ان اللاأيقونيين فتكوا أبشع فتك بأحد رؤساء الأديرة ومثلوا به ٠

اذا كانت حركة ليو الخامس قد رسمت له صورة بشعة فى أذهان الايقونيين فان البيزنطيين مجدوا عهده لانتصاراته الحربية على البلغار الذين أقام لصدهم سلسلة من الحصون والقلاع ٠

وتطورت الأمور فى دولة الروم عقب وفاة هذا الامبراطور ٠

ظهور المؤلفات الاسلامية الكبيرة وقيام حركة عمرانية نشـــطة ، وبناء بغداد :

وفى تلك الأيام بدأت التصانيف الاسلامية الضخمة ، وشرع العلماء فى تدوين الحديث والتفسير ، فصنف « ابن جريج » فى مكة ، والأوزاعي بالشام ، وابن اسحق مغازيه ، حتى قال الذهبى « كثر تبويب العلم وتدوينه ، ورتبت ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس » ، فكان ذلك خيرا للدين وأهله وللانسانية مما ساعد على التقدم الفكرى ٠

وصحب هذا التقدم الفكرى تقدم عمرانى بدأه الخليفة المنصور وتوجه بتشييد بغداد ٠ وانه لبعيد عن الصحة ما تقوله بعض المراجع من انه كان قد أمر قبلها بقليل ببناء « المصيصة » ، اذ الثابت انها من بناء الروم ، وانما الأصـح ان يقال ان المنصور بنى بالمصيصة مسجدا جامعا فى « موضع هيكل قديم » ٠ ويؤكد هذا ما يقوله الثقات من المؤرخين من انه لما استخلف المنصـور ودخلت سـنة ١٣٩ هـ (= ٧٥٦ م) أمر بعمارة مدينة المصيصة ٠

المنصور يشيد حصن اذنة دفاعا عن المصيصة :

أما البناء فى بغداد فقد قام فى ظل جند اسلامى مرابط وتم سنة احدى واربعين ومائة ، ومما يذكر للمنصور من المبانى التى

أريد بها ان تكون حاميــة لبلدان الخلافة الجديدة اتمــامه حصن « اذنة » ليكون خط دفاع عن « المصيصة » ، كما أعاد بناء قسم من البلد ذاته سنة ١٤١ هـ ، وفى ذلك يقول الاصطخرى الجغرافى ، انها مدينة حصينة عامرة فى غربى نهر جيحان • ويقول ياقوت ان « لأذنة ثمانية أبــواب وسورا يليه خندق » ، والمعروف أن اتمام بناء حصن « اذنة » القريب من المصيصــة انمــا تم ليكون خــط دفاع عنها •

ارسال القوى الحربية الى الرى ثم الى طبرستان لاخماد فتنة سنباذ ومقاتلة « الاصبهذ » :

وشهدت أوائل الأربعينيات من القرن الثانى للهجرة بداية حركة الفتوح الاسلامية وتعبيد الأرض لتحرك الاسلام فى ظل من الطمأنينة والهدوء حين بعث المنصور ولده وولى عهده « المهدى » الى «الرى» بعد ان انفق الأموال الضخمة على تلك التعبئة التى انتصرت دون قتال •

وكان المنصور على دراية تامة وخبرة كبيرة بالرجال اذ كانت هناك فتنة فى « طبرستان » أذكى لهيبها فارسى مجوسى هو المعروف « بسنباذ » ، ولما رأى المنصور ما تؤذن به هذه الفتنة من شر جسيم قدم على عسكره رجلا اختاره دون غيره من الرجال وهم كثيرون ، ذلك هو « عمر بن العلاء » فكان خير من استعمله ، واستصوب الناس منه هذا الذى فعل حتى قال بشار بن برد :

فقل للخليفــة ان جئتــه نصــيحا ، ولا خير فى المتهم
اذا ايقظتــك حروب العــدا فنبه لهــا عمرا ثم نــم !

وعاهد المسلمون « الأصبهذ » أى حاكم طبرستان ، لكنه لم يرعو عن غيه ولم يرع العهد وكان الظن أن العهد عنده كان مسئولا

فبعث اليه المنصور بعثا احتال عليه ، ودخل المســـلمون الحصن والبلد ، ولاقى « الاصبهذ » بعض ما يستحق جزاء غدره وفتكه بالكثيرين من المسلمين الذين كانوا فى ناحيته .

محاربة العباسين الديلم لنكثهم العهد :

وجرى من الديلم مثل الذى جرى من حاكم طبرستان ، ففى سنة ثلاث وأربعين بعد المائة أوقع هؤلاء القوم بمن فى ناحيتهم من أهل الملة الاسلامية وقتلوا منهم طائفة كبيرة لا لسبب الا ان يكونوا قد كرهوا منهم ان يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، والا أن يكون « الديلم » مدفوعين بقوى خارجية ويمن فى نواحيهم ومن جاورهم من ترك وخزر مشركين ، فلما اتصل خبر ذلك بالمنصور وجه من أهل البصرة والكوفة وواسط والموصل والجزيرة عسكرا كثيفا لمجاهدة هؤلاء الديلم ، ونجح الذين وجههم المنصـــور وأدبوا أهل الشرك والفتنــــة .

★★★

المنصور يقاتل الزندقة ويأمر بقتل ابن المقفع :

ثم التفت المنصــور الى مجـاهدة من اتهموا بالزندقة ، وكان منهم ـ كما قالوا وكما نمى اليه ـ عبد الله بن المقفع الكاتب صاحب كتاب كليلة ودمنة وكان ابن المقفع أحد أربعة رجال وضعوا كما يقال « الكتب فى الزندقة » فقتله سفيان بن معاوية نائب البصرة ، وذهب قوم للقول بأن الذى عجل بنهايته هو سخريته الدائمة من الوالى ، اذ تناقل الناس عن ابن المقفع ما كان يكثر من ترديده لبيتين من الشعر ينال بهما من هذا الوالى أقذع نيل اذ يقول :

لــك أنف يا ابن حــرب انفــت منـــه الأنـــوف
أنت فى القدس تصـــلى وهـــو بالبيت يطـــوف

★★★

ويدخل فى نطاق جهاد الدولة ما ترتب على مضايقة الأتراك الخوارزمية للمسلمين حين أغاروا بقيادة « استراخان الخوارزمى » على ناحية ارمينية ودخلوا مدينة « تفليس » ، واسرفوا فى معاملة الناس بوحشية ولم يفرقوا بين مسلم ومسيحى ذمى من أهل أرمينية ، فغضب المنصور ، فلما علموا بغضبته خافوها وخافوا منه وتنبهوا الى سوء ما صنعوا ، وأدركوا أن نقمة خليفة بنى العباس لابد وأن تنصب عليهم فتهلكهم بما اقترفوا فانفلتوا هاربين ، وتحصن بعضهم بالجبال ، وفر آخرون الى مسالك لا يدريها ويعرفها الا من دربوا على تلك النواحى وعرفوا شعابها .

لذلك أعاد المنصور الكرة فى العام التالى (سنة ثمان وأربعين بعد المائة) فبعث « بحميد بن قحطبة بن شبيب » الطائى لطرد الترك ، ولكنه لم يجد أحدا منهم اذ كانوا قد عادوا الى بلادهم بعد ما كان من عيثهم فى « تفليس » التى تقع فى اقليم « كرجستان » المعروف الآن باسم « جورجيا » وهى قصبته ، وتمتاز بأن بها عيون مياه ساخنة ، وقال ابن حوقل فى وصفها « ولكن من غير نار » .

المنصور يسوق ولاية العهد لولده المهدى :

تم أراد المنصور أن تكون ولاية العهد لابنه المهدى ــ وكان أثيرا عنده ــ فأخذ يمهد لهذا الأمر فى هدوء ، وتمت البيعة دون معارضة ، ثم أراد أن يستوثق من أهل البصرة فبعث اليهم فبايعوا المهدى كما شاء ، وبذلك سارت البيعة شرقا وغربا ، وكان فرح المنصور بذلك عظيما ، وكان يتمثل فى هذا الأمر بقول العبد الصالح ان يهبه الله من لدنه وليا ، يرثه ويرث من آل بنى العباس وان يجعله ربه رضيا . فالى أى مدى استجاب الله عز وجل لهذه الدعوة ... ذلك ما ستفصح عنه الأحداث التى نسوقها فى مكانها المناسب فى هذه الأوراق ..

بناؤه لبغداد والهاشمية وتشييده قصر الخلد لنفسه :

وتم للمنصور وفى زمنه بناء بغداد التى أصبحت عاصمة الخلافة العباسية وواحدة من أعظم مدن العالم الاسلامى منذ انشائها .

وكان المنصور ـ حين أفضت اليه الخلافة ـ قد بنى الهاشمية الى جانب الكوفة ، ثم كره أن يسكنها فخرج يرتاد موضعا لبناء مدينة أخرى بدلا منها حتى اهتدى الى الموضع الذى استقر عليه الرأى بأن يكون به بغداد ، وقال يصف هذا الموضع ويبرر اتخاذه دون غيره من الأماكن التى شاهدها :

« هذا موضع معسكر صالح .

« وهذه دجلة ليس بينها وبين الصين شىء ، ويأتينا فيها كل ما فى البحر ...

« وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية وما حول ذلك .

« وهذا الفرات يجىء فيه كل شىء من الشام والرقة » .

على ان الروايات كثيرة فى هذا الصدد ، وقد يخالف بعضها بعضا ، ولكن الثابت أنه اختار بقعة معينة هى التى عرفت ببغداد التى اختط جامعها « حجاج بن أطاة » . ثم أمر المنصور ألا يدخلها أحد راكبا .

ثم آمر بعدئذ باخراج الأسواق الى ضاحية بناها بالكرخ وكانت تقع بين الصراة ونهر عيسى ، وكان نقله الأسواق راجعا الى خوفه من أن يبيت بها من قد يكون عينا على البلد وجاسوسا على المسلمين ، فيفتح أبوابها ليلا فيدخل منها العدو .

وأدار المنصور حول المدينة سورا ، وعمل لها خندقا للأمن والاطمئنان ، وفعل مثل ذلك بالرصافة التى شرع فى بنائها للمهدى حين وفد عليه وفد من خراسان ، وكانت الرصافة فى الجانب الشرقى من بغداد ، كما عمل عندها ميدانا وبستانا حتى تليق بولى عهده ، ثم بنى « الرافقة » على منوال بغداد سنة خمس وخمسين ومائة .

وزاد المنصور فى عمارة بغداد حتى انه بنى بها قصره المسمى « بقصر الخلد » الذى سكنه أياما قصيرة ، ثم مات « ببئر ميمون » بمكة قبل التروية بيوم سنة خمسين ومائة بعد الهجرة .



اختياره أزياء جديدة :

ويبدو أن المنصـــور لم يكتف بأن تكون له يد فى التعمير بعد ما أنشأ ما أنشأ من مدن وقصور ، بل أراد أن يكون مجددا فى أنماط الحياة اذ ألزم الناس فى سنة ثلاث وخمسين ومائة ان يلبسوا القلانس المفرطة فى الطول والتى تسمى القلنسوة الواحدة منها بالدنية لشبهها بالدن ، وكانت تعمل من كاغد ونحوه على قصب ، ويعمل عليها السواد . وذكر الذهبى أن فى ذلك شبها « بالشربوش » الذى يلبسه الأعاجم ، والذى يستطيل ويستطيل حتى ينتهى بدائرة ضيقة جدا فيصير كالقمع . لكن الناس ـ أو أكثرهم ـ كرهوا لبس هذه « الدنية » وسخروا منها حتى قال الشاعر الظريف « أبو دلامة » صاحب الكثير من الدعابات :

وكنـا نرجى من امـــام زيادة ... فزاد الامام المرتجى فى القلانس
نراها على هام للرجال كأنها ... دنان يهـــود جللت بالبرانس

فلم يطل العهد بها ، وانصرف البغداديون عنها الى ما كانوا عليه من لباس للرأس ولم يبق على هذه القلانس غير طائفة معينة من الصوفية الذين سموا فيما بعد بالدراويش ٠

ومجمل القول فى المنصور انه كان مبدعا ذا أصالة ، ومعمرا يحيل بهمته الصحراء مدنا ، ومجاهدا يحفظ هيبة الاسلام ويبث هذه الهيبة فى نفوس خصومه أنى كانوا ، فشرق اسمه وغرب ، واجتاز السـهول والجبال والبحار ، وسمع به العدو والصديق ، وجاءته سفارات تخطب ود هذه الدولة الشابة ، وبعث اليه بيبين كبير الفرنجة متملك الحكم فى بلاد الفرنجة بالسفارة ٠

لقد كان المنصـور رجل دولة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى وما توحيه فى نفس سامعها فهو ان استعمل الشدة كان الموقف يتطلب الشـدة ، وهو أن اصطنع اللين فان الموقف يتطلب اللين والموادعة والرحمة ، أى أنه يعمل حسبما تمليه الظروف ، واهتم بكل جوانب الأمور فى دولته ، كما كان ينظر فى أمور كل بلد من بلدان خلافته بما فيه صلاحه ، فعهد بولاية مصر ــ بعهد منه ــ الى « يزيد بن حاتم بن قبيصة (وكان يزيد محبا للشعر وأهله ، سخى الكف لمن يقصده ويطرق بابه) ، وكان فى الوقت ذاته اداريا محنكا ٠ وقد ورد عليه فى سنة ست وأربعين ومائة كتاب من الخليفة أبى جعفر يأمره فيه بأن يجعل الدواوين « بقصر الشمع » الذى كان فى الأصل للروم أيام غلبتهم على البلاد وسيطرتهم على مصر ٠

ويقوم هذا القصر ــ أو الحصن ــ على الضفة الشرقية للنيل على مقربة ما يعرف بالكنيسة المعلقة فى ضاحية مصر القديمة وعند مدخل الفسطاط ٠

كان هدف المنصور من هذا الأمر أن تكون الدواوين كلها فى مكان واحد مأمون ، كما فعل مثل ذلك ببغداد التى واكب بناؤها

هذا الأمر الذى امتثل له الوالى يزيد الذى كان شبيه جده المهلب فى حزمه وعزمه ، وقد عرف يزيد هذا بمحاربته للخوارج حين ولى أفريقية سنة ١٥٤ هـ .

★★★

الروم يهتمون بسـلوقية لتكون مركز دفاع ضد الخلافة فتبعث الخلافة بعيسى النقاش لتخريبها :

كانت حكومة أبى جعفر المنصور مدركة لنوايا الروم فيما يتعلق بحدودها اذ نطالع فى الحوليات الاسلامية أنه وجه سنة خمس وأربعين بعد المائة الأولى للهجرة أحد قادة العسكر واسمه « عيسى بن كثير النقاش » لغزو « سلوقية » ولم يكن الغزو للغزو فى حد ذاته بل كان وراءه ما نطالعه فى بعض الحوليات البيزنطية من سيرة الأمبراطور البيزنطى « قسطنطين الخامس » « كوبرونيموس » الذى عرفناه شديد الكراهية للاسلام وحربا عليه وعلى أهله ، وكان متزوجا من ابنة ملك الخزر حتى يوحد القوى المعـادية للخلافة العباسية ، فأراد أن يجعل « سلوقية » مركز مجمع ادارى وحربى رومى ضد العباسيين ، ويكون لسـلوقية فى وضعها الجديد كل الصلاحيات من حيث الدفاع والهجوم ووجود جيش نظامى دائم بها ، وكذلك الحال فى « طوانة » .

من هنا كان لابد للخلافة أن تعاجل العدو قبل أن يعاجلها فتجد نفسها حينذاك أمام أمر واقع فيه المضرة بها ولا تستطيع له دفعا ، وتكون فيه الخسارة الكبرى للاسلام والمسلمين . ولذلك بعث المنصور « بعيسى النقاش » ضد سلوقية .

وفاة ابن اسحق صاحب السـيرة وأبى حنيفة النعمان وابن اكثم الواعظ وغيرهم :

ولقد مات فى هذا العقد من القرن الثانى للهجرة جماعة كان موت كل منهم خسارة للميدان الذى يعمل فيه ، اذ مات « عيسى بن عمر » الذى يقال له شيخ « سيبويه » فى النحو ومحمد ابن اسحق صاحب السيرة النبوية ، وكان ابن اسحق موصوفا بأنه « بحر من بحور العلم » وكان ذكيا فصيحا حافظا ، طلابا للعلم ، اخباريا ، حجة ، ونسابة علامة ، وقد زار مصر سنة ١١٩ هـ .

ومات الفقيه العالم الامام أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى صاحب المذهب المعروف به ، والذى قال الذهبى فيه : « كان أبو حنيفة من أذكياء بنى آدم ، مع الفقه والورع والسخاء » ، كذلك أثنى عليه الشافعى وهو صاحب مذهب أيضا فقال عنه « الناس فى الفقه عيال على أبى حنيفة » . وقد أرادوه للقضاء فأباه . وراوده عليه فلم يزدد الا اصرارا على الرفض ، وناله بسبب اصراره هذا أذى كبير فلم يبال ، وحق له ذلك فالقضاء ثقيل ، أو كما قال البعض « أثقل من ثبير » .

وكان موت أبى حنيفة النعمان (امام أصحاب الرأى) فى رجب سنة خمسين ومئة للهجرة .

ومات كذلك عبد الرحمن بن زياد بن اكثم الافريقى الزاهد الواعظ . المنعوت بشيخ أفريقية وقاضيها ، وقالوا فى ترجمته انه أول من ولد بأفريقية من المسلمين ، ولا ندرى مدى صحة هذا القول ومطابقته للواقع ولربما كان ذلك ـ ان لم يصبح ـ محاولة من القوم فى اضفاء مزيد من التعظيم عليه ، فقد كان لا يبالى فى وعظه بمن أمامه حتى ان المنصور طلبه ليعظه فجابهه هذا الزاهد الواعظ بكلام

غليظ خشن ، فاحتمله المنصور تقديرا منه لصدقه واخلاصه وأنه لا يقول الا الحق ، والا ما يعتقد أنه الحق ، ثم أستأذن من المنصور أن يعود الى البصرة فأذن له فعاد . والمعروف عنه انه ولى قضاء البصرة أكثر من مرة ولم يتهمه أحد فى حكم قضى به .

وممن مات فى العقد السابع من القرن الثانى للهجرة حمزة التجيبى المعروف بالقارىء الكوفى وكان أحد القراء السبعة الذين اشتهروا فى تاريخ هذا الضرب من المعرفة ، وبلغ من اتقانه القراءة أن قـرأ عليـه الكثيرون من الكوفيين ، وكان حمزة هذا يجمع بين القراءة والورع والتقوى فكان سباقا فى كل فن منها ، وان نافسه فى التقوى من ينعته الكثيرون بأمير المؤمنين فى الحديث وأعنى به « سفيان بن مسروق الثورى » ، الذى عف عن القضاء مخافة أن يحمل وزر خطأ يرتكبه فرفضه حين عرضه عليه كل من المنصور وابنه المهدى ، ولما كثر الالحاح عليه اختفى حتى لا يقف موقفا يرمى فيه بالخروج عن سنة استنها لنفسه فى هذا المجال ، وحسبه من علو شأنه ورسوخ قدمه فى العلوم الدينية أن يقال انه صاحب الجامع الكبير والصغير فى الحديث .

وكانت وفاته سنة احدى وستين ومائة .

ومات من الشـعراء نديم الوليد بن يزيد وهو « مطعم بن اياس » وهو وان رمى بما قد يلوث عقيدته الا أن المهدى ولاه جمع الصدقات بالبصرة فظل هناك حتى وافته منيته سنة ١٦٦ هـ .

ومادمنا قد ذكرنا مطيعا فلابد أن نذكر « بشار بن برد » الشاعر الخنذيذ الذى تحفل كتب الأدب بصفحات من فنه وأخبار حياته ، وفيها العجيب .

ومات من القراء « نافع بن عبد الرحمن الليثى » الذى انتفع به أهل المدينة على مدى سبعة عقود تخرج فيها على يديه ثلة كبيرة ممن اسهموا فى هذا الضرب من المعرفة .

ومات من المتصوفة الزاهد ابراهيم بن أدهم وكان من أبناء الملوك بخراسان ، وكان قد خرج ذات يوم للصيد كعادة أمثاله من أبناء هذه الطائفة فسمع هاتفا يهتف به « ان ليس لهذا خلقت ولا به أمرت » فظنه هاجسا حتى اذا أيقن من حقيقته ترك ابهة الملك وتقشف وراح يأكل من كسب يده حتى مات سنة احدى وستين بعد المائة الأولى من الهجرة .

★★★

ان الحديث يطول عمن شاهدتهم هذه الفترة من ذلك القرن يموتون ممن كانوا غرة فى تاريخ الاسلام والمسلمين وخلفوا من بعدهم آثارا شاهدة على ما أدانوا به الفكر والعقيدة والنشاط الذهنى .

★★★

وفاة المنصور قرب مكة وصفة موته والصعاب التى صادفته وتغلبه عليها واستخلاف ولده المهدى :

ولقد عاش المنصور قمة شامخة فى تاريخ الاسلام والمسلمين ، ثم جرى عليه قضاء الله عند بئر ميمون قرب مكة فى ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة وكان قد شخص من بغداد الى مكة ونزل الرصافة ثم أهل منها بالعمرة والحج ، وساق معه الهدى وأشعره وقلده لأيام خلت من ذى القعدة من تلك السنة ، ثم عرض له وجعه الذى توفى فيه ، وقيل انه كان فى مرضه هذا لا يستمرىء طعاما ولا يهضم فى معدته أكلا يدخل جوفه ، فاكثر من السفوف فزادت

عليه علته ، وقيل انه سمع فى نومه من أنشده بيتين مشيرا الى القصر الذى بناه وهو قصر الخلد :

كأنى بهذا القصر قد باد رسمه　　وعرى منه أهله ومنازله
وصار رئيس القوم من بعد عزه　　الى جدث تبنى عليه جنادله

ولقد صادف أبو جعفر فى حياته ـ قبل الخلافة وبعدها ـ صعابا جمة ، كان منها خروج البعض عليه وهجوم البيزنطيين على بعض الدروب والحدود الفاصلة بين الدولتين ، وتحركات الخزر المشبوهة فيما وراء النهر ، ومعارضة الامام مالك له وان قيل انه صفا له بعد ذلك فصنف له كتاب الموطأ أعظم الكتب فى ميدانه .

وقاسى المنصور من هجمات الروم على أرمينية وملطية وما داناهما ، لكنه استطاع أن يصمد فى وجه كل هذه التحديات فخرجت الخلافة وأرضها سالمتين ، واستطاع ان يدعم الحكم فى بيته بمبايعته محمدا المهدى .

وكان المنصور الى جانب ذلك كله ذا عزيمة قوية وايمان شديد بأن راية الاسلام يجب أن تعلو على ما سواها ، وصدق فيه قول القائل :

وان لنا شيخا اذا الحرب شمرت
بديهته للإقدام قبل النوافر

وبويع للمهدى غداة موت المنصور ، وقرىء كتاب قيل أن المنصور كتبه وهو يموت وفيه يوصى الناس بابنه المهدى ويدعوهم لتأكيد بيعتهم له وألا يتفرقوا شيعا وأحزابا ، « وألا يذيق بعضهم بأس بعض » .

تمت البيعة بعد أحد عشر يوما من موت المنصور وباجماع رؤوس الهاشميين والقواد وأهل بغداد وسائر الآفاق ٠

★★★

وخطب المهدى الناس ناعيا اليهم أباه فأوجز وأعجز وأبكى اذ قال :

« ان أمير المؤمنين دعى فأجاب ، وأمر فأطاع ٠

وان الله احتسب أمير المؤمنين ٠

وبالله استعين على خلافة المسلمين » ٠

ثم نزل عن المنبر فأقبل الناس يبايعونه اماما ، له عليهم الطاعة ، وخليفة يسلمونه زمام أمورهم ليديرها كما يقتضيه الشرع واقتضته الملة ولم يختلف عليه اثنان ٠

اصلاحات المهدى بمكة وتأمينه الطرق وارساله الصائفة الى أنقرة :

ولما كانت سنة ستين ومائة عمد المهدى الى توسعة المسجد النبوى الشريف ، وكانت عنايته بمكة أيضا عظيمة منذ لحظة استخلافه ، فقد أمر أن يحمل الثلج اليها ، كما أمر باتخاذ المصانع في طريقها - وهى الآبار والصهاريج للماء ، وأمر بتجديد ما تهدم وطم من البرك وحفر الركايا ، ثم حج ففرق فى الناس أموالا كثيرة ، وقال المؤرخون في ذلك ان « طريق الحجاز من العراق صارت بفضله » من أرفق الطرق وآمنها واطيبها » ، وصدق المؤرخون فيما قالوا ٠

وكان المهدى يدرك ما سيكون عليه موقف البيزنطيين من خلافته ، وأنهم لابد منقضون على بعض بلاده ، التى على الحدود

حتى يزعزعوا مكانته فيضر ذلك بالصالح الاسلامى ،لذلك بادر فأغزى العباس بن محمد صائفة تسع وخمسين ومائة ، وتوغلت هذه الصائفة حتى بلغت « أنقرة » . وضم المهدى للعباس جماعة من قواد أهل خراسان وغيرهم .

ثم لم يكتف المهدى بذلك بل خرج وعسكر « بالبردان » الواقعة على الضفة الشرقية لدجلة وفى الطريق الشمالى الخارج من بغداد ، ليرقب من هناك ما يجد ، فتم للمسلمين فتح احدى مدن الروم ، ثم انصرف المهدى بمن معه سالمين غانمين ، لم يصب أحد منهم بسوء .

★★★

ظهور مرض جديد لم يكن معروفا من قبل فى الجند بالبحر مات الكثيرون منه :

ولقد أثبت المهدى صدق فراسة أبيه فيه لما اختاره وليا للعهد وخليفة من بعده على المسلمين ، فقد وجه نشاطه ـ وقت أن آلت اليه الخلافة ـ الى الهند والى ما فيه ازدياد هيبة الاسلام ، فاهتم بالجهاد اذ أنفذ قوة فى البحر فيها ألف وخمسمائة من مطوعة البصرة الذين خرجوا بأموالهم ، وأربعة آلاف من « الأسواريين » ، ووصل هؤلاء جميعا الى مدينــة يسمونها « بأربد » فأقاموا عليها يومين ، وأخذ بعضهم يحض بعضا بالقرآن ففتحها الله عليهم عنوة ، واستشهد من المسلمين بضعة وعشرون رجلا ، غير أنه أصابهم فى رجوعهم داء بأفواههم وهم بالبحر يقال له « حمام قر » ، مات منه نحو ألف رجل ثم أصــابتهم مشقة من الريح التى أعرقت بعض سفنهم .

★★★

ولما كانت سنة ستين ومائة أيضا قيل انه خيف على الكعبة من كثرة ما عليها من الأكسية ، فأمر المهدى بتجريدها ثم طلاها بالخلوق وكساها كسوة جديدة ، وذكروا أنه لما وصل الى كسوة هشام وجدوها ديباجا ثخينا جدا فأمر بازالته ، ويقال انه استفتى مالكا فى اعادة الكعبة الى ما كانت عليه من بناية ابن الزبير فنهاه مالك أن يفعل ذلك « خشية أن يتخذها الملوك ملعبة » .

★★★

مبايعة المهدى لولده الهادى ثم لهرون :

وبايع المهدى لابنه موسى الهادى فى محرم بعد أن خلع عمه عيسى بن موسى نفسه من الولاية ، وكتب عيسى كتابا أحل فيه من لهم بيعة فى أعناقهم من هذه البيعة ، ثم بايع عيسى بن موسى عن رضا « موسى » بن أمير المؤمنين ، فأنحسم بذلك ما قد يكون هناك من شر وخلاف فى صفوف المسلمين ووحدتهم ، ثم عمد المهدى فى سنة ست وستين لأخذ البيعة لولده الآخر هرون الذى لقب بالرشيد ..

ثم رد المهدى آل زياد بن أبيه الى نسبهم الأصلى ، وأخرجهم من نسب يرقى بهم الى أبى سفيان بن حرب حين استلحق معاوية زيادا ببنى أمية ، وكتب المهدى فى ذلك كتابا جاء فيه : « لقد رأى أمير المؤمنين أن يرد زيادا ومن كان من ولده الى أمه ونسبهم المعروف ، ويلحقهم بأبيهم عبيد وأمهم سمية » .

وكتب بذلك الى قاضى البصرة وصاحب الديوان .

ظهور قوة شارلمان ملك الفرنجة :

وفى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة كانت بداية قوة شارلمان ملك الفرنجة وامبراطور الغرب بعد قليل ، ففى سنة سبع

وخمسين ومائة للهجرة قضى شارلمان على مملكة اللومبارديين فى ايطاليا ، فوثق بذلك الرابطة بينه وبين البابوية والكنيسة الرومانية ، ووضعه ذلك على أول درجة فى محاربة مسلمى الأندلس الذين قام اثنان من صغار حكامهم بالاتفاق معه على مساعدتهما ضد قرطبة ، وجعلا ثمن ذلك تسليم برشلونة أو سرقسطة له ، وكان شارلمان قد تغلب منذ قليل على قبائل السكسون الوثنية فيما وراء الراين ، وهزم زعيمهم « فيدوكنت » ، ومن ثم زحف الملك الفرنجى على اسبانيا مؤملا أن ينتصر على الاسلام كما انتصر على الوثنية وذلك فى ربيع سنة احدى وستين ومائة عابرا جبال « البرنية » من ناحية يسميها العرب « باب شزروا » أو باب « الشزرى » ويسميها الأوربيون بروفنسال ، ثم تابع الزحف الى سرقسطة واثقا من ترحيبها به الا انها أغلقت أبوابها فى وجهه فنازلها فصمدت فاضطر الى الارتداد ، وذلك فى شوال من تلك السنة .

وحينذاك صمم مسلمو الأندلس على محاربة شارلمان ، وقد أدركوا الخطأ اذ استعانوا برجل من غير دينهم على أهلهم .

★★★

وتضطرب الروايات العربية والغربية فى أحداث هذه الفترة فيما يتعلق بجيش الفرنجة ، غير أن الرواية العربية تشير الى أن هناك شخصين هما مطروح وعيشون ولدا سليمان بن يقظان الذى كان فى أسر شارلمان قد هاجما مؤخرة جيش الفرنجة أمام باب شيزرى ، ونجح الاثنان فى تخليص أبيهما من قيده وعادا به الى سرقسطة ، وتقول بعض الروايات انه كان مع عيشون ومطروح قوات أخرى من البشكنس أو الباسك الجبليين الذين كانوا كارهين من شارلمان هجومه على احدى مدنهم ، وهاجم الجميع الجيش الفرنجى .

ويتضح من هذا أن الذين هاجموا الفرنجة ، كانوا مسلمين ومن البشكنس ، ولكن الرواية الغربية تهمل الباسك هؤلاء وتبرز للعيان القوة الاسلامية التى كان عليها ولدا « سليمان بن يقظان » ، وتنسب اليهما النكبة التى ألمت بالفرنجة •

ومن هنا نشأت القصة المعروفة فى الأدب الأوربى الوسيط بأنشودة رولان •

ورولان هذا ـ كما تقول الملحمة ـ كان ابن أخى شارلمان ، وكان مصرا على الاستمرار فى مقاتلة المسلمين رغم ارادة شرلمان وكبار القواد ، وقد أدى اندفاعه هذا الى أن يواجه المسلمين ، ونشب بين الجانبين قتـال عنيف ضار ، وأثخنت « رولان » جراحه فمات متأثرا بها ، وعظمت نكبة المسيحية بقتله وقتل من معه من أشاوس رجالاتها وكماتها •

ولقد سجل هذه الأحداث من المؤرخين المسلمين ابن خلدون وصاحب أخبار مجموعة وابن الأثير والمقرى على اختلاف بينهم فى التفاصـيل •

المهدى يفرق المال فى أبناء المهاجرين والأنصار :

واذا عدنا الى الوراء الى الشرق والى دار الخلافة أبصرنا سنة أربع وستين ومائة أمير المؤمنين المهدى جالسا ذات يوم فى منزله وقد أمر أن يكتب له أبناء المهاجرين والأنصار ، فلما فعلوا له ذلك دعى نقباءهم وفرق ثلاثة آلاف درهم ، فأغنى ـ كما يقولون ـ « كل فقير » وجبر كل كسير ، وفرج عن كل مكروب ، حتى أنشده يومذاك مروان بن حفصة :

ما أنس لا أنس غيثــا طل وابـله
على من راحــة المهـــدى ينســكب

صــدقت يا خـير مقصـــود ومعتمد
ظنى بأضـعاف ما قد كنت احتسب

★★★

حملة هرون عام ١٦٥ على الروم وموادعة « ايريـن » له ودفعهـا الجزية :

والتفت المهدى الى الروم فبعث بعثا ضخما عليه هرون الرشيد فى ســنة خمس وســنين ومائة لغزو بلادهم ، فبـلغ الجيش القسطنطينيــة من ناحيــة البحر ، فبـادرت الامبراطـورة ايرين البيرنطية والتى يلقبها المؤرخون المسلمون « باغسطة امرأة اليون » تارة أو « رنى » تارة أخرى ، أقول بادرت هذه الامبراطورة الى ارسال وفد الى هرون تطلب الصلح والموادعة ، وتعرض أن تدفع جزية قدرها سبعون ألف دينار على قسطين فى ابريل ويونية من كل سنة ، وأن تحمل الى الخلافة ثلاثين ألف رطل من الصوف اللين المسمى بالمرعزى .

ثم بعثت « ايرين » مع العسكر الاسلامى أدلاء يدلونه على الطريق ، وأقامت له الأســـواق فى طريقه حسبما أراد الرشيد للتزود منها ، وكتب بين الجانبين كتاب هدنة أمدها ثلاث سنوات ، وكان لذلك أثره العظيم ، حتى قال الشاعر مهنئا الرشـيد بما تم على يده :

أطفت بقسطنطينية الـــروم مســـندا
اليها القنا ، حتى اكتسى الذل سورهـا

وما رمتهـــا ، حتى أتتـــك ملوكهـــا
بجزيتهـــا ، والحرب تغـلى قدورهـــا

على أن البيزنطيين نقضوا الهدنة قبل الأجل المحدد لانتهائها وذلك فى رمضان سنة ثمان وستين ومائة فوجه الخليفة الغزاة ضدهم ، فغنموا وظفروا وعادوا سالمين قد فاضت أيديهم بالغنائم ، ولم يكن يضير الروم لو أنهم تريثوا ثلاثة أشهر فقط تنتهى بانتهائها الهدنة فلا يوجد حينذاك سبيل للومهم وتكبيدهم حربا خسروها.

ورحب الناس بالرشيد ووزيره حتى قال ابراهيم الموصلى :

الم تر أن الشمس كانت سقيمة ... فلما ولى هرون أشرق نورها
بيمن أمين الله هرون ذى الندى ... فهرون واليها ، ويحيى وزيرها

وبادر الرشيد فقلد يحيى أمر الرعية واذن له أن يحكم بما يرى فيه الصواب ، وأن يستعمل ويعزل من يرى ، كما دفع اليه خاتمه ، وكان ذلك غاية لم يتصورها أحد .

ثم بايع هرون للأمين وكان عمره خمس سنوات وأعطى للناس عطايا جمة ، كما بايع لابنه الآخر عبد الله المأمون .

والتفت الرشيد لحماية الحدود فأمر باقامة الاستحكامات فى طرسوس وحصنها ، وجعل لها خمسة أبواب ، حولها سبعون برجا ، ومن المعروف أن طرسوس هذه تشرف على درب أبواب قيليقية وأفاض ابن حوفل الجغرافى المسلم فى وصفها ، وكان بها « حامية » — كما يقول — لقتال الروم » .

وشاءت رعاية الله للرشيد أن ينجح وزيره الفضل بن يحيى ابن خالد البرمكى فى اصلاح ذات البين بين مولاه وبين « يحيى ابن عبد الله بن حسن » الذى كان قد ظهر فى بلاد الديلم ، وكانت تلك النواحى مستعدة دائما لأن تتبع كل ناعق بالشر ضد المسلمين ، فأغلق الفضل بن يحيى بذلك باب شر كبير على أتباع الملة السمحة ،

وسد ثغرة لو ظلت لاتسعت وأضرت ، وحمد الناس للفضل يده هذه حتى قال فيه الشاعر :

ظفرت ، فلا شلت يد برمكية
رتقت بها الفتق الذى بين هاشم
على حين أعيا الراتقين التئامه
فكفوا وقالوا ليس بالمتلائم

وكان الفضل بن يحيى يعمل على تقوية الخلافه ودفع كل ما يضيق به الرشيد ، فسار الى خراسان ، وفتح الله على يديه بلادا كثيرة منها : « كابل » ، كما غزى بلاد ما وراء النهر ، وأيده الله فقهر ملك الترك واستنزله من معقله الأشب ·

على أن هذا كله لم يبطر الفضل ولا ملأ رأسه غرورا ، فقد أحسن السيرة هناك احسانا أحسه الجميع ، وأكثر بتلك النواحى من بناء الربط والمساجد ·

كذلك اتخذ ببلاد ما وراء النهر جندا من العجم سماهم « العباسية » وبعث منهم عشرين ألفا الى بغداد · ولكن ذلك لم يكتب فى حسناته فقد حل به ما حل من غضب الرشيد بآل برمك فذاق مرارة السجن الذى مات به سنة ١٩٣ ، وكان الرشيد قد فوض كل أمور الخلافة الى يحيى بن خالد بن برمك ، ولا شك أن ذلك كان فى لحظة غلبت فيها العاطفة على العقل ، والسرعة على التريث ، والهوى على الحكمة ، والحماسة المؤقتة على المصلحة الكبرى ، اذ أن البرامكة بهذه النعمة اقتعدوا مع الرشيد ذروة القوة التى مكنتهم من البأس والسلطان ، وأخطأوا هم فى قبول ذلك كله لأنه أثار عليهم حسد الحاسدين وما أكثرهم ، وجلب عليهم حقد الحاقدين من

ذوى قربى الخليفة وغيرهم · ثم امتد هذا الحقد عليهم فأصاب الخليفة ذاته فكانت الخاتمة مفجعة ، وكانوا حديث الدهر شرقا وغربا منذ زمنهم حتى الآن · ذلك انه على الرغم من مكانة يحيى البرمكى عند الرشيد ومن احترام الأخير الشديد له حتى ما كان يدعوه الا بابى فى حضرة الجميع ، وعلى الرغم من ثقة الرشيد به حتى أعطاه خاتمه الا أنه كان ممن حلت به نقمة الرشيد وكان من بين المغضوب عليهم فى نكبة البرامكة فقد سجن بالرقة وأقام فى الأسر حتى وافته منيته سنة مائة وتسعين للهجرة ·

حج الرشـــيد :

ونظر الرشيد الى ما هو فيه من نعمة فأراد شكر الله على ما حباه به فخرج فى سنة تسع وسبعين معتمرا ، فلما قضى عمرته أقام بالمدينة المنورة حتى حج ، ثم مشى من مكة الى منى فعرفات ، وشهد المشاعر والمشاهد كلها حافيا ·

والمرأ يثاب على قدر نيته ، والجزاء على قدر المشقة ·

***

ومات فى سنة تسع وسبعين ومائة وفى شهر ربيع الأول منها أمام دار الهجـــرة وعالم المدينـــة وفقيـــه الأمة : مالك بن أنس صاحب المذهب المعروف باسمه وصـــاحب الموطأ الذى وصـــفه الشافعى ـ وهو من هو فى علمه وفقهه وتقديره الصحيح للناس ـ بأنه « ما فى الأرض كتاب خطته يمين انسان أكثر صوابا منه » ·

هرثمة بن أعين يوطد الأمن فى أفريقية ثم ولاية أبى الجهم بن تميم :

واذا انتقلنا الى الجانب الآخر من الدولة الاسلامية طلع علينا من ثنايا تاريخ هذه الفترة « هرثمة بن أعين » وكان أحد أمراء الرشيد ومن خواص قواده أرسله أميرا سنة ١٧٨ هـ الى أفريقية

لاخماد فتنة شبت بها فأخمدها وأحسن السياسة ونشر الأمن ، وصارت الأمور تجرى هادئة على خير ما تكون ، وأتاح له هذا المناخ ان ينصرف الى التعمير فبنى سور طرابلس الغرب مما يلى البحر ، وشيد القصر الكبير المعروف بالمنستير ، وهاداه ابراهيم بن الأغلب الذى كان على ولاية الزاب من أرض المغرب .

ولما وطد « هرثمة » الأرض للخليفة فى البلاد التى وليها فى الشمال الأفريقى كتب الى الرشيد مستعفيا فأعفاه ، وذلك سنة ١٨١ هـ ، ثم استعمل الرشيد بعده « محمد بن مقاتل العكى » وكان أخاه فى الرضاعة ولكنه لم يسر سيرة سلفه ، فكره ذلك منه عامل تونس « أبو الجهم بن تميم » فسعى حتى تولى مكانه ، فلم يقع ذلك موقع الرضا من نفس والى « الزاب » ابراهيم بن الأغلب ، فزحف على القيروان وكانت له الغلبة ، فطلب اليه الناس والجند أن يتولى الأمر ووافق الرشيد على ذلك وكتب له عهدا بولاية افريقية ، وذلك فى رجب سنة أربع وثمانين ومائة .

العلاقات الودية بين الرشيد وشارلمان :

أما من ناحية العلاقات الخارجية فقد كانت بين الرشيد الخليفة العباسى وشارلمان امبراطور الفرنجة صلات مودة وتفاهم ، وزاد من توثيق هذه العلاقات القائمة بينهما أن كلا منهما كان ينظر بعين الخوف الى كل من الامبراطورية البيزنطية المسيحية والدولة الأموية فى الأندلس ، ومن هنا فان شارلمان ــ كما يبدو فى الحوليات الفرنجية ــ قد استغل هذه العلاقة فى التفرغ لمضايقة الأمويين فى الأندلس وتمثل ذلك فى محاولته فتح « برشلونة » وكان شارلمان يهدف الى تأمين حدود غالة الجنوبية من هجمة يقوم بها المسلمون فيما تاخم هذه النواحى ، فأقام امارة تكون خط دفاع عن الجنوب الفرنسى ، وسميت هذه الولاية المستحدثة باسم « الثغر القوطى » . واتجه شارلمان فى الوقت ذاته الى مهادنة « الباسك » الذين كان

يخشى شرهم هم أيضا ويخاف عدوانهم عليه . وكان يزعج باله على الدوام ما كانوا يقومون به بين آونة وأخرى من أعمال تؤدى الى الاضطراب فصالحهم واطمأن الى جانبهم ومن ثم تفرغ لانفاذ حملة بقيادة ولده لويس دوق اكويتانيا .

والواقع ان شارلمان اختار سنة خمس وثمانين ومائة (= ٨٠١ م) بالذات لعلمه بأن قوات « الحكم » مشغولة بمطاردة الثوار وعلى رأسهم « عبد الله » عم الحكم ، وسار جيش الفرنجة بقيادة دوق أكويتانيا زاحفا على برشلونة التى كان عليها واليها « سعدون الرعينى » وكان رجلا شجاعا استطاع أن يصمد فى وجه القوات المعادية رغم عدم وصول امدادات اليه ، وطال صمود « برشلونة » ولكنها اضطرت الى الاستسلام تحت تزايد ضغط المحاصرين لها من الفرنجة وتحت سيل الامدادات المسيحية التى كانت تفد اليهم ، وكان لاستسلامها رنة فرح فى نفوس الفرنجة الذين أقاموا امارة قطالونية .

★★★

ونعود ونصحب الرشيد مع ولديه الأمين والمأمون فى حجهم سنة ست وثمانين ومائة ، فنراه يغدق على أهل الحرمين من المال ما يفوق كل خيال، ثم بايع الرشيد ولده القاسم بعد ولديه الآخرين. ولقبه بالمؤتمن ، وولاه الجزيرة والثغور والعواصم ، وكان عقده البيعة له فى الكعبة ذاتها ليزداد العهد توكيدا واحتراما ، فقال أحدهم :

خير الأمور مغبة وأحق بالأمر التمام
أمر قضى أحكامه الرحمن فى البلد الحرام



ولما كانت السنة التالية تغير الرشيد على البرامكة لأسباب اختلف الناس فيها وقيل انه تألم بعد حين لما أصابهم ، ولم يكن الظن عند أحد من الناس ان يوقع الرشيد بجعفر البرمكى أبدا . وكاد كلاهما أن يكون أخا للآخر ، وكانا روحا واحدة فى جسدين . حتى قال أبو نواس غير مصدق لما جرى .

فيـــالك سيفا برمكيـــا مهندا أصيب بســـيف هاشمى مهند

ولكن هى الدنيا لا تدوم على حال ، وابن آدم قلب كالدهر .

انتزاء الروم على العباسيين ونقضهم الهدنة التى بين الجانبين :

لكن ما لبث الروم فى تلك السنة ان نقضوا ما كان بينهم وبين الخلافة العباسية من هدنة كانت بين الطرفين ، منذ زمن امبراطورتهم التى يســميها العرب « رنى » ويلقبونهـا باللقب البيزنطى « أغسطة » ويسميها التاريخ وأهلها « ايرين » ، وكانت الهدنة فى أثر جزية يحملها الروم الى العرب فغضب قومها مما كان من امبراطورتهم فعزلوها وتملك الأمر بعدها « نقفورس » الذى بادر بالكتابة الى هرون الرشيد فى لهجة كلها كبرياء وتحد ، وعرض بالامبراطورة ايرين فقال « ان الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت اليك من أموالهـا ما كنت أنت جديرا بحمل أضعافه اليها ، ولكن ذلك من ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابى هذا فاردد ما حصل لك من أموالها ، والا فالسيف بينى وبينك » .

فاشتد الغضب بالرشـــيد ورد عليه ردا نعته فيه « بكلب الروم » وذكر له « ان الجواب ما تراه دون ما تسمعه » .

وقام الرشيد عقب ذلك بحملة فتح فيها « هرقلة » مما حمل نقفور على طلب الهدنة خدعة منه له ، ثم توالت الغزوات والبعوث الاسلامية لتأديب الروم ·

الفداء بين الجانبين الاسلامى والرومى :

وفادى الرشيد من كان ببلاد الروم من أسرى المسلمين حتى قيل انه لم يترك بها أسيرا مسلما ، فكان ذلك من حسناته الكبرى ، اذ كيف يجرى الأسر على المسلم ، وفى ذلك يقول الشاعر :

وفكت بك الأسرى التى شـيدت لهـا
محابس ما فيهـا حميـم يزورهـا
على حين أعيـا المسلمين فكاكهـا
وقالوا سـجون المشركين قبورهـا

مقتل نقفور فوكاس :

ونعود الى بيزنطة فنقول ان المسلمين كانوا على علم بجميع تطورات الأمور داخل هذا البلد ، فيحدثنا أبو المحاسن ابن تغرى بردى عن مقتل « نقفورس » بعد حكم استمر تسع سنوات ، وهو ما يتفق مع الحوليات البيزنطية التى تذكر أن حكمه امتد من سنة اثنتين وثمانى مائة ميلادية حتى سنة احدى عشرة وثمانى مائة ، ثم كان مصرعه أمام البلغار فى سنة ٨١١ حين خرج لقتال ملكهم « كروم » الذى ناصب بيزنطة العداء وجعل البلغار شوكة تقض مضجعها ·

ومما يدل على العداء الأسـود بين القوتين اتخاذ « كروم » البلغارى من جمجمة « نقفورس » كاسا يشرب فيها خمره ، وتلى ذلك هزيمته البيزنطيين وكانوا بقيادة امبراطورهم « ليو الأرمنى »

لما حاصر القسطنطينية ذاتها ، وأخذت أمور بيزنطة تتعقد ويصبح البلغار عقدة ، ثم يعتنق بوريس البلغارى وشعبه المسيحية ويتسمى بميخائيل ، وكان للمسيحية أثرها فى تهدئة الأمور بين البلغار والروم وان ظهرت نزعة جديدة عند « بوريس » هى تقربه من البابوية زمن « نيكولا » الأول الذى وجدها فرصة طيبة ليجعل من أرض البلغار مسرحا لرجال المذهب الرومانى على حساب الروم الأرثوذكس ، ولكن ذلك لا يكون الا لفترة قصيرة • ومن الطريف أن أبا المحاسن سمى هؤلاء البلغار « بالبرحان » ولا ندرى من أين اشتق لهم هذا الاسم •

وقبل ان تغيب شمس القرن الثانى للهجرة بسبع سنوات ودع الدنيا هرون آلرشيد واستجاب لنداء ربه فى طوس ، ودفن بقرية من قراها اسمها « سناباذ » ، فلما بلغ الخبر ابنه الأمين ببغداد خرج فصلى بالناس ونعى اليهم أباه وعزاهم فيه ، فبايعه الخواص من قومه والأمراء ووجوه بنى هاشم ، ثم أقر أخاه المأمون على ما بيده من خراسان والرى ، وأخاه القاسم على الجزيرة والثغور •

غير ان البعض الحوا على الأمين أن يخلع أخويه وأن يسوق الخلافة لابنه « موسى » ونعته « بالناطق بالحق » وكان ذلك سنة ١٩٥ وكان موسى لا يزال طفلا ، وأمر الأمين الناس ألا يتعاملوا بالدراهم والدنانير التى عليها اسم المأمون ، كما أمر أن يدعى له على المنابر وهكذا انقطعت كل صلة بين الأخوين وشبت الحرب بينهما وكانت فى بادىء الأمر حربا كلاميــة اعلامية وآذنت هذه الفجوة بين الأخوين على الانتهاء بمقتل الأمين ، وخطب للمأمون على منابر بغداد سنة ١٩٨ هـ ، فاستعمل على البلاد رجالا من شيعته ، ولكن لم يخل الوقت من منغصـــات لخروج « محمد بن ابراهيم ابن اسماعيل » المعروف بابن طباطبا العلوى الذى مات بالسم ،

وهكذا أشرف القرن الثالث على البزوغ والأمور فى الدولة العباسيه هادئة فى الظاهر ولكنها تغلى فى الخفاء ·

ثم جرت أحداث خطيرة ضد الدولة العباسية وشهد بعضها عصر الرشيد وكان المحركون لها بطبيعة الحال من الجماعات العلوية التى سبق لها أن بذلت جهودا ضخمة وجبارة وسفكت فيها دماء كثيرين من رجالاتها لزحزحة بنى أمية والقضاء عليهم تحت شعار « الرضا من آل محمد » ، ولما سقط الأمويون آل الحكم الى رفاق الأمس العباسيين فى يسر وسهولة ، فعدهم العلويون مغتصبين ، فرد عليهم العباسيون أعنف رد اذ أسرفوا فى اضطهادهم وانزال البلاوى بهم ، حتى أذاقوهم أمر مما ذاقوه من الأمويين أيام دولتهم وحتى قال قائلهم يوم آل الحكم الى بنى العباس وهو يصور بعض الذى لاقوه من عنت وقتل وتعذيب على أيدى العباسيين اذ قال :

تقول أميمة لما رأت ... نشوزى عن المضجع الأنفس

أبى ما عراك ؟ ، فقلت الهموم ... عرون أباك فلا تبلسى

لفقد الأحبة من هاشم ·

وكان من تلك الأحداث التى وصفناها بالخطيرة الثورة التى أضرم نيرانها « الحسن بن على بن على بن الحسن ابن الحسن بن الامام على » · وناصره فريق من آل بيته وهزموا عامل المهدى على المدينة وانضم للثوار عبيد مكة ، وأخرجوا المساجين من سجونهم ، وبايعوا عن بكرة أبيهم الحسن المذكور والتقوا فى ساحة القتال فى يوم عرف بيوم التروية ، وأسفر الصدام عن مقتل الحسين الثائر ، وكانت « وج » بالطائف ساحة هذه الأحداث ، وندد الناس بمن قتلوا وراح الشعراء يثيرون المشاعر ضد من قتلوهم حتى قال أحدهم :

فلأبكين على الحسين بعولة ، وعلى الحسن
وعلى ابن عاتكة الذى واروه ليس له كفن
تركوا بفوج غدوة فى غير منزلة الوطن

وقد فر من هذه المقتلة « ادريس بن عبد الله بن الحسن ، فحمله أنصاره الى المغرب فأسس ولده ـ الذى ولد من حظية له بعد موته ـ دولة الأدارسة فى الشمال الأفريقى ·

ولقد كان مصرع « الحسين بن على بن الحسن بن الحسن » صيحة ثار وتجمع وقال بعضهم فى ذلك شعرا لاثارة الأحاسيس ضد العباسيين وضد الهادى :

تضوع مسكا بطن نعمان اذ مشت
به زينب فى نسوة خفرات
مررن بفوج ثم قمن عشية
ملبين للرحمن معتمرات

ولم تهدأ ثورات الشيعة فما مضت سنوات قلائل على ذلك الحدث وعلى استخلاف الرشيد حتى قام ثائر علوى آخر هو يحيى ابن عبد الله بن الحسن فبعث اليه الرشيد بوزيره الفضل بن يحيى الذى استطاع بدهائه أن يعطيه أمان الرشيد لكن ما كاد هذا المستأمن يستقر فى بغداد حتى زج به الرشيد فى الحبس وظل به حتى مات سنة ١٧٦ هـ ·

ولا نطيل فى هذا المجال ولكن حسبنا الاشارة الى ذلك كرمز للمضايقات التى لاقاها العباسيون ·

تحرك الفرنجة لضرب مسلمي الأندلس :

وفي العقد الأخير من القرن الثاني للهجرة أخذ المسيحيون في أوربة يتحركون لضرب القوة الاسلاميـة في الأندلس ، ففي سـنة اثنتين وتسعين ومائة خرجت حملة فرنجية بقيادة «لويس بن شارلمان» لغزو الثغر الأعلى ومحاصرة « طرطوشة » أكثر من مرة ، ولكنها كانت تجابه بقوة الأمير الأموي « الحكم بن هشام » فكان الفرنجة يرتدون على أعقابهم لم يحققوا مأربا ، ولم يصيبوا سببا ولم يغنموا .

وكان من اللقاءات الدامية بين الجانبين حملة عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام ، فلما سمع لويس بن شارلمان بخبره ارتد ولكنه عاود القتال في السنة التالية فعاد المسلمون مرة أخرى وهم أشد عزما وأكثر رجالا بمن انضم اليهم من قوات الثغرين الأعلى والأوسط ، فأفلحوا في انقاذ « طرطوشة » وأفسدوا على المعتدين خطتهم .

وليس من شك في أن نصارى الشمال الاسباني كانوا يتوقعون نصرا على الاسلام من جراء ما يشاهدونه من الأحداث المؤلمة لكل مسلم في الدولة الاسلامية ، وكان ملك « جليقية » « أذفونش » أو ألفونس الثاني الملقب بالعفيف يتربص الدوائر بالاسلام والمسلمين ويرجو أن يكون بعض هلاكهم على يده ، ولذلك قاست منه أطراف الثغر الأعلى كثيرا من الأهوال ، اذ كان يظهر في نواح من تلك الجهات على غير توقـــع من أحد فيقتل ويسلب وينهب ويحرق ما يصادفه حتى ضج مسلموها بالشكوى الى الحكم بن هشام الذي رأى انه ينبغي تأديب هذا المغامر المتعصب ذي النزعـة الصليبية الحاقدة .

ويورد ابن عذاري مقدار الألم الذي اعترى أمير قرطبة حين أسمعه شاعره « عباس بن ناصح » قصيدة يصور فيها ما يلاقيه

مسلمو الثغر من الأهوال على يد قوات اذفونش (الفونس الثانى) فخرج الحكم بنفسه غازيا أراضى « ألبة » والقلاع ، ثم انطلق الى ما يعرف « بوادى الحجارة » وأنزل بالعدو ما أدبه ورده الى بلاده مهزوما مدحورا وكبده خسائر فادحة ٠

ولم يكتف الحكم بما وصل اليه من ضرب المعتدين وزجرهم زجرا أليما بل لقد أنفذ حملة أخرى بقيادة عمه عبد الله « البلنسى » ، وكانت مناوشات بين الفريقين ولكنها لم تنته حربيــا الى نتيجة حاسمة فآثر كل جانب الهدوء فكان لكل ما أراده وكف الجانبان عن القتال فترة استرد فيها الناس أنفاسهم ٠

استفحال أمر أدريس الحسنى بالمغرب :

أما المغرب فقد استفحل فيه أمر ادريس بن عبد الله الحسنى الذى كثر أنصاره وأتباعه كثرة أصبحت تهدد ابراهيم بن الأغلب ، كما انضم الى جانبه حشد كثيف من بربر البلاد ، وكثرت وفود العرب والبربر عليه حتى انه أسس لهم « ربض القرويين » فى مدينة فاس التى بناها واتخذها عاصمة له وذلك سنة ثلاث وتسعين ومائة هجرية ، ثم نهض بعد أربع سنوات غازيا « أغمات (الواقعة الى جنوب مدينة مراكش الحالية التى أسسها المرابطون بعد ثلاثة قرون ، كما غزا بلاد « المصامدة » وأحس الجميع ان نفوذ الأدارسة موشك أن يهدد النفوذ العباسى فى المغرب مما سيحمل « ابراهيــم ابن الأغلب التميمى » على التماس شــتى الطــرق لتثبيت دعائم حكمه ، ومن هنا نستطيع تفســير ظهور العنصر العربى فى دولة الأدارسة فى السنوات الأخيرة من القرن الثانى للهجرة ٠

ولقد خافه أيضا الحكم بن هشام الذى نراه يميل الى مهادنة نصارى اسبانيا ، وتتضاءل ضرباته لصليبيى الشمال الاسبانى

حتى يصل ما بينهما الى ما يشبه الهدوء وان لم يتم صلح رسمي بين الجانبين ، فقد خاف الحكم من انضمام كثير من البربر لادريس ، وكان بعضهم من أهل الأندلس الذين كان حادث « الربض » سببا في خروجهم الى أفريقية ثم الى مصر فكريت ·

وقد أدت هذه الأحداث المفجعة الى اضطراب أمور الأندلس اضطرابا لم يعد خافيا على أحد لا سيما نصارى جليقية واستوريا ، ورأوها فرصة سانحة لازعاج بال الحكم الربضي حتى وافته منيته في مطلع القرن الثالث الهجري سنة ٢٠٦ هـ ·

وفاة أبي يوسف صاحب أبي حنيفة وسيبويه امام النحاة وأبي نواس وموسى الكاظم ومالك :

ومات في ختام هذا القرن من رجال الفقه القاضي أبو يوسف وكان من أكبر أصحاب أبي حنيفة وقد صحبه سبع عشرة سنة ، وكان أول من لقب بقاضي القضاة وكانوا يسمونه « قاضي قضاة الدنيا » لأنه كان يستنيب عنه قضاة هم أهل دين وفضل في سائر النواحي التي تدين للخلافة ·

ومات من العلماء أمام النحاة عمرو بن عثمان المعروف بسيبويه ، ومعناها « رائحة التفاح » وكان من أعلم الناس بالنحو الذي أخذه عن الخليل بن أحمد ، والذي ناظر الكسائي في مجلس الرشيد فأعجب به الرشيد ، وكانت وفاته سنة ١٨٠ هـ ·

ومات كذلك عبد الله بن مصعب وقد ألزمه الرشيد بولاية المدينة فقبلها بشروط فأجابه اليها فكان من أعدل الولاة ·

وممن مات في أخريات هذا القرن الشاعر أبو نواس ومات قبله بعقد من الزمان الامام الشيعي العظيم « موسى الكاظم » بن جعفر

الصادق بن محمد الباقر الحسينى وكان اماما عابدا قانتا مصليا لا يفتر لسانه عن ذكر الله ، وهو الامام السابع عند جماعة الاثنى عشرية ، وكان موته فى حبس الرشيد الذى خافه وهو الذى لا سلاح له الا الايمان والا حب الناس له واجماعهم على تعظيمه ، وكان جديرا بهذا التعظيم والاكبار ٠

كان يرى الا بيعة فى عنق مكره حتى ولو أقسم فاشتد المنصور فى ايذائه حتى ضربه بالسياط ٠ كما مات بعد قليل الشاعر الكبير الشريف اسماعيل بن محمد بن يزيد المعروف بالسيد الحميرى وكان من الشيعة الامامية ، وعلى الرغم من تعصبه الشديد لبنى هاشم الا أن ذلك لم يمنع المنصور من أن ينزله منزلة التعظيم والاحترام ، غير أن ما يؤخذ عليه شدته على بعض الصفوة المختارة من أصحاب الرسول رضوان الله عليهم أجمعين ٠

هكذا يختم هذا القرن ليفسح الطريق للثالث الهجرى ٠

القرن الثالث

القوى السياسية على المسرح العالمى : العباسيون ، والأمويون فى الأندلس ، الفرنجة فى بيزنطة :

أطل القرن الثالث الهجرى على العالم وفيه أربع قوى سياسية كبرى هى : الخلافة العباسية فى المشرق وما يتبعها من بلاد الشام ومصر والشمال الأفريقى ، والدولة الأموية فى الأندلس ، ثم دولة الفرنجة التى كانت فيما يعرف الآن بفرنسا على وجه الخصوص وبعض أقطار أوربة ، ثم أخيرا الامبراطورية البيزنطية أو دولة الروم كما يسميها العرب ٠

على أنه كانت هناك الى جانب هذه القوى السياسية العظمى قوة لا تقل عنها فى تأثيرها على أناس يعيشون فى الغرب وهى قوة دينية تتمثل فى البابوية التى تستمد قوتها ووجودها وثقلها من سلطانها الروحى أعنى الكنيسة الرومانية الموجودة فى رومة والتى اختصت بشرف راحت تدل به على جميع الكنائس ونعنى بذلك أنها تعتبر ـ على حد قول السيد المسيح ـ لحواريه بطرس أنت الصخرة التى تبنى عليها كنيستى » وهو شرف يعتد به أنصار هذه الكنيسة التى عرفت بالرومانية ٠

كان لابد لهذه القوى جميعها ان يتصل بعضها ببعض ان سلبا أو ايجابا ، وبصورة مباشرة أو غير مباشرة ٠

هذه مقدمة أو سطور لابد منها لنقف على عتبة القرن الثالث الهجرى الذى أهل ليرى الاضطرابات العنيفة داخل امبراطورية

الروم ، والتى تمثلت فى هذه اللحظة فى تمكن أحد القادة الحربيين البيزنطيين من اغتصاب السلطة واحتجانها لنفسه وهو الامبراطور ليو الأرمنى الخامس ، الذى راح يضرب بيد من حديد أنصار عبادة الصور الدينية والتماثيل المقدسة فيما عرف بالأيقونات، ولكنه لاقى معارضة شرسة من جانب العامة التى ورثت جيلا بعد جيل هذه الاتجاهات والتقاليد حتى نزلت منها منزلة العقيدة . وتحول توقيرها واحترامها عند بعض الناس الى عبادة فكان نقدها مساسا بحرمة الدين . وكانت هناك ظروف كثيرة تعمل على اذكاء هذه الفكرة وقد عرضنا لها من قبل ٠

أما دولة الفرنجة فكانت هى القوة المسيحية الكبرى فى الغرب ، وتطورت حتى صارت امبراطورية أقامها شارلمان حين توجه البابا فى كنيسة رومة ليلة ٢٥ ديسمبر عام ٨٠٠ امبراطورا فكان ذلك احياء للامبراطورية التى كانت قد زالت من الوجود منذ قرابة أربعة قرون ، وكان قيام امبراطورية شارلمان حدثا هز العالم المسيحى على وجه الخصوص كما ترك دويا ضخما فى سمع التاريخ الأوربى ، ووجد مكانا فى صفحات التاريخ الاسلامى ٠ كما أن شارلمان اعتبر ـ يومذاك وفيما بعد ـ حاميا للعقيدة النصرانية عند الكثيرين ٠

وأما الأندلس فقد استقرت فيها الدولة الأموية دولة قوية اسلامية وطيدة الأركان ، بل قامت فيها خلافة نافست الخلافة المشرقية ، وكان لها كل مقومات الدولة الصحيحة الكاملة فقام الحكم سنة مائتين للهجرة بارسال حملة الى « جليقية » تأديبا لأهلها وحلفائهم « البشكنس » لعيثهم وافسادهم الكبير فى الأراضى الاسلامية المجاورة لهم ٠

وأما الكنيسة الرومانية فكانت تسير فى خط واحد مع امبراطورية الفرنج ٠

وأما الخلافة العباسية فقد كانت على مشارف تطورات كبيرة ، حيث كان الصراع بين الأمين والمأمون قد انتهى لصالح ثانيهما ، وان كانت له ذيول ·

ثم كانت هناك دولة الأغالبة فى المغرب ، كما تكونت دولة جديدة ربما كانت مخالفة للأغالبة ولبنى العباس وأعنى بها دولة الأدارسة ·

حـركة المطوعة :

هذا هو المسرح العالمى وقت مولد القرن الثالث الهجرى ·

ولقد شهدت سنة احدى ومائتين قيام حركة عرفت بحركة المطوعة التى وهبت نفسها للقضاء على الفساق والشطار والعيارين والمفسدين ، وجعلت مبدأها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى ولو استعملت العنف والشدة ، ومن لم يؤد به القرآن أدبه السلطان· وقاد حركة المطوعـة هذه رجـل يقال له « خالد الدريوش » من خراسان ·

كان هؤلاء الفساق والعيارون وأشباههم أكثر ما يكونون فى بغداد ، وكانوا يأتون الرجل يسألونه ما لا يقرضهم اياه أو يصلهم به فيمتنع فيأخذون جميع ما فى داره ، وربما تعرضوا لأهل بيته من النساء والغلمان ، ويقول المؤرخ الطبرى فى شأنهم « انهم كانوا يجبون المـارة فى الطرق وفى السـفن وعلى الظهر ، ويخفرون البساتين ، ويقطعون الطرق علانية ، ولا أحد يعدو عليهم » ، ولقد أغضب هذا العمل منهم المسلمين الذين كانوا يودون أن لو قام من يغضب للحق فيؤدبهم ويرضى الله والنـاس ، ونـدب رجـل من المطوعة نفسه لأداء هذه المهمة رغم ما فيها من مشقة ، فأما هذا

الرجل فاسمه « سهل بن سلامة » الأنصارى ويكنى بأبى حاتم فدعا الناس الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، فأتاه خلق كثيرون ، واستجاب له كل من يشعر باستفحال شر المفسدين الذين لا يجدون زاجرا يكفهم عما هم فيه ، ويكف عنهم وراء هذا الشر من خطب جلل ٠

المأمون يسوق الخلافة الى على الرضا ويتحلل من بعض شعائر العباسيين :

أما من ناحية الخلافة العباسية فانه لما استقام الأمر للمأمون ساق ولاية العهد من بعده لعلى بن موسى بن جعفر المنتهى نسبه الى الامام على ، وسماه « بعلى الرضا » ، ثم زاد المأمون فأمر جنده بخلع السواد ولبس الثياب الخضر ، فأنكر العباسيون فى بغداد على المأمون ذلك العمل وعظم عليهم أن يكون القائم به هو الخليفة واستنكروه ورأوا فيه ضررا جسيما بهم ، وكرهوا أن تخرج الخلافة بذلك من بيت العباس الى غيرهم ، حتى ان البعض بايع عمه « ابراهيم ابن المهدى » ٠ وكانت فترة عصيبة فى تاريخ الأمة ٠ على أن الأمر انحسم بموت على الرضا وعودة البغاددة بالخلافة للمأمون ، واختفى ابراهيم بن المهدى وانقطع دابر حركة كان من المتوقع أن تؤدى الى فتنة ٠

الموقف فى اليمن وقيام بنى زياد :

فاذا ذهبنا الى اليمن حينذاك نرى دولة جديدة فى هذا القطر عرفت بدولة « بنى زياد » ، ولم تؤسس هذه الدولة بفتح أو دعوة ، بل ان هناك ظروفا عجيبة أدت الى انشائها ، ذلك أن المأمون بلغه اختلال أمر اليمن ، ثم سمع ثناء من ذى الرياستين « الفضل بن سهل » على رجل كان المأمون قد سلمه اياه ذلك هو « محمد ابن ابراهيم بن عبد الله بن زياد بن أبيه » ، فرأى المأمون أن

يستعمله على اليمن عساه يصلح أمورها ، فأرسله بعد أدائه فريضة الحج الى هناك ففتح تهامة ، واستقر باليمن وبنى مدينة زبيد ، ثم أمده المأمون بألفى فارس جعلهم تحت امرته ورهن مشورته . فعظم أمر ابن زياد واستولى على اليمن بأجمعه ، وأقر أموره ، ودامت هذه الدولة فى الوجود أكثر قرنين من الزمان .

تراجع المأمون عن دعواه المؤدية الى اغتصاب الخلافة من بنى العباس :

ونعود الى المأمون وما كان قد استحدثه من المناداة بعلى الرضا وليا للعهد وخليفة للمسلمين مما أدى الى وقوف بنى العباس ضد المأمـون ، فلمـا مات على بن موسى هذا كتب المأمون الى النـاس بالرجوع الى السمع والطاعة ، وان كان يرى أن عليا الرضا خير أهل البيت وأنه ليس فى بنى العباس من يماثله عملا ودينا . غير أن بنى العباس أجابوه اجابة سوء وأغلظوا له فى الجواب .

موت الامام الشافعى :

ومات فى مطلع هذا القرن وفى سنة أربع ومائتين « محمد ابن ادريس » المعروف بالشافعى امام أهل المذهب المعروف باسمه وكان قد ظهر نبوغه مبكرا فقرأ القرآن بمكة وهو ابن سبع سنين ، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر ، وكان الشافعى صاحب رحلة فى طلب الحديث والفقه والعلم فقد رحـل الى الأئمـة أمثال مسلم بن خالد والامام أحمد بن حنبل والكرابيسى ، وألف كتابه العظيم « الأم » ونعته الناس فى بغداد بناصر السنة .

ظواهر عامة وبنو زيادة الله والأدارسة :

ومن أحداث مطلع هذا القرن الثالث تغير الولاة على مصر بكثرة فى فترة قصيرة ، وتوليـة المأمون لزيادة الله بن ابراهيم الأغلبى

أمر أفريقية ، وكان زيادة الله ذا كفايات متعددة ، وكان فى الوقت ذاته وفيا للخلافة العباسية وللمأمون على وجه الخصوص . كما تمكن من القضاء على الفتن التى صادفها فى أول ولايته ٠

ولزيادة الله هذا آثار فى القيروان وتونس وسوسة تتمثل فى المســاجد والقناطر والأربطة والخزانات ، وكان لا يرى أمثل ولا أحق من أسرته بولاية أفريقية ، ولا يرى أسرة أخرى تستطيع أن تطاول الأغالبة فى مكانتهم للامارة ، ولم يكتم ذلك عن الخليفة المأمون ، حتى ان المأمون طلب اليه ذات مرة كما يقولون ان يدعو على منابر الغرب لعبد الله بن طاهر فغضب وأبى وهدد بالوقوف الى جانب الأدارسة ، فلم يعاود المأمون الكرة مرة أخرى ، وسكت ٠

وقد أقام « زيادة الله » رباط « سوسة » المعروف « بقصر الرباط » وهو واقع على خليج قابس وذلك ســـنة ست ومائتين للهجرة ، وهو رباط أدى خدمة كبيرة لحركة الجهاد الاسلامى فى دفع الروم وغيرهم ممن اتخذوا صــقلية مركزا لمضايقة المسلمين والوثوب عليهم وشن غاراتهم على الساحل الأفريقى الشمالى ومدنه ٠

وكانت القوة الاسلامية التى قامت فى المغرب أيضا فى ذلك الوقت هى دولة الأدارســـة التى يرجع نسبها الأعلى الى الامام على ابن أبى طالب ، وكان ظهورهم كما رأينا من قبل فى أفريقية فى أوائل الثلث الأخير من القرن الثانى للهجرة ، وجرت أحداث أفزعت « ادريس بن عبد الله بن الحسن » حملته على الفرار والنجاة بروحه فمضى الى مصر وذهب من صــحرائها الغربية الى فاس وطنجة فى قول ، أو الى القيروان فى قول آخر ، ثم رحب به البربر حين عرفوه وبايعته بعض قبائلهم وكان منها : زناتة ونفزة ومكناسة وغمارة ، « وبايعوه بالأمارة ، فأكثر من الغزو فى غير أهل الاســـلام » ،

وتوالت عليه قبائل المغرب الأقصى مبايعة هى الأخرى فتمكن من اقامة امارة قوية هناك ٠

المأمون والطاهريون :

كان المأمون حفيا بطاهر بن الحسين فجعله نائبا له على العراق وخراسان ، لثقته به واطمئنانه اليه ، لا سيما وهو يرى أن هناك من يكره خلافتــه ، فلما مات طاهر تولى مكانه ابنه « عبد اللـه ابن طاهر » وأضيفت اليه الجزيرة والشام نيابة ٠

وعبد الله هذا هو الذى استنزل « نصر بن شبث » بأمان من الخليفة المأمون ، ثم بعثه اليه فأنزله الخليفة فى مدينة آل جعفر ببغداد ، وكانت له يد طـولى فى قمع المفســدين بمصر وترتيب أحوالها ، وحسنت سيرته حتى ليقال انه فى أواخر أيامه « كسر الملاهى وعمر الرباط بخراسان » ووقف عليه الأوقاف الكثيرة » ، كما افتدى الأسرى المسلمين من يد الترك بنحو ألفى ألف درهم ، ويقال أيضـا انه أوجد بمصر نوعا من البطيخ عرفه المصريون بالعبد لى ، نسبة اليه ، وقال فيه أبو المحاسن وهو من أهل مصر « ان الظن أنه ولده من نوعين » ٠

غزو سردينية وصقلية والرغبة فى مضايقة الروم :

ولقد تمكن المسلمون فى أفريقية من أن يكون أسطولهم الحربى ذا فعالية مجدية حين خرجت سفن « زيادة الله » سنة ست ومائتين وغزت جزيرة « سردينية تحت راية أمير البحر » « محمد بن عبد الله التميمى » ، ثم كانت حركة الجهاد الاسلامى فى فتح جزيرة صقلية بعد ذلك بست سنوات ، وقد أريد بهذا الغزو كف شر الروم الذين اتخذوا من هذه الجزيرة مركزا لعدوانهم المتكرر على السواحل الاسلامية الأفريقية ٠

والواقع أن هذه الغزاة كانت جهادا بكل معنى الكلمة لكثرة من كان بها من الفقهاء والعلماء والمطوعة والمرابطين بقيادة « أسد ابن الفرات » القاضي العالم والفقيه المحارب ٠ وتصور هذه الغزوة ما بلغه زيادة الله من قوة حملت قائد الأسطول البيزنطي في صقلية واسمه « يوفيميوس » ويعرفه المسلمون باسم « فيمى » أقول حملته على أن يستنجد بقوات الأغالبة البحرية وذلك لنزاعه مع الامبراطور ميخائيل ٠

كان أسطول الجهاد الاسلامى مؤلفا من مائة مركب ، ونجح المسلمون فى الاستيلاء على كثير من حصون هذه الجزيرة ، ولكن مات فى هذه الغزوة « أسد بن الفرات » فدفنه أصحابه فى مدينة « كاسترو جيوفانى » Castro Jiowanni التى يسميها العرب « قصر يانة » ، ثم جاءت جماعات من أهل الأندلس وطنت نفسها على الاقامة هناك ، وتم لهم فتح مدينة « بلرم » العاصمة ٠

المهاجرون الأندلسيون فى مصر وتجوالهم وخروجهم الى اقريطش :

وشهد العقد الأول من القرن الثالث الهجرى مقدم الكثيرين من مهاجرى الأندلس فى مراكبهم الى الاسكندرية وعلى رأسهم رجل يقال له « أبو حفص عمر بن عيسى البلوطى » فندبت الخلافة العباسية « عبد الله بن طاهر بن الحسين » الى مصر فدخلها ، وقيل انه تغلب على الأندلسيين ، وقيل انه بعث اليهم يؤذنهم بالحرب ان لم يدخلوا فى الطاعة ٠٠ وكانت مفاوضات بين الجانبين انتهت برحيل هؤلاء الأندلسيين الى بعض أطراف بلاد الروم ، وأمنهم « عبد الله بن طاهر ابن الحسين » فركبوا البحر ونزلوا جزيرة « أقريطش » المعروفة بكريت ، فأقاموا بها واتخذوها وطنا جديدا لهم ظل هكذا أكثر من قرن من الزمان وانتهت دولتهم بهجوم الروم عليهم واستعادتهم كريت من أيديهم ٠

- بنو رستم في المغرب الأقصى :

واستتم لقوم آخرين اقامة دولة لهم عرفت بالرستمية فى المغرب الأقصى على يد « عبد الرحمن بن رستم » الذى بويع من الأباضية بالامامة ، وقوى نفوذه بين القبائل هناك ، حتى ان جماعة من أهل البصرة راحوا يمدونه بالأموال ، وساعدت الظروف عبد الرحمن بن رستم هذا فتمكن من اقامة دولة أصبحت محط رحال العلماء والتجار وأهل الحرف من العراق وبعض بلدان الساحل الأفريقى الشرقى ومن بلاد المغرب والأندلس ، ثم وصلت هذه الدولة الرستمية غاية اتساعها وقوتها زمن عبد الوهاب بن عبد الرحمن .

المأمون والروم :

حين استقر الأمر للمأمون التفت الى مجاهدة الروم ، فقام بنفسه على رأس حملة ضخمة قاصدا بلادهم سنة خمس عشرة ومائتين ، وسلك طريق الموصل حتى انتهى الى « طرسوس » فمر منها الى آسيا الصغرى وفتح حصنا يقال له « حصن قرة » وكان فتحه اياه عنوة فأمر بهدمه .... هذا ما يقوله بعض المؤرخين ، على حين أن البعض الآخر يذكر انه « فتح أنقرة : نصفا بالصلح ونصفا بالسيف وأخربها » ، ثم رجع مارا بدمشق .

ثم بلغه ان امبراطور الروم « توفيل بن ميخائيل » قتل جماعة من مسلمى طرسوس والمصيصة فعاد لمحاربة البزنطيين ، وقيل ان السبب فى خروج المأمون هو أن كتابا وصله من الامبراطور استهله بقوله « الى عبد الله (يعنى المأمون) ملك العرب من توفيل ابن ميخائيل ملك الروم » ، قيل فغضب حتى انه لم يكمل قراءة الكتاب وأمر بالنفير فى الجند والزحف السريع فجاءته رسل الامبراطور تسأله على لسانه أن يقبل منه مائة ألف دينار وارجاع

الأسرى الذين عنده وعددهم سبعة آلاف أسير ، وان « يرد للروم ما افتتحه من مدنهم وحصونهم ، ويكف عنهم الحرب خمس سنوات » ، فلم يجبه المأمون الى ذلك ·

وتعددت مضايقة الخليفة للروم ، فغزا بنفسه « حصن لؤلؤة » وهو فى أقصى الشمال لدرب الأبواب القليقية · ويستفاد من وصف ياقوت وابن بطوطة أنه قلعة حصينة ، أما المدينة ذاتها فصغيرة وفيها مواطن للصيد ، وحولها أرض خصبة ، وامتنع الحصن على المأمون وعجز عن فتحه فبنى عنده حصنين ثم عاد تاركا على الناس جميعا « عجيف بن عنبسة » ·

ولقد تعددت المكاتبات بين توفيل والمأمون ، وحفظت لنا بعض المراجع العربية ثنتين من هذه المراسلات ، ونتبين من محتويات الكتاب الامبراطورى عرضه الصلح والتحالف « ليكون كل واحد وليا للآخر وحزبا ، مع اتصال المرافق والفسح فى المتاجر وفك المستأسر وأمن الطريق » ، ورد عليه المأمون فبين له ما فى كتابه من الخلط بين اللين والشدة ، ثم هدده بالحرب ووعظه ، « فاما الوحدانية والشريعة الحنيفية ، واما فدية توجب الذمة ، واما القتال » ·

حركة الترجمة والتاليف وبدعة خلق القرآن :

وشهدت فترة العقدين الأولين من القرن الثالث للهجرة حركة علمية فى الترجمة والتأليف رعاها المأمون فكانت صفحة كادت أن تكون بيضاء لولا بدعة ابتدعها بالقول بخلق القرآن ، نستغفر الله منها ونعوذ بالله من أصحابها ·

ولقد انكرتها جماعة امتحنوا فاتقى بعضهم القتل بمجاراة الخليفة ، فقالوها بلسانهم كرها ولكن قلوبهم كانت مطمئنة مليئة

بالايمان ، غير اثنين رفضا التقية هما أحمد بن حنبل ومحمد ابن نوح الجند يسابورى ، فبعث بهما الى المأمون كطلبه ـ وهو فى طرسوس ، فدعا ابن حنبل ربه الا يجمع بينهما وبين المأمون والا يرياه ولا يراهما ، فقال ابن كثير فى ذلك « واستجاب الله سبحانه دعاء عبده ووليه الامام أحمد بن حنبل فقد مات المأمون قبل وصولهما اليه وجاءهما الخبر بموته وهما فى الطريق اليه » .

لكن الرواية لم تتم فصولها بموت المأمون ، بل كان للبدعة الضالة والمحنة ذيل فى خلافة المعتصم بالله بن الواثق بالله .

ولقد صحب قيام بنى العباس حركة ثقافية ضخمة كانت ذات شقين ، أحدهما هو اقبال العجم على الاستزادة من تعلم العربية واتخاذها لسانا ووضعهم الكتب بها فى التاريخ والفقه والحديث والتفسير وعلوم القرآن حتى قال ابن خلدون « العجيب ان حملة العلم فى هذه الملة من الأعاجم » .

أما الشق الثانى فهو ظهور حركة الترجمة الى العربية واثراء المكتبة العربية بالتراث الفكرى الأجنبى من علوم اليونان والرومان والسريان والهند وغيرهم من الأمم القديمة ذات الحضارة والثقافة .

على أنه من احقاق الحق أن نقول ان حركة الترجمة ظهرت أيام الخليفة أبى جعفر المنصور حين أوجد ديوان ترجمة ، ثم نهج نهجه الرشيد الذى استقدم « يوحنا بن ماسويه » من مدرسة « جند يسابور » وقلده ـ كما يقولون ـ أمر ترجمة الكتب الطبية القديمة ، وكان يوحنا أمينا فى الترجمة « ووضع للرشيد كتبة مهرة يكتبون بين يديه » . كذلك برز فى ميدان الترجمة « جبريل ابن بختيشوع كبير أطباء هرون » .

ولقد نافس البرامكة الرشيد فأسهموا فى هذا الميدان وركضت خيولهم فى هذا المجال وتجلى هذا فيما بذلوه من المال من أجل نقل بعض المؤلفات اليونانية والفارسية والهندية والسريانية ٠

ثم أنشأ المأمون دار الحكمة ، وجلب لها الكتب من شتى الأصقاع وكان لا يمنع مالا وان كثر ، ولا يضن به فى سبيل الحصول على المؤلفات القيمة ، بل لقد جاء بكثير منها من بيزنطة حتى انه بعد انتصاره ذات مرة على الامبراطور البيزنطى طلب منه أن يزوده بمجموعة من الكتب التى فى خزائن مكتبات بلاده ٠

وألحق المأمون بخزانة دار الحكمة مرصدا فلكيا للعلوم ٠

العودة الى بدعة خلق القرآن زمن المعتصم :

وبعد وفاة المأمون فى سنة ثمانى عشرة ومائتين تولى الخلافة أبو اسحق محمد بن هرون ولقب بالمعتصم بالله وهو أول خليفة أضيف لفظ الجلالة الى اسمه ، ولقد كاد ان ينافس المعتصم واحد من أقرب الناس اليه وهو العباس ابن أخيه المأمون ، فشغب الجند ونادوا بالعباس الذى جاء بعد قليل الى عمه وبايعه علانية ، ثم خرج الى الجند وقال لهم قالته التي رددتها العامة وحفظها التاريخ وأكدها المعتصم وأثبتتها الأيام ، اذ قال :

« ما هذا الحب البارد ٠٠٠ لقد بايعت عمى وسلمت الخلافة اليه » ٠

فسكت الجند وسلم الناس من المنازعة وكفى الله المسلمين شر الفتنة ٠ واستقر الأمر لأبى اسحق الذى استهل حكمه سنة تسع عشرة ومائتين بامتحان الامام أحمد بن حنبل بالبدعة التى ابتدعها المأمون عن خلق القرآن فلم يتراجع الامام أحمد عما يعتقده

كمؤمن صحيح العقيدة غير مغموزها ، وكمسلم ثابت الايمان ، وكان ذلك مما شوه صورة المعتصم فى التاريخ رغم فتوحاته العظيمة وعمارته .

★★★

التمرد فى الأندلس زمن عبد الرحمن بن الحكم :

واذا انتقلنا الى الأندلس ـ شق العالم الاسلامى الموجود بالغرب ـ وجدنا ان طائفة كبيرة من أهل طليطلة عصت على عبد الرحمن بن الحكم بن هشام الأموى ، ووجدت هذه الطائفة جماعات من الكارهين للاسلام تدفعها من الخلف لتزيد الفتنة اشتعالا والنار ضراما ، واشتد ساعد هذه الفتنة وتحصن رجالها حيث هم ، وخرج اليهم العسكر أكثر من مرة فلم يستطيعوا استنزالهم بل زادعوا فى لجاجهم حين خرج بعضهم الى قلعة « رباح » وبها عسكر الأمير عبد الرحمن الذى رأى حينذاك أن يضربهم فى عنف ، فندب لهم أخاه الوليد بن الحكم فحاصرهم طويلا حتى عدموا القوت وانقطع عنهم المدد من الخارج ففت ذلك فى عضدهم ودب الضعف فى جموعهم ففتحها الوليد عنوة فى رجب سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، فلما دخلها أمر بترميم القصر هناك ، وترتيب الأمور حتى استقامت واستقرت على خير ما يكون الاستقرار ويرتجى .

حركة الزط :

ويلاحظ أن الخلافة العباسية كانت حريصة كل الحرص على أمن الناس وطمأنينتهم فى أحوالهم المعيشية ، وعقيدتهم الدينية الصحيحة فلم تكن تتوانى عن الضرب بشدة على أيدى من تحدثهم أنفسهم بازعاج الأمة بأى صورة من الصور أو اثارة فتنة يستغلها أصحاب المطامع والأهواء ، ولكن حدث من جماعة عرفت « بالزط »

ان راحت تعيث فسادا فى البطائح التى بين البصرة وواسط ، وتقطع الطرق ، وتنهب المارة ، وتحمل الغلات من البيادر ، وتبث الخوف فى النفوس ، وكان « الزط » كثرة بلغوا سبعة وعشرين ألف نفس ما بين رجل وامرأة وصبى ، حتى لقد أخرج لهم المعتصم بالله خمسة آلاف جندى يقودهم « عجيف بن عنبسة » فضرب معسكره قرب واسط ، و « سد فى وجوههم مخارج الأنهار ، فأغلقت السبل أمامهم » وظل يحاربهم ـ وهم يقاومونه فى عنف وضراوة ـ تسعة أشهر ، ضايقهم فيها أشد المضايقة وازعجهم غاية الازعاج حتى استنزلهم فنزلوا ولكن بالأمان فأركبهم السفن وقصد بهم بغداد ومروا أمام الخليفة المعتصم بالله وهو فى حراقته بدجلة ومعهم أبواق الحرب ، ولكنهم كانوا منكسى الرؤوس ، ثم أمر فسير بهم الى « عين زربة » وأسكنهم « خانقين » حيث اغار عليهم الروم ففتكوا بعدد منهم غير قليل ، فسلم الاسلام منهم ومن شرهم وسلمت الرعية وحمد الناس الله على ما انتهى اليه الأمر وأمنت الخلافة .

★★★

حركة بابك الخرمى :

كانت هيبة الخلافة تتمثل فى احترام الناس لشعائر الدين وهو أمر لم يقع موقع الرضى عند من انطوت نفوسهم على الكراهية للاسلام والذين حاولوا هدمه بآرائهم الفاسدة واتجاهاتهم الفاسقة ، وليس أخطر على الدين من الرأى الفاسد والمذهب الوضيع والنية الباطلة الدنسة ، فظهرت حركة « بابك الخرمى » مع مطلع القرن الثالث الهجرى فى مدينة « البذ » بأذربيجان ، اذ راح بابك يدعو الناس الى الانصراف عن الدين الحنيف ويدعوهم الى آراء ابتدعها كلها كفر وضلال ، وكلها تحطيم للعقيدة والأخلاق ، ولا تستقيم مع نواميس الحياة الفاضلة .

وحورب « بابك » فلم تفل شوكته ، بل لقد تمادى فى غيه واستفحل أمره مدة قاربت ربع قرن من الزمان ، ودخلت فى زمرته طوائف من كفار تلك الجهات ودعارها وأوشا بها ، يدعون بدعوته الفاسقة ، وينهجون نهجه اللئيم ، ويكيدون للاسلام والمسلمين ، وراحوا يدمرون ما استطاعوا تدميره من الحصون الاســلامية ، وخافهم بعض أصحاب القلاع وانطلقوا يفكرون فى دفع شرورهم ، فراحوا يفتحون أبواب قلاعهم لبابك لا حبا فيه ولكن تجنبا لشره وخطره ، حتى لقد قيل « ان سراياه كانت تمر بالناحية من النواحى وليس معها من المئونة شيء ، فتستضاف ويبعث المضيف معها الدليل يرافقها حتى تغادر آرضه وناحيته وتمضى الى ما سواها » .

فلما كانت خلافة المعتصم بالله رآى أن يضرب الزنادقة جميعا على شتى ألوانهم من بابكية ومازيارية ومزدكية ، وبعث عسكر ضد بابك الذى بغى وطغى ، وتجبر وتكبر ، وعاث فأفسد وأخاف المسلمين ومن يستظل بظل الاسلام ، « وأراد أن يقيم ملة المجوس » كما يقول البعض .

واذ ذاك ندب اليه المعتصم بالله قائده « الأفشين » حيدر ابن كاوس » مع عسكر الخلافة فجاؤوه وهو يشرب الخمر ، ولكنه نجح فى الافلات برفقة جماعة كانت معه على اثمه ، وعاود الزنيم اثارة الفتنة ومضايقة المسلمين وبلدان الخلافة فى شراسة ، وطالت الحرب وبابك يشعل نيرانها فى البلاد المختلفة ، والمعتصم ملح فى طلبه حتى هزمه وجاؤوه به وهو فى عاصمته « سامراء » ، وقد البسوه قباء من ديباج وقلنسوة مدورة وأركبوه فيلا وطافوا به سخرية وشماتة ، ثم قتل جزاء جرمه ، واستنقذت الخلافة منه سبعة آلاف وستمائة نفس من المسلمات وأولادهن ، فكان لذلك وقعه الطيب فى البلاد وفى نفوس الخلق وعظمت هيبة الاســلام وصينت حرمته ، ونكس لواء الكفر والزندقة وخمدت فتنة أراد بها

دعاة السوء القضاء على الحنيفية ، ولكن الله حافظ دينه ، ولما قتل هو ومازيار المضل قال الشاعر :

ولقد شـــفى الأحشــاء من برحائهــا
أن صـــــار بابك جـــار مازيــــار

كادوا النبوة والهــــدى فتقطعـت
أعنــــاقهم فى ذلـــك المضمـــــار

★★★

حركة الأعمار :

ولندع الزندقة جانبــا لنشاهد عظمة التعمير والبناء فنرى القرن الثالث الهجرى يفخر ببناء مدينة « سامراء » وان كان سبب بنائها يدل على ظهور قوى كريهة كان يجب على الخلافة أن لا تغفل عنهــا ذلك أن المعتصم بالله استكثر من الأتراك جندا وحشــما وخدما ، حتى بلغ عددهم ثمانية ألف رجل ، وقد وصــفهم أحــد المؤرخين بأنهم كانوا « عجما جفاة ، يركبون الدواب فيتراكضون فى طرق بغداد وشوارعها ، فيصدمون الرجل والمرأة والصبى ، وتولعوا بحرم الناس » ، وتأذت بهم العامة ، فأخذت تترصدهم فى الطرقات وتقتل من تقدر على مسكه منهم ، فرآى الخليفة ان يفصل بين تركه هؤلاء ورعيته ، وينزل غلمانه مكانا نائيا عن بغداد ، فبعث أحد رجالاته فاشترى له أرضا وبستانا وعدة مواضع فى ناحية بعيدة هى « سامرا » التى نزلها هو وغلمانه ، وبذل الأموال الطائلة فى بنائها ، واختط الأسواق ، وشيد بها قصره المسمى « بالجوسق » ثم مسجده الكبير ، وارتفعت بها العمارة كأحسن ما تكون العمارة حتى آثرها الخلفاء على بغداد مدة أربت على نصف قرن ، وكان هذا الايثار دليلا بينا وبرهانا جليا على أن « سامراء » جازت المنافسة وبلغت الذروة ٠

كان الذى دعى المعتصم للاستكثار من الترك هو رغبته فى موازنة النفوذ الفارسى الذى كان قد اشتد فى الدولة العباسية اذ كانوا حجر الأساس فى قيام خلافته .

★★★

البحرية الاسلامية وحراسة الشواطىء الجنوبية فى البحر الأبيض المتوسط :

وشهدت هذه السنوات من تاريخ الاسلام ارتفاع رايته فى حوض البحر الأبيض المتوسـط حين ولى زيادة الله بن الأغلب « واليا من قبله على صقلية اسمه أبو الأغلب » فظفر بأسطول للروم فغنمه ، وبعث بعسكر فى البحر الى جزيرة « قوصرة » فأصاب فيها حراقة للروم ، وغزا مدينة « مسينا » ، وشغل البيزنطيون بهذا الخطر الجديد فكان أبو الأغلب يؤرق بالهم ، ويهزم جندهم ، ويجرعهم غصة السقوط ، ويستولى على كثير من مدنهم فى صقلية التى جعلها الأغالبة دار جهاد يســتكثرون بها كل حين من الرجال والجند والسلاح والمئونة ما يكون عونا لهم فى الحرب ، كما كان يفد اليها المطوعة فى سبيل الله .

★★★

أبو عقال الأغلبى ومضايقته للعدو :

وتولى أمر المغرب سنة ثلاث وعشرين ومائتين « أبو عقال الأغلبى » الذى امتازت فترة حكمه ـ وان لم تتجاوز ثلاث سنوات ـ بازالته المظالم ، وتأمينه الناس على أنفسهم وأموالهم ومعايشهم ، وزاد فى أرزاق الناس وعماله حتى لا تمتد أعينهم وأيديهم الى ما فى يد الرعية ، وحرم النبيذ والخمور فى القيروان .

واستامنته عدة حصون فى صقلية منها حصن « البلوط » وحصن « مرو » وحصن « أبلاطنو » الذى قد يقال له حصن الفرات .

ثم انه بعث اسطولا الى « قلورية » فى جنوب ايطاليا التى تعرف أيضا باسم « كلابريا » فوطئت أقدام جنوده أرضها وتردد فى أرجائها صهيل خيوله ، واصطدمت هذه القوة بالعدو فهزمته وحازت نصرا عظيما على الروم .

وقد جرى كل ذلك فيما لا يتجاوز العامين فقط .



وقعة عمورية :

ولما كان عام ثلاثة وعشرين ومائتين بدأ الامبراطور « تيوفيل ابن ميخائيل » البيزنطى بالعدوان على الأراضى الاسلامية كما يشهد بذلك مؤرخوه أنفسهم ، اذ خرج فى مائة ألف وأغار على « زبطرة » ، من ثغور الخلافة وأقربها الى بلاد الروم ، ولها حصن عظيم ، ونجح الامبراطور فى الاستيلاء على قلعتها وأحرقها وقتل من كان بها من الرجال ، وسبى الذرارى والنساء ، حتى قيل ان عدد سباياه كان أكثر من ألف امرأة مسلمة ، فلا عجب اذا قوبل فى بيزنطة مقابلة الغزاة الفاتحين ، وقوبل هذا النبأ عند المسلمين بالغم والحزن .

ثم نقل الى المعتصم بالله أن امرأة من السبى صاحت « وامعتصماه » فهزته النخوة العربية والحمية الاسلامية الى الخروج لتأديب الروم ، وكان لقاء بين الجانبين عند « عمورية » أحصن المدن الرومية حتى ليسمونها « عين النصرانية » ويقولون عنها انها « أشرف من القسطنطينية » كما أنها البلد الذى خرجت منه الأسرة البيزنطية الحاكمة ، فضرب المسلمون أسوارها بالمجانيق الكبار ،

وهرب الامبراطور ، ودخل المسلمون « عمورية » وافتكوا الأسرى من كل وجه ومن كل طبقة ، وخاطب الشاعر الخليفة بقوله :

خليفة الله جازى الله سـعيـك عن
جـــرثومة الدين والاســـــلام والحسب
فتح الفتــوح ، تعــالى أن يحيط به
نظم من الشـــعر أو نثر من الخطب
أبقى بنى الأصفر المراض كاسمهمو
صفر الوجـوه وجلى أوجـه العـرب

★★★

ظهور النرمنديين وعدوانهم على الأندلس وسفارة يحيى الغزال :

ولندع الشرق البيزنطى لنلقى نظرة على الغرب الاسبانى فاذا بأهل لشبونة يفتحون أعينهم صباح يوم من ربيـع سـنة ثلاثين ومائتين للهجرة فيبصرون ثمانين مركبا مجهزة بالسلاح والرجال تصل الى مياههم ، وراعهم من عليها من رجال طوال القامة ، صفر الشعور ، وهم من أهل الشمال من اسكندناوة وما قاربها من بلاد الدانيماركيين كان هؤلاء هم النرمان وكانوا قوما ألفوا ركوب البحر ابتغاء السلب والغارة ، وكانوا قد قدموا الى بعض نواحى فرنسا غزاة « فأصابوا خبزا وزادا كثيرين » ، فراحوا يعاودون الهجوم على تلك النواحى وما جاورها ، وأغراهم دفؤ المناخ بالنسبة الى مناخ بلادهم على المزيد من هذه الهجمات ، وعلموا بما فى الأندلس من نعم وخيرات افتقدوها فى بلادهم فلم يجدوهـا فتحلبت أفواههم شوقا اليها ، فكانت غاراتهم وكان بعض هذه الغارات على بلاد يسكنها النصارى • وبعد أن ظهر هؤلاء الغزاة فى مياه لشبونة سالبين ناهبين غادروها الى قادس فشذونة حتى بلغوا « أشبيلية »

فصبحوها على حين غفلة وعاثوا فيها فسادا ، وأعملوا القتل فيمن صادفوه من أهلها ووقف المسلمون تجاههم يريدون صدهم فلم يكن التوفيق من نصيبهم ، فبادرت الحكومة المركزية الى ارسال قوات من قرطبة وغيرها ، وانضم اليها الكثيرون ، وكانت القوات الاسلامية تحت راية «نصر الخصى» و «محمد بن رستم » ، فاصطدم الجانبان : المسلم والوثنى النرمندى الشمالى ، وكان قتال عنيف انتصر فيه المسلمون أخيرا ، ودارت الدائرة على المغير المعتدى ، الذى أصيب فى كثير من رجاله ومراكبه الحربية فارتد خاسرا وان لم تسلم بعض النواحى من عيثه فسادا فيها حين ارتداده ، ثم غادر الأندلس بعد أن ذاق مرارة الهزيمة ·

واذا كان المسلمون قد فوجئوا بهذه الغزوة النرمندية وخسروا فيها من غير شك خسارة ليست بالقليلة فى الرجال فقد وجدت الحكومة المركزية نفسها مضطرة الى اتخاذ التخطيطات اللازمة لتحصين ما حول أشبيلية ، وصرفت جهدها ـ أو بعض جهدها ـ الى بناء أسطول سوف يزداد كل يوم عددا وعدة ورجالا وسفنا ذات أحجام مختلفة ، وكان الأمير عبد الرحمن بن الحكم بهذا الأسطول عظيما ·

ثم كانت بين الجانبين سفارات للهدنة نعرف منها سفارة يحيى البكرى المعروف بالغزال الذى ضرب بسهم وافر فى كثير من الفنون لا سيما الشعر والفلك ، وكان ذا رأى صائب فى أمور السياسة مما حمل عبد الرحمن بن الحكم على أن يجعله سفيره الى النرمنديين فصحبهم الى بلدهم حين عودتهم ، وحمله عبد الرحمن ابن الحكم بالهدايا الى كبارهم ·

وأدى الغزال السفارة على أكمل وجه ، وأعجب به كبارهم حتى لقد وقع موقعا طيبا من « ملكتهم » كما تقول الأخبار ·

استنجاد دى تولوز بالمسلمين ضد شارل الأصلع :

ونعود الى الأندلس متابعين أحداثها وهي خطيرة ذات دلالات معينة ، فنرى أحد أمراء نصاراها واسمه « جين دى تولوز » يجيء الى بلاط الأمير عبد الرحمن ينشد العون منه ضد « شارل الأصلع » ملك الفرنجة ، فكتب عبد الرحمن الى عماله فى « طرطوشة » و « سرقسطة » لمساعدته ، فلما علم شارل الأصلع بالخبر خاف وأخذ يراسل الأمير الأندلسى يرجو مصافاته ومهادنته ، فجنح عبد الرحمن الى السلم اذ رأى جنوح ملك الفرنجة اليه ، وهكذا بلغت اسبانيا الاسلامية مكانة أصبحت معها حجرا فى مركز الثقل والقوى فى الشئون الأوربية .

★★★

اضطرابات فى الغرب الاسلامى وأحداثه :

واشتد فى العقد الرابع من هذا القرن نشاط الأسطول الأندلسى الاسلامى وحركات المجاهدين فى البحر الذين تعرضت سفنهم لمضايقات عدة من أهل جزيرتين فشكوا الى عبد الرحمن فارسل قوة كبيرة انضم اليها كثير من المرابطين والمطوعة وأصاب العسكر الاسلامى كثيرا من الغنائم فطلب أهل الجزيرتين الأمان فأجيبوا الى ما طلبوه .

أما فى القسم الموالى لبنى العباس من أرض المغرب فقد دب النزاع بين الأخوين : أبى العباس محمد وأبى جعفر ثم تصالحا واتفقا على ألا يغدر أحدهما بالآخر ، وان كان كل منهما يترقب الفرصة للوثوب على أخيه ، ثم كانت الغلبة لمحمد فمضى أخوه وأهله وولده الى مصر للاقامة بها .

ولقد حسنت سيرة محمد اذ خلا له وجه البلاد من منافس له فاستقضى فى القيروان أبا سعيد عبد السلام ابن سحنون الفقيه المالكى ٠

وتمكن الأمير محمد بن الأغلب خـلال ولايته هذه من القضاء على فتنة « سالم بن غليون » الذى زحف على القيروان ٠

ثم خرج « عمرو بن سليم التجيبى » المعروف « بالقويقع » على محمد الأغلب ودخل تونس على غفلة ممن بها وتحصن فيهـا فأصبح فى منعة ، وأجهد جيش ابن الأغلب مدة عامين ، ثم كان النصر أخيرا فى هذا الصراع للأمير الأغلبى ، وفتحت له تونس أبوابها فدخلها منصورا ، ولقى « القويقع » جزاء فتنته ، وهدأت الأحوال ، فانصرف ابن الأغامب لتنظيم الأمور بتونس ، وكانت له أياد بيضاء فى رعاية الفقهاء والعلماء وأهل الحديث ٠

★★★

النقمة على ابن الزيات الوزير والعالم :

ولما كان عام ثلاثة وثلاثين ومائتين أظهر المتوكل على الله فى الشرق غضبه على الأديب الشاعر « محمد بن عبد الملك الزيات » فقد غضب عليه منذ أن رده عن باب أخيه الواثق يوم جاءه يسأله الرضا والعفو عنه فلم يأذن له ابن الزيات بالدخول عليه وكان وزيره ، ورده ردا غـير كريم لا يليق ولا يجوز لمن كان فى مثل مكانته وقرابته من الخليفة ٠ ولم يكتف بكراهيته له بل دس عليه عند الواثق بما أوغر صدره حتى أهانه ، وكان ابن الزيات عالما باللغة والنحو عمل فى الدواوين ، فلما ولى المعتصم بالله الخلافة قربه واستوزره وظل فى الوزارة لابنه الواثق ثم للمتوكل ولكن لأربعين يوما فقط ٠



الفداء بين المسلمين والروم :

وفى ســـنة احدى وثلاثين ومائتين تم الفداء بين المسلمين والروم ، حيث بعث الامبراطور « ميخائيل بن توفيل » الى الواثق يسأله أن يفادى بعض من فى يده من أسرى المسلمين ، واجتمع ممثلون لكلا الطرفين على نهر يقال له « اللامس » على « سلوقية » قرب طرسوس • وحدث فى بداية الاجتماع اختلاف اذ قال الروم لا نأخذ فى الفداء امرأة عجوزا ولا شيخا كبيرا ولا صبيا ، وطال الجدل وانتهوا بأن قبلوا عن كل نفس نفسا • وكان هذا فداء عجيبا •

كان سفير المسلمين لدى الروم « ابن قحطبة » الذى أتى ملك الروم فعرف أن أسرى المسلمين ثلاثة آلاف رجل وخمسمئة امرأة ، فأرســل الواثق من جهته « أحمد بن سعيد » على البريد ليتم الفداء على يده ، ووجه معه من يمتحن الأسرى من المسلمين فمن قال بأن القرآن ـ والعياذ بالله مخلوق ـ فودى ، ومن أنكره تركوه فى أيدى الروم ، واجتمع المسلمون ـ كما يقول المؤرخون ـ ومعهم من العلوج قائدان من قواد الروم تسميهما المراجع الاســـلامية « انقاس » و « مبسوس » وكان الاجتماع فى « اللامس » •

وفودى المسلمون فكانوا أربعة آلاف وستمائة امرأة ، ومن الذميين الذين بصحبتهم خمسمائة ، واستفرغ المسلمون جميع من كانوا فى يد الروم من المسلمين ، واســتغرقت عمليــة الفــداء أربعة أيـام •

هكذا فدى المسلمون المسلمين ومواطنيهم من أهل الذمة •

فهل ثم سماحة أعظم من هذه السماحة الاسلامية ؟؟ !!

وكان هذا ثانى فداء منذ سبع وثلاثين سنة ، وسيتلوه آخر ولكن سنة ست وأربعين .

★★★

أوليات خلافة المتوكل على الله ورفع المحنة :

مات الواثق سنة ثنتين وثلاثين ومائتين فخلفه المتوكل على الله « جعفر بن محمد بن محمد بن هرون » على غير توقع منه ، فبادر من لحظته فأمر للأتراك برزق أربعة أشهر ، وللجند والهاشميين برزق ثمانية أشهر ، وللمغاربة برزق ثلاثة أشهر .

كما أنه أظهر الميل للسنة ونصرة أهلها ورفع المحنة : أعنى محنة القول بخلق القرآن ، فكثر دعاء الناس له وبالغوا فى الثناء عليه حتى قال قائلهم .

« الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق فى قتل أهل الردة ، وعمر ابن عبد العزيز فى رد المظالم ، والمتوكل على الله فى احياء السنة » .

وكان ذلك سنة أربع وثلاثين ومائتين للهجرة .

ووجدت حركة احياء السنة صدى فى شعر البحترى شاعر العربية الكبير اذ قال :

أمير المؤمنين لقد شكرنا ... الى آبائك الغر الحسان
رددت الدين فذا بعد أن ... قد آراه فرقتين تخاصمان
قصمت الظالمين بكل أرض ... فأضحى الظلم مهوى المكان

وقال غيره يعرض بمن سبقه من بعض الخلفاء :

وبعد فان السنة اليوم صارت ... معززة ، حتى كان لم تذلل
شفى الله منهم بالخليفة جعفر ... خليفته ذى السنة المتوكل

اضطراب أمور بيزنطة الداخلية

أما الامبراطورية البيزنطية فكانت تمر اذ ذاك بدور اضطراب داخلي وصراع عنيف وهو يمثل التدهور السياسي والأخلاقي ، ذلك أن الامبراطورة الوصية على العرش الرومي كانت شديدة التمسك بأبهة الملك والسلطان كارهة لأن تنزع السلطة من يدها لبلوغ ابنها سن الرشد وكان قد احتمل « الأمر صابرا عساها تعود الى رشدها فتسلمه العرش » ، فلما رآهـا غير مكترثة الا بما يرضى أهواءها تحرك ضدها بتحريض من قريبها الذى يسميه المؤرخون المسلمون « بطرناس » والذى صار فيما بعد قيما على شئون الملك والملك وخلع الامبراطورة الوصية فدخلت الدير كما قتل أكبر متنفذ واسمه « تيوكتيستاس » والذى يسميه الطبرى « باللغيط » ، حينذاك واسمه ابن الأثير « اللقيط » ، واتهمها بما يشينهما .

فتنة المبرقع اليماني :

كانت الخلافة العباسية حريصة فى الرخاء والشدة على أن تقيم ناموس الحياة على أساس من السنة لتطمئن النفوس ، لذلك لم تكن تسمح ـ ما وسعها الجهد ـ لناعب أن يجد سبيله الى قلوب المؤمنين فيزعزعها بوهج يضل ولا يهدى ويشقى ولا يشفى ، وكان المعتصم نموذجا من هؤلاء الخلفاء الكرام ومن هنا كانت غضبته الصادقة من رجل من أهل الثغور بالشام عرف « بالمبرقع اليمانى » استغوى فئة من الجهال فتنادوا بأنه « السفيانى » ، فبعث الخليفة اليهم بعضا من عسكر الخلافة استولوا على معاقله وأخمدوا فتنة مضلة وردوا أعداء الاسلام وخصومه فكبت الخليفة الضلالة قبل أن تستفحل وتتجاوز الحدود فتغرق فى لجتها الناس وتضر الدين ، وهكذا وأد جنده الفتنة ، وكفى الله الناس شرها .

خلاصة القول فى المعتصم وموته وموت ثيوفيل :

على أنه فى سنة سبع وعشرين ومائتين مات المعتصم بالله بسبب علة اعتلها من الحجامة بعد أن ظل فى الخلافة ثمانية أعوام وثمانية أشهر وثمانية أيام كان حريصا خلالها على أن يؤكد هيبة الدولة فى عيون خصومها وخصوم الاسلام ، وكان لا يتأخـر عن الاشتراك فى الحرب ضدهم حتى قالوا فيه انه كان آخر خليفة غزا أرض الكفر بنفسه ٠

وقالوا فى صفته « انه لم يكن أحد أسمح منه بالنفقة على البناء والحرب » ، وحسبه أنه غزا البيزنطيين فى سنة ثلاث وعشرين غزوة لم يسبق لهم أن اكتووا بمثلها ، وفتح عمورية بالسيف ٠

ولقد نسبوا الى المغيرة بن محمد قوله « انه لم يجتمع الملوك بباب أحد قط اجتماعهم بباب المعتصم ، ولا ظفر ملك قط بمثل ما ظفر به » فقد أسر ملوك أذربيجان وطبرستان وفرغانة وطخارستان وكابل ، وكلهم كانوا على الكفر والكيد للاسلام فصار قومهم بعد ذلك مسلمين ودعاة للحنيفة السمحاء ٠

ومات امبراطور الروم « ثيوفيل » فى السنة التى مات فيها المعتصم بالله ، فملكت زوجته تيودورا التى يسميها العرب « تدورة » فقامت بالوصاية على ابنهما « ميخائيل الثالث » الذى عرف فى التاريخ البيزنطى « بالسكير » ، وكان ذا سيرة قبيحة معوجة ، وهو الامبراطور الذى ختمت به سيرة الأسرة المقدونية لكنها كانت خاتمة كريهة ٠ وكانت « تيودورا » هذه من اقليم الأناضول أصلا وأعادت عبادة الصور والتماثيل فى بلادها ، وساعدها على ذلك وصـــاية استمرت أربعة عشر عاما فسدت فيها أمور الحكم ٠

تفتيت الدولة الكارولنجية داخليا :

أما فى الغرب المسيحى فقد انقسمت فى السنة نفسها دولة شارلمان أو بلفظ أدق تفتتت بين أولاده وفق اتفاقية عرفت باتفاقية « فيردان » وكانت هذه الأحداث فى شطرى العالم المسيحى مواتية للمسلمين لو أنهم أحسنوا اغتنام الفرصة ، ولكنهم غفلوا عن ذلك كله بأمور لم يكن ذاك وقتها ٠

نعيب زماننا والعيب فينا   وما لزماننا عيب سوانا

فانا لله وانا اليه راجعون ٠

المعتصم وحركة الجهاد الاسلامى ومحاربة صقلية وفتح قصريانة :

وأما فى الشرق فقد تولى الخلافة الواثق بالله بعد المعتصم وكان أهم ما قام به من تنظيم للدولة هو كشفه عن الدواوين واصلاح فاسدها ، ورفع كثير من الظلم عن الرعية فحمد الناس له هذه اليد ، ورد لبيت المال مالا كثيرا ٠

أما حركة الجهاد الاسلامى فقد نشطت فى البحر الأبيض المتوسط ، ففى سنة ثمان وعشرين ومائتين خرج الفضل بن جعفر « فى سفن فيها جند ومطوعة ، ونزلوا على مرسى « مسينا » فكثرت غنائمهم ٠ ثم استأمنهم أهل « نابلى » فى ابطاليا ، واستطاعت طائفة من المجاهدين ان يلتفوا حول جبل مطل على المدينة ، واستسلم أهل البلد وانهزموا ودخله المسلمون ومنع جعفر من معه أن يصيبوا السكان بسوء أو بما يزعجهم ٠

ونعود الى صقلية فنقول انها كانت فى نطاق ولاية الأغالبة بتونس ، فولى مسلموها عليهم — سنة ست وثلاثين ومائتين — « العباس بن الفضل بن يعقوب » فأقر ولايته محمد بن الأغلب

« بعهد منه ، وجاهد العباس جند الروم جهادا كبيرا فى « قصريانه » وسرقوسة وغيرهما من البلاد واشتد فى مضايقتهم ، وغنم منهم غنائم كثيرة حتى طلبوا الصلح وبذلوا فيه خمسة عشر ألف دينار ، وأسلموه الحصن فهدمه وأطلق لهم مائتى نفس ٠

كان فتح « قصريانه » من الفتوحات الاسلامية الكبرى فى تلك النواحى ، وكان حاكم الجزيرة البيزنطى قد اتخذها مقرا لحصانتها — غير ان « العباس » قاتل السفن الرومية واستولى على عشر منها كانت من النوع المعروف بالشلنديات وعليها رجالها فلم ينج منهم أحد من الوقوع فى الأسر ، ودخل المسلمون المدينة مما أزعج بال الامبراطور ميخائيل الثالث فأرسل نجدة بحرية ردها المسلمون خاسرة على أعقابها ، وغنموا بعض السفن البيزنطية ٠ وما كاد أمير المجاهدين يستولى على « قصريانة » حتى شيد مسجدا ونصب فيه منبرا ، وكانت أول خطبة هناك يوم الخميس منتصف شوال سنة أربع وأربعين ومائتين ٠

ولقد كان العباس بن الفضل صورة للمجاهد الصادق فلم يتوان لحظة واحدة عن مجاهدة أعداء الملة طيلة ولايته للجزيرة التى استمرت احدى عشرة سنة ٠

الباسك الاسبان يهاجمون الأراضى الاسلامية :

فاذا انتقلنا الى الأندلس رأينا ان مناطقها شهدت تحركات عدوانية ضارية قام بها الباسك أو « الجاشقيون » من سكان الجبال والمرتفعات ، فقد أغاروا بلا مبرر على الأماكن الاسلامية فى منطقة « الثغر الأعلى » مما دفع والى « تطيلة » الى النهوض لحربهم ، وتناوب الجانبان المتقاتلان النصر والهزيمة ، ثم كان النصر الأخير للعسكر الاسلامى بعد بضعة أيام فى موقعة عرفت بوقعة « البضاء » نسبة الى المكان الذى جرت به ٠

البيزنطيون يهاجمون ثغر دمياط ولكن الأهالى يردونهم خاسرين :

وفى يوم عرفة من سنة ثمان وثلاثين ومائتين ، وبينما المسلمون من أهل مصر يستعدون لاستقبال عيد الأضحى بما هو أهل له اذا بثلاثمائة سفينة من سفن الروم تباغت ثغر دمياط وتهاجم سكانه وتسبى ستمائة من النساء المسلمات والذميـــات (القبطيـات) والأطفال اللاهين الفرحين بالعيد ، واســـتولى المهاجمون المعتدون على ما فى مخازن الثغر من تجـارة وبضـائع ملأوا بها سفنهم ثم عاجوا فأشعلوا النار فى مسجد البلد دون ان يجدوا أحدا يصدهم من الجند ولا « الزراقين » من حفظة الثغر بحرا ، اذ كان والى مصر « عنبسة بن أسحق » قد استدعاهم ليكونوا فى ختان ولديه يوم العيد حتى تكون الفرحة فرحتين ، ولا شك أن خبر هذا كان قد وصل الى الروم من قبل ، وأن الاستعدادات كانت قد بلغتهم فهاجمـــوا وسبوا وغنموا ونزل بعضهم فى المدينة وفى كثير من بيوتها .

حينذاك عمد الأهالى الى رجل منهم اســـمه « أبو جعفـر بن الأكشف » كان مقيدا محبوسا ومغضوبا عليه من عنبسة فكسروا قيده فحارب ابن الأكشف بهم العدو فى البحر حربا شديدة ، مما حمل الأعداء المهاجمين على ركوب البحـر ثانيـــة والعودة من حيث جاؤوا .

كان مما غنمه المهاجمون ســلاح كثير كانوا أعدوه بدمياط ليرسل الى صاحب « اقريطش » المسلم ليدفع عن مسلميها شر العدو ، كما استولوا على ما وجدوه من قند وأمتعة وكتان ، وكان ذلك كله مهيأ ليرسل هو الآخر ولكن الى العراق .

بغداد وملابس اهل الذمة :

أما فى بغداد فقد أمر المتوكل أهل الذمة ان يلبســوا من الملابس ما يميزهم عن المسلمين لما رآه منهم من أمور أوجبت منه ذلك

القرار ، ونودى أن يقتصر الواحد منهم على ثوبين عسليين على الأقبية ، وأن يركبوا البغال والحمير دون الخيل والبراذين .

كذلك كان المتوكل أنكر على من يذكر بغير الحق أبا بكر وعمر وعائشة وحفصة ، وعاقبه « ليكون ذلك ناهيا لكل « ملحد فى الدين خارج على جماعة المسلمين » ، كما قال فى بيانه .

الفداء الثالث بين المسلمين والروم :

وشهدت سنة احدى وأربعين ومائتين الفداء الثالث بين المسلمين والروم وكان الذى سعى فيه هو الامبراطورة « تيودورا » التى يسميها العرب كما قلنا « تدورة » قد وجهت لبلاط الخليفة رجلا من حاشيتها أسمه عند العرب « جورجس بن قرياقس » يطلب الفداء لمن فى أيدى الروم من المسلمين فبعث المتوكل من جهته رجلا ليعرف صحة عدد من فى يدى الروم من المسلمين ليأمر بمفاداتهم ، فيقال ان تيودورا أمرت باستعراض الأسرى وقتلت الكثيرين منهم ، حتى قيل أن عدة من قتلتهم بلغوا اثنى عشر ألف أسير .

واستغرق جمع الأسرى المسلمين فى بلاد الروم اثنى عشر يوما ، ووقع الفداء عند نهر « اللامس » كما حدث من قبل ، فبلغوا سبعمائة وخمسة وثمانين رجلا ، ومن النساء مائة وخمسا وعشرين امرأة ، وهذا عدد قليل مما يرجح معه أن هناك الكثيرين قد قتلوا اذ لا يستقيم مع المنطق هذا العدد من الأسرى فى حروب ظلت سنوات بين المسلمين والبيزنطيين » .

وفاة ابن حنبل وثلة من العلماء :

ومات فى ربيع الأول من سنة احدى وأربعين ومئتين الامام العالم الفقيه المجتهد أحمد بن حنبل بن أسد الشيباني ، وكان مولده سنة أربع وستين ومائة ، وقد أقبل منذ صغره على سماع الحديث الشريف ، كما أنه أبى أن يتولى القضاء حين زكاه الشافعى عند الرشيد ، وغضب ابن حنبل وقال للشافعى « انى انما جئتك لأجل العلم المزهد فى الدنيا فتأمرنى الى القضاء !! والله لولا العلم ما كلمتك أبدا بعد اليوم !! » .

قيل فسكت الشافعى واستحيى منه على جلالة قدره ولكن كان الرجلان صاحبى قدر جليل .

ثم امتحن ابن حنبل بمحنة خلق القرآن أيام المأمون والمعتصم وقد قال فيه أحدهم :

ان ابن حنبل ان سألت امامنا   وبه الأئمة فى الأنام تمسكوا

وقد سماه الذهبى « بكهف الاسلام وعالم أهل العصر » ثم قال فيه « كان اماما فى الحديث وضروبه ، اماما فى الفقه ودقائقه ، واماما فى السنة وطرائقها واماما فى الورع وغوامضه ، وفى الزهد وحقائقه » .

وشهادة الذهبى انما هى شهادة صادق عالم بقيم الرجال .

★★★

ومات محدث دمشق الحافظ « سليمان بن عبد الرحمن بن بنت شرحبيل » ، أبو أيوب التميمى ، كما مات معه فى نفس السنة أبو زكريا يحيى بن معين البغدادى ، وكان حافظا للحديث ، حجة فيه ، واستدلوا على مكانته ــ وان لم تكن بالمجهولة ــ مما قاله فيه

الامام العظيم أحمد بن حنبل « كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس بحديث » ، وكان موته بالمدينة المنورة ٠

ومات شـــيخ الأندلس يحيى بن يحيى الفقيـه المالكى ، أبو محمد الليثى فى رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين ، روى الموطأ عن الامام مالك ، وانتهت اليه رياسة الفتوى ببلده ، واليه يرجع الفضل فى انتشار المذهب المالكى بالأندلس ، وقد وصف بأنه كان « اماما كبير القدر ، وافر الحرمة ، كامل العقل ، كثير العبادة والفضـــل » ٠

تفكير المتوكل فى نقل الدواوين الى دمشق ثم رجوعه عن هذا العزم :

أما فى بغداد فقد هم المتوكل على الله فى سنة أربع وأربعين ومائتين بنقل دواوين الحكومة من بغداد الى دمشــق رغبــة منــه فى ان يتخذها دار اقامة له وعاصمة للخلافة ، ثم أمر ببناء القصور فبنيت بطريق « داريان » وحينذاك خاف أهل العراق أن يغادرهم المتوكل الى دمشق فقال يزيد بن محمد بن المهلب :

أظن الشام تشمت بالعراق — اذا عزم الامام على انطلاق
فان يدع العراق وساكنيها — فقد تبــلى المليحة بالطلاق

وذكروا ان الخليفة المتوكل أقام بدمشــق شهرين وإياما ، لكنه سرعان ما استوخمها ، ولم يطق بردها وماءها وكثرة ما بها من الأمطار والثلوج فرجع الى سامراء ٠ على أنه وان رحل عن دمشق غير مستطيب أياها الا أنه بنى ضاحية سماها « الماحوزة » ، وأقطع قواده وأصحابه فيها الأرض ليعمروها ، وقالوا انه جمع فيهــا القراء وأصحاب الملاهى ، وبنى فيها قصرا عرف بقصر « اللؤلؤة » ٠

شعب البجة فى جنوب مصر :

واذا ألقينا نظرة الى مصر فى هذا الوقت والى القسم الجنوبي منها رأينا انه كان يعيش هناك وفيما بين النيل والبحر الأحمر شرقى النوبة قوم يعرفون بالبجة أو « البجاة » قال فيهم الطبرى « انهم جنس من أجناس الحبش بالغرب وبالسودان ، ويوجد فى بلادهم معدن الذهب ، وكانوا يؤدون لمصر كل سنة أربعمائة مثقال تبر قبل طبخه وتصفيته يدفعونه لعمالها » ثم امتنعوا عن أداء ذلك أيام المتوكل ثم راحوا يهاجمون صعيد مصر رغم عهد بينهم وبين المسلمين منذ أيام الفتح الاسلامى لمصر ، فخرج عنبسة والى مصر اليهم بجيش أعده لذلك ، وخرج اليــه ملك « البجاة » واسمه « على بابا » مع رجاله على الابل ومعهم الحراب ، فجمع المصريون الأجراس وعلقوها برقاب الخيل وتقدموا بها فجلجلت فنفرت الابل من رنينها وفزعت ، فلقى « البجة » منهم أعظم مما لاقــوه ممن يحاربونهم ، وانتهى الأمر أخيرا بأن طلب « على بابا » الأمان على أن يرد لمملكته وبلاده وأن يدفع ما كان قد أمسك عن دفعه من خراج ، ثم حمل الى المتوكل فكساه دراعة ديباج وعمامة سوداء ، وكسا بعيره رحلا مدبجا » ، فركن هو وقومه الى الهدوء •

واذا صدقنا ما تقوله بعض المراجع عن هؤلاء القوم فقد كانوا عباد أوثان أو على الأقل لم يدخلوا الإسلام أو لم يعرفوا جوهره إن كان فيهم مسلمون ، لاسيما مما يستفاد من اسم ملكهم الا ان يكون ذلك رمية من غير قصد •

خاتمة المتوكل والنزاع الأسرى فى الخلافة وموقف مصر :

وفى سنة سبع وأربعين كانت خاتمة حياة المتوكل ، وقيل ان ذلك راجع الى تفكيره فى نزع ولاية العهد من المنتصر وجعلهــا فى

ابنه المعتز فحقد كل منهما على الآخر واستغل بعض غلمان الأتراك هذه الجفوة لخدمة أنفسهم والاكتساب فى الماء العكر ، فكان ما كان من نهاية المتوكل الذى حفظ له التاريخ انه كان سمح اليدين جوادا ، وكان أديبا يهزه اللفظ الرائق الجميل ، فقد حدثوا ان أبا السمط مروان أنشده في مدح عهده حين عقد لأولياء عهده العهود قوله :

سقى الله نجدا ، والسلام على نجد
ويا حبذا نجد على النـأى والبعد
نظرت الى نجد وبغداد دونهـا
لعلى أرى نجدا ، وهيهات من نجد
ونجد بهـا قوم ، هواهم زيارتى
ولا شىء أحلى من زيارتهم عندى

فلما فرغ الشـاعر من انشاده أمر المتوكل له بمال كثير وخمسين ثوبا وفرس وبغلة وحمار ، فقالوا ان ما أعطاه اياه كان فوق الذى كان كل أحد يتصوره ، وقال البعض انه كرم فيه كثير من الاسراف ٠

★★★

ولما قام المنتصر بالخلافة احتال على ابنى عمه المعتز والمؤيد حتى خلعا نفسيهما من ولاية العهد واشترى أكثر أملاكهما كرها وغصبا ، وكان كل ذلك بتدبير من الوزير « أحمد بن الخصيب » الذى تم الخلع على يديه وبحضوره وبتدبير منه ؛ كما كان ذلك أيضا بتدخـل الأتراك ، ثـم كتب المنتصر الى العمـال والولاة بالخلع ، لكن لم تطل مدة خلافته أكثر من ستة أشهر ، ثم سيقت بتدبير من ابن الخصيب مرة أخرى الى أبى العباس أحمد الملقب بالمستعين بالله ٠

كان أول ما اسـتهل به المستعين بالله خلافتـه ان نفى ابن الخصيب الى جزيرة اقريطش أو كريت ، واستصفى أمواله ،

فذاق ابن الخصيب مرارة الكاس التي طالما سقاها لغيره ..
والله يمهل ولا يهمل .

وكره العامة في بغداد وسامراء سير الأمور على نهج جرد فيه أهل الحل والعقد من السلطة ، كما كرهوا استبداد الفتيان والخدم والغلمان الأتراك بأمور الخلافة وابعاد العنصر العربي الذي تمثل بمصر في « عمر بن عبد الله الأقطع » و « على بن يحيى » أمير الغزاة وهما يجاهدان الروم ، فقال أبو المحاسن « لقد شغب الجند ببغداد عند استيلاء الترك عليها وقتلهم المتوكل وتمكنهم من الخلفاء الخلفاء وأذاهم للناس » .

وشهدت تلك السنوات نهايات كثير من رؤوس الغلمان الأتراك مثل « ايتاخ » و « اتامش » وباخر « التركى » ووصيف و « وبغا الشرابى » ، وكان كل منهم ذا سطوة وحيلة ولم يكن أحد من الترك أنفسهم يدرى لأى الترك المتنازعين ينحاز وينتسب فليس لأحد من المتخاصمين قرار ، وما يؤمن شره حتى على من نصره ، حتى قال القائل :

لما رأيت سيوف الترك مصلتة
علمت ما فى سيوف الترك من خطر

وكانت العامة تكره من الترك عامة جهلهم واستبدادهم وطغيانهم ، وما هم عليه من سوء السيرة ، كما كرهت بالتالى من يعطف عليهم، وحق لها ذلك فقد كثر تدخل الغلمان فى الخلع والولاية ، ولا يعرف أحد متى يكون رضاؤهم ومتى يكون غضبهم ، فلقد اعادوا المعتز الى الخلافة سنة اثنتين وخمسين بعد المائة الثانية من الهجرة بعد ان كانوا قد استكتبوه كتابا يخلع فيه نفسه منها

ولما سـبقت الخلافة الى المعتز خلع خلعة الملك على « محمد بن عبد الله بن طاهر » أحد كبار رجالات الدولة وقلده سيفين ، ثم رد الأميرين « بغا » « ووصيفا » الى سابق منزلتهما ورتبتهما ، ثم خلع على أخيه أبى أحمد خلعة الملك وتوجه بتاج من ذهب وقلنسوة مجوهرة ووشاحين مجوهرين وقلده سيفين ، ثم ما لبث أن نفاه الى واسط .

وتولى ولاية مصر سنة ثلاث وخمسين ومائتين : مزاحم بن خاقان أخو الفتح بن خاقان وزير المتوكل ، فأخذ مزاحم نفسه باظهار الحق وقمع الفساد ، فكره ذلك منه جماعة من المصريين ، وقاتله أهل الحوف وغيرهم فقاتلهم لاحقاق الحق ، فانجحه الله فى مسعاه ، ثم أمر أمير شرطته أن يشدد على النساء فلا يخرجن من بيوتهن للتوجه الى الحمامات والمقابر ، وسجن النوائح ، وأمر أهل الجامع بمساواة الصفوف فى الصلاة ، ونهى أن يشق ثوب على ميت ، أو يسود وجه ، أو يحلق شعر ، أو تصيح امرأة على راحل .

مصر وابن طولون ودولته شبه المستقلة :

ثم تولى أمر مصر أحمد بن طولون وكان مملوكا تركيا ولكنه نشأ حافظا للقرآن الكريم وكان كثير الدرس والتحصيل ، وتفقه على المذهب الحنفى ، وتولى إمرة الثغور وامرة دمشق ، ولما صارت اليه مصر شرع فى بناء مسجده العظيم الذى لا يزال قائما كأرحب ما تكون المساجد اتساعا ، ثم بنى القطائع فكانت العاصمة وكان فيها قصره ثم دار الامارة ، وأوجد ميدانا فسيحا يلعب فيه بالأكرة التى تعرف عند الأوربيين وهواة الرياضة بالبولو .

وقصارى القول انه فعل كل ما يدل على أنه معتزم ان تكون مصر له خالصة لا يشاركه فيها أحد ، فكان له ما اعتزمه لمدة ليست بالقصيرة .

لقد كان حكم أحمد بن طولون لمصر نقطة بارزة فى تاريخ البلد سياسيا واقتصاديا ونسوف هنا كلمة موجزة عن دولة أحمد بن طولون التى يحلو للبعض ان يعتبروها الدولة المستقله فى تاريخ مصر فى عهد الولاة ، وحق لهم ذلك فقد تعاونت ظروف كثيرة على أن تسبغ عليها ما يجعلها مستقلة أو قريبة من المستقلة ، فأول ما نراه هو انه كان يرى ان يكون مال مصر للمصريين وأنه لا ينبغى أن يكون للخلافة الا الرسميات ، واصطدم فى هذا المسعى بعامل الخراج على مصر « احمد بن المدبر » الذى كان لايعنيه فى الواقع سوى الحفاظ على ما له من السلطان ، والا أن تتدفق أموال الخراج الى جيبه يعطى منها للخلافة ما يسد جشعها • فلا عجب ان هو أدرك فى ابن طولون ما يفسد عليه سياسته التى سار عليها منذ زمن ولم يجد من يرده عنها ، الا ان براعة ابن طولون جعلته هو السيد وجعلت ابن المدبر يهوى من عليائه ، واضطربت أمور الخلافة اضطرابا استغله واليها لنفسه ولصالح البلد فعمل على زيادة الدخول من وجوه لايؤاخذ عليها بل يحمده الناس عليها ، فازدهرت فى أيامه التجارة واجتاز تجار مصر البحار والسهول ، وطرقوا أبـــواب بلاد بعيدة مما در أموالا ضخمة على مصر •

ومن الأعمال المجيدة التى تحسب لابن طولون تشييده عاصمة جديدة له عرفت بالقطائع عند سفح جبل « يشكر » المنسوب فى الغالب فى هذه التسمية الى رجـــل اسمه « يشـــكر بن جديلة » اللخمى ، الذى كانت أسرته أو قبيلته العربية قد أقامت فى هذه الناحية منذ الفتح الاسلامى زمن عمرو بن العاص •

وأقام ابن طولون لنفسه بالقطائع قصرا ، وزود العاصـــمة الجديدة بكل ما تحتاجه وعمل على أبهتها ، وان لم يصرفه ذلك فى الوقت ذاته عن العناية بالفسطاط والعسكر •

والواقع ان أيادى ابن طولون فى التعمير جمة وعظيمة ، فقد اهتم كذلك بالصناعة والجيش الى غيره من الأمور اللازمة لاقامة دولة كبيرة · وقد بقى حكم مصر فى بيته حتى سنة ثنتين وتسعين ومائتين حين استردتها الخلافة العباسية زمن المكتفى بالله ، ويكفى للدلالة على عظمة الدولة الطولونية أن بلغ رزق الجيش فى مصر زمن ابنه خمارويه « تسعمائة ألف دينار كل سنة ، وتزوجت ابنته قطر الندى من الخليفة المعتضد وكان زواجا لم ير التاريخ له مثيلا من قبل فى الاسراف ، ولما مات خمارويه » خلفه ابنه « أبو العساكر جيش » ، ثم تعاقبت من بعده جماعة من أهله وأولاده لم يكن لاحد منهم ما يحفظ على الدولة فى مصر قوتها ·

ظهور الزنج وخروجهم على الدولة :

وفى سنة خمس وخمسين ومائتين كان أول خروج لجماعة يعرفها التاريخ بالزنج ، وكانوا يسكنون « السباخ » فى جهة البصرة وواسط ، وكان خروجهم · بزعامة رجل ادعى النسب العلوى ، والنسب العلوى منه برىء ، وقالوا فيه ان اسمه هو « بهبوذ » وقد استفحل أمره فبعث أصحابه للاغارة والنهب ، وبثهم فى كثير من النواحى فكانوا يعيثو فسادا ، كما أن كبيرهم الذى علمهم السوء راح يدعو الى آراء فاسدة تمس العقيدة والأوضاع الاجتماعية ، ولما عرف الناس حقيقة أمره وكشفوا مخبوء سره دعوه بالخبيث ، ولكنه لم يعدم المكر الذى هداه الى ان يستميل اليه العبيد ، وانتشرت دعوته فى « هجر » والبحرين والعراق على أيدى دعاة له بثهم فى تلك النواحى حتى جبى بعضهم له الأموال والخراج من بعض هذه الجهات ، ثم بنى لنفسه مدينة سماها « النختارة » ثم قطع هو ومن لف لفه طريق الحاج واستولوا على السفن القادمة من الهند وبلاد الشرق ، ثم كان استيلاؤ هؤلاء الزنج على البصرة سنة سبع وخمسين ومائتين زمن المعتمد على الله

فزادت الخلافة في العسكر الخارج لقتالهم ، وبعث الخليفة المعتمد الى أخيه أبى أحمد الموفق بمكة وعقد له على الكوفة وطريق مكة والحرمين واليمن وكذلك على السواد وواسط وكور دجلة والبصرة والأهواز وولاه أمر قتال الزنج ، وكانت حرب عنيفة بين الطرفين استمرت اربعة عشر عاما قيل — وربما كان فى هذا القول مبالغة ان الزنج قتلوا فيها من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف انسان ·

ثم رفع الله عن المسلمين الغمة · ومما مدح به ولى العهد وكان أهلا له — قول يحيى بن خالد :

لقد طابت الدنيـــا وأينع نبتها

بيمن ولى العهد وانصلح الأمر ·

اضطراب بيزنطة داخليا وقيام الأسرة المقدونية :

أما فى بيزنطة فى هذا الوقت وما قاربه فقد اضطربت أمورها الداخلية اذ وثب أحدهم على الامبراطور « ميخائيل بن توفيل » وقتله وكان الذى قتله رجلا من غمار الناس يدعى « بازيل » لان الامبراطور قد أعجبته شجاعته وبأسه وترويضه الخيول الجامحة فأدناه ورفع مكانته وقربه اليه بصورة لم تكن تخطر على بال أحد حتى جعله شريكا له فى الحكم ، وما لبث بازيل هذا آن وثب على ولى نعمته واغتاله ، وأسس دولة جديدة عرفت فى التاريخ البيزنطى بالمقدونية وهذا ما نستمده من المراجع العربيـــة التى كانت عالمة بأحوال الروم الداخلية ، وكانت دولته المقدونيـــة ، ذات علاقات غير ودية بالمسلمين ·

وفى سنة ثلاث وستين ومائتين قام « ابراهيم بن أحمد الأغلبى » بتأسيس مدينة « رقادة » وشيد فيها مسجد الفتح وقصر الامارة ،

واهتم هذا الأمير في السنوات الأولى من حكمه بالاكثار من الحصون والقلاع والمحارس على طول امتداد ساحل البحر حتى أصبح ما وراء ذلك آمنا من عدوان مباغت ، كما بنى سور مدينه « سوسه » ، ثم مرت عليه فترة ود لو يسقطها من عمره ثم عاد بعدها الى رد المظالم وأحسن الى الرجال ٠

مـوت البخارى :

ومـات سـنة خمس وخمسين ومائتين الامـام المحـدث محمد بن اسماعيل المعروف بالبخارى وكان امام أهل الحديث فى زمانه يعرف صحيحه من زائفه ، وقد ألهم حفظه وهو صغير حتى قالوا فى شأنه انه كان وهو صبى « يحفظ سبعين ألف حديث سردا » .. نعمة من الله حباه بها ، كما راح يطلبه فى مكة ، وتنقل فى البلاد فى طلبه ، وقد روى عنه مسلم الذى تتلمذ عليه وقال فيه الترمذى « لم أر بالعراق ولا فى خراسان أعلم من البخارى فى معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد » ، وحسبه أن يكون صاحب صحيح البخارى الذى قال بعضهم فيه وفى صاحبه :

صحيح البخارى لو أنصفوه ... لما خط الا بمـاء الذهب
أسـانيده مثل نجوم السماء ... أمام متون لهـا كالشهب
فيـا عالمـا أجمـع العـالمون ... على فضـل رتبته فى الرتبه
نفيت الضعيف مـن الناقلين ... ومـن كان متهما بالكذب

وفاة بعض كبار العلماء :

ولما كانت سنة ثلاث وسبعين ومائتين مات « ابن ماجـة » القزوينى « صاحب كتـاب السنن ، الدال على سعة علمه الصحيح واتبـاعه للسنة فى الأصـول والفروع ، وقد ارتحل ابن ماجة الى العراقين ومصر والشام ٠

ومات أيضا عالم مثله من أصحاب السنن وهو الامام « أبو داود السجستانى » الموصوف بأنه كان « رأسا فى الحديث والفقه » ، وأنه كان « ذا جلالة وحرمة وصلاح وورع » ، حتى كانوا يشبهونه فى ذلك كله بشيخه ابن حنبل ، وكان أبو داود آمة فى الحديث حتى قال فيه بعضهم « الين لأبى داود الحديث كما ألين لداود الحديد » وكانت وفاته بالبصرة سنة خمس وسبعين ومائتين.

زيادة نفوذ العنصر التركى فى السياسة :

وندع الراحلين فى هذا العقد هادئين فى رقدتهم وقد ادوا واجبا لايزال فى أعناقنا لننظر الى أحوال السياسة فى الدول فنرى ان ازدياد النفوذ التركى فى الشئون السياسية والادارية والحكم أدى الى ضعف الخلافة العباسية ، واغتنم بعض الجماعات ما نجم من خلافات حادة بين أفراد البيت العباسى لتقوية أنفسهم بل واغتصاب أشياء ليست من حق هذه الجماعات ، فقامت بالحكم فى خراسان أسرة شبه مستقلة عرفت بالطاهرية ، اتخذت من نيسابور مركزا لها ، وكان من أظهرهم « طاهر بن عبد الله بن طاهر » الذى ساس الأمور فى ولايته الجديدة خير سياسة ، فلما مات سنة ثمان وأربعين تولى ــ كوريث له ــ ابنه محمد ، ولم تفعل الخلافة والخليفة شيئا ازاء هذا الاجراء بل قام أمير المؤمنين المستعين بالله فأكد هذه الولاية للحاكم الجديد بعهد منه أقره فيه على خراسان والأعمال المضافة اليها .

قيام الأسرتين الصفارية والسامانية :

ثم قامت الأسرة الصفارية على يد يعقوب بن الليث الصفار فى سجستان ، وجاهر الخلافة بالعداء حتى ليقال انه فكر فى الاستيلاء على بغداد ذاتها ، وكان هذا منه أمرا عجيبا ان دل على شىء فانما يدل على أنه لم يعد هناك احترام للخليفة ولا للمؤسسة

السياســية ، كما أنه غلب على فارس فهرب منه عامل الخليفة الى « الأهواز » فسار يعقوب الى الأهواز واستولى عليها وظل بها حتى مات سنة خمس وستين ومائتين ، ولقد حاول الخليفة المعتمد استمالته اليه بكتاب نفذه اليه على يد رسول خاص أرسله به اليه فلم يلن ولم ينفع الكتاب فى حمله على الطاعة والاستجابة ، فلما مات يعقوب تولى أخوه « عمرو بن الليث » قبل أن يصله عهد الخليفة المعتمد الذى زاد فى عهده فجعل له الولاية على فارس وأصـــبهان وكرمان والسند ، وأشهد له بذلك ، وكان ذلك كله مما يؤكد ضعف الخلافة والخليفة وعدم الاكتراث بمكانة أحدهما اذ لم يعد لأحدهما هيبة فى النفوس .

★★★

كذلك قامت الأسرة « السامانية » بالانفراد بالحكم فى ناحية بلاد ما وراء النهر فى « فرغانة » ، وتحملت وحدها عبء مجاهدة « الخزر » والترك والكفار الموجودين فى تلك النواحى ، واستبد « اسماعيل السامانى » بحكمها ، وكان اسماعيل ذا مهارة وسياسة وحسن تصريف للأمور ، فعمد الى قبائل التركمان التى كانت تغير على بلاد ما وراء النهر بين آن وآخر ففل شوكتها وردها بعيدا عن الحدود ، ثم جعل الحكم فى إمارته هذه وراثيا فى بيته ، ولم يكن للخلافة قدرة على معارضته أو اظهار استنكارها لما أقدم عليه من خطوة جريئة ، بل ان الخلافة اكتفت بأن يدفع لها خراجا ضعيفا ، وادعت فيما بينها وبين نفســها ان فيما يدفعــه ما يحفظ عليها ماء وجههـــا .

اصلاحات الحكم الاسلامى فى الشمال الغربى الأفريقى :

أما اذا انتقلنا الى المغرب فانا نجد انه كان للاسلام فضل كبير على تلك النواحى ، فقد أكثر بعض الحكام المسلمين من خزانات

المياه والقناطر وحفر البرك المعروفة بالمواجل بصـــورة لم تعهدها افريقيا حتى فى أزهى أيام الامبراطورية الرومانية زمن احتلالها هذه النواحى ٠

وأبـــرز الحكام الذين اهتموا بهذا الضرب مـن الخزانات « أحمد بن محمد الأغلب » والى تونس فقد كان شـــديد الاهتمام باقامة « المواجل » وهى كما قلنا برك أو أحواض كبيرة متينة البناء مفتوحة للهواء وكان أول « ماجـل » كبير على باب تونس ، وقد وصفه الادريسى الجغرافى بانه « مبنى على تربيع وفى وسطه بناء قائم كالصومعة ، وذرع كل جانب من جوانبه مائتا ذراع ، وكله مملوء بالماء » ٠

ويستفاد مما ذكره ابن الخطيب فى كتابه أعمال الاعلام ان « الماجل » كان على هيئة بركة عظيمة مستديرة الشكل ، مبلغ قطرها مائة وخمسون مترا ، اذا سالـت الأودية بالماء انصبت فيـــه تلك الميـاه » ٠

ثم ذكر ان أهل القيروان كانوا يشربون من هذا الماجل فى أيام الجفاف ٠

وكثرت المواجل فى تونس فى عهد الأغالبة لا سيما بالقيروان وكانت صفتها ان تكون « مستديرة الشكل ، مكسوة بطبقة من الملاط الشديد الصـــلابة ، وفى أعلاها سور مرتكز على ركائز ويتصل به من احدى النواحى ماجل صغير لترسيب الطين والطمى » ويتصل به من ناحية أخرى خزان تودع فيه المياه للشرب » ٠

كذلك أكثر الأغالبة من حفر « الجبـاب » ، وهى خزانات جوفية لحفظ مياه الأمطار ، كما اهتموا بانشاء القناطر كقناطر « أبى الربيع » خارج باب القيروان ٠

هذا بعض معالم الابداع والتعمير فى العالم من الناحية الحضارية فى وقت لانعثر فيه على مثلها فى الغرب الأوربى حتى نقرنه بها أو نشير اليه ليجد له موضعا فى هذا القرن فى ثنايا هذا العرض .

أزمة الخلافة المالية :

على انه كان من أثر الحروب الكثيرة التى خاضتها الخلافة العباسية فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى والتى كان بعضها قد فرض عليها فرضا اذ قل دخل بيت المال لكثرة المصروف على الحملات وتجهيزها ، ووجدت الخلافة نفسها مضطرة لطلب المال من بعض الولاة والعمال حتى لقد أرسل الموفق (ولم يكن اذ ذاك خليفة) الى أحمد بن طولون والى مصر يطلب منه عونا ماليا يتمكن به من الاستمرار فى تجهيز العسكر ضد الزنج الذين لم يكن يخفى على أحمد بن طولون أن حروبهم ضد الخلافة العباسية قد استنزفت كثيرا من مواردها ، وكان الموفق هو الذى وكل اليه محاربة الخارجين على الخلافة وعلى الاسلام ، فلما علم المعتمد على الله بذلك غضب ان يجمع المال لغيره ، وبعث الى ابن طولون ليفسد ما بينه وبين الموفق ، ويأمره بارسال الأموال اليه مباشرة دون غيره ، فلم يكترث ابن طولون بذلك الطلب بل اكتفى بأن أرسل ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار الى الموفق لأنه أدرك ان المال لو وصل الى غيره لبذل فى غير موضعه ، ولصرف أو بعثر على غير ما يجدى الخلافة وينفع المسلمين .

البيزنطيون يهاجمون الأراضى الاسلامية القريبة من الأناضول :

ومع اشراقة شمس سنة تسع وخمسين ومائتين للهجرة يعاود البيزنطيون مهاجمتهم لأراضى الخلافة العباسية فيما قرب من

الأناضول ، يساعدهم على ذلك فرصة انسلاخ بعض الولايات من تبعيتها للعباسيين الذين انشغلوا بمحاربة الزنج ، ثم انتصار الامبراطور البيزنطى « بازيل الأول » على جماعات « البوليكان » قرب أرمينية واستيلاؤه على مدينتهم « لفريس » مما جعله يقف وجها لوجه أمام العباسيين ، فكان من ذلك عدوان الجيش البيزنطى على « سميساط » وملطية .

وتشير المراجع العربية الى ان العسكر الاسلامى كان بقيادة « أحمد القابوسى » وأنه انتصر على الروم وقتل منهم واحدا اسمه نصر « الاقريطشى » الذى ينعته الطبرى بأنه « بطريق البطارقة » أى القائد العام لجيش الروم ، وهذا النعت وارد أيضا فى ابن كثير وابن الأثير ولكنهما لا يذكران اسمه ، وان كان أبو المحاسن فى كتابه النجوم الزاهرة يهمل ايراد الاسم واللقب جميعا ، كما نلاحظ ان السيوطى لايورد لهذه الحرب خبرا فى كتابه أخبار الخلفاء ، وينهج نهجه اليعقوبى فى تاريخه وان كان تاريخه ينتهى بانتهاء هذه السنة التى جرت فيها هذه الحرب بين الروم والعرب .

وعلى أية حال فقد عاود الروم مهاجمة هذه النواحى فى السنة التالية وثأروا لهزيمة العام المنصرم واستولوا على حصن « لؤلؤة » القريب من حدودهم وثغورهم .

القونسو الثالث ومسلمو الأندلس :

اذا نظرنا الى الأندلس فى السبعينيات من القرن الثالث الهجرى وجدناها تضطرم بالفتن والاضطرابات يثير بعضها الطامعون فى الحكم ، ويعمل على اذكاء نيران البعض الآخر النصارى الذين ظلوا على صليبيتهم للاسلام .

كانت حكومة الأندلس تنظر باهتمام الى منطقة « الثغر الأعلى » لوجودها على حدود الممالك النصرانية فى الشمال ، ولذلك نرى الأمير المنذر بن الأمير محمد يزحف الى تلك النواحى ويحارب المتمردين ، وحينذاك يهب الملك الفونسو الثالث للحرب وان انتهى الأمر أخيرا بهدنة بين الجانبين .

وعاد المنذر مرة أخرى سنة سبعين ومائتين فدانت له سرقسطة واشترك زعيمها المتمرد « محمد بن لب » وكانت حرب وجد ابن لب نفسه فيها مضطرا لأن يسلم « سرقسطة » الى المنذر ، وان كانت هناك رواية أخرى تقول انه أسلمها اليه لقاء قدر كبير من المال .

وكان الفونسو الثالث المعروف بالكبير قد تولى أمر مسيحيى الشمال فى « ليون » فسارع الى تأييد محمد بن لب الثائر على عمه وراح يدفعه من الوراء حتى لا يعرف المسلمون من يكون وراءه فلما رأى ان محاولاته باءت بالفشل بعث سفارة للصلح كان على رأسها القسيس « دولتيليو » .

ورحبت قرطبة بالصلح ، وأبدت ترحابها بعرض الفونسو وأظهرت حسن نواياها بأن بعثت مع هذا القسيس جثتى متعصبين نصرانيين : رجلا وامرأة كانا قد هلكا قبل عشرين عاما .

ظهور ابن حفصون شوكة فى جنب المسلمين :

ولقد ظهر فى هذه الفترة فى تاريخ الأندلس ثائر هو ابن حفصون لم يرع أهل دينه المسلمين بل راح يحاربهم حربا عنيفة ، فلا عجب ان وجد تأييدا كبيرا من نصارى الأندلس وقامت حرب ضروس لم يقتصر الأمر فيها على الجند بل تعداهم الى الأهالى

الأمنين ، واستغرقت هجماته المزعجة عهد الأمير محمد وابنه المنذر وأخيه عبد الله ، وقد وصف ابن حيان مؤرخ الأندلس ابن حفصون هذا بأنه « امام الخارجين فى الأندلس وقدوتهم ، وأعلاهم ذكرا فى الباطل ، وأحدهم بصيرة فى الخلاف ، وأشدهم سلطانا ، وأعظمهم كيدا للاسلام ، وأبعدهم قوة » .

وصدق ابن حيان فقد كان ابن حفصون هذا كله ، وكان فوق هذا كافرا فى أعماقه ، وسوف يكشف هو بنفسه عن نفسه القناع بلا حياء .

ولقد اتخذ ابن حفصون من قلعة « بوبشترو » مركزا لعملياته العدوانية المرذولة على أراضى الأندلس الاسلامية ، وتقدم حتى شارف تخوم قرطبة ، وهدد العاصمة ، والتقى بقوات الامارة بقيادة الأمير « عبد الله بن محمد » فهزمه عبد الله فى وقعة عرفت بوقعة « بلاى » على نهر الوادى الكبير .

وأحس مسلمو الأندلس ان كابوسا ثقيلا قد انزاح عنهم ولو مؤقتا ، وأتيحت لهم فرصة يستردون فيها أنفاسهم ، ولم يفت الشعر بطبيعة الحال (وتاريخ الأندلس يحفظه الشعر أيضا) ان يترجم عن هذا كله ، فقال ابن عبد ربه يصف هزيمة ابن حفصون الخارج على الاسلام والدولة :

محا السيف ما زخرفت أول وهلة
ودونك ، فانظر بعد ذلك ما يمحو
فكم شارب منكم صحا بعد سكرة
وما كان ــ لولا السيف ــ من سكره يصحو
كأن « بلايا » والخنازير جولها
مقطعة الأوصال أنيابها كلح

ديار الأولى قد كذبوا رسل ربهم
فلاقوا عذابا كان موعده الصبح

فيا ليلة أبقت لنا العز دهرنا
وذلا على الأعداء طال به القرح

بدولة عبد الله ذى العز والتقى
يخبر في أدنى مقاماته المدح

وفاة صاحب صحيح مسلم :

ومات في المشرق في سنة احدى وستين أحد أصحاب الكتب الصحاح الستة وهو الامام مسلم أبو الحسين القشيرى النيسابورى وكان قد سمع الحديث الشريف على اعلامه الثقات في مصر والشام والحجاز والعراق ، ولما ورد نيسابور في آخر عمره لازمه أبو الحسين القشيرى وداوم على الاختلاف اليه ، وقد حدثوا عنه انه صنف مسنده الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة ٠

فرحمه الله بقدر اخلاصه في عمله وبقدر خدمته للمسلمين بحفظ أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ٠

★★★

ونعود الى أحمد بن طولون فنقول انه ساس الأمور فيها سياسة حكيمة ، وكان بناء دولة ، قادرا على مناطحة من يريد اغتصاب البلاد من يده ، وكان توليه الحكم بداية عهد أرسى فيه قواعد الحكم ثم جاءه أجله بعد حياة حافلة بالأمجاد سنة سبعين ومائتين وكان يعيب على أولاد الترك ما يرتكبونه من المحرمات والمنكرات ، وهو بانى قلعة « يافا » حين ضم اليه حكم الشام ، ولم تكن لمدينة يافا ــ كما يقولون ــ قلعة من قبله ، وتولى بعده ابنه خمارويه ٠

وكانت فى ابن طولون شهامة ونجدة ، فقد كلفه بعضهم بالوثوب على المستعين بالله لخصومة شخصية بينه وبينهم ، ومنوه – ان هو أطاعهم – أن ترقى مكانته ويجد عطفا فوق الذى يرجوه ، فأنكر ذلك الطلب الذى يسألونه اياه وقال : « لا والله ٠٠ لا أقتل أولاد الخلفاء » ٠ فحفظه الله هو أيضا من كيد الكائدين ٠

انتصار العباسيين على الزنج والروم فى قلمية :

ولقد كانت سنة سبعين ومائتين من سنوات الخير فى الاسلام ، اذ تغلبت فيها الخلافة العباسية على الزنج الذين بارت أمورهم ، وذهبت ريحهم ، وتبدد شملهم ، وذلوا بعد طغيان ٠

وفيها أيضا انتصر المسلمون على الروم عند « قلمية » القريبة من طرسوس ، كما انتصر فيها أيضا مسلمو الأندلس على صليبيى برشلونة ٠

أما ما كان من شأن الروم فقد ورد ان البيزنطيين خرجوا فى ربيع الأول من تلك السنة – أعنى سنة سبعين ومائتين – فى جند كثيف تقدره المراجع العربية بمائة ألف مقاتل ونزلوا بناحية باب « قلمية » فانهضت لهم الخلافة « يازمان » الخادم وندبته مع عسكر الثغور لحربهم وكان « يازمان » من غلمان الأتراك ، كما أنه كان خادم « الفتح ابن خاقان » ، وقد وصفه ابن تغرى بردى « بالشهامة » ، والحق انه كان كما وصفه أبو المحاسن ، وكان قد وهب نفسه لمحاربة الروم ومجاهدتهم حتى لقد استشهد وهو يحاربهم ولكن بعد عدة سنوات من نزولهم على « قلمية » ٠ وفى عده المعركة فاجأ « يا زمان » البيزنطيين ولم يلاونوا يتوقعون من المسلمين أن يهاجموهم فى مثل هذه الساعة وهم فى هذا الحشد الكثيف ، فقتل « يازمان » التركى مقدمهم الكبير واسمه « اندرياس » كما

يقول الطبرى ، كما قتل اثنين من كبار قواده الذين يلونه مباشرة . كذلك استولى « يا زمان » على صلبان لهم من ذهب وفضة ويقال كان من بينها صليبهم الكبير المصنوع من الذهب والمزين بالجواهر ، وقيل أيضاً انه أخذ منهم خمس عشرة ألف دابة ، ونحو عشرة آلاف علم ديباج الى غير ذلك من السلاح والآنية والثياب السمور .

واعتز المسلمون بيوم « قلمية » فقد كان لهم فيه نصر وأى نصر .

★★★

محنة المدينة وتعطيل الصلاة بها :

وإذا انتقلنا الى المدينة المنورة نجد أنه جرى عليها حدث أزعج المسلمين فى صفر من سنة احدى وسبعين ومئتين ايما ازعاج ، وحق لهم ان يفزعوا فهى التى فتحت أبوابها وبيوتها للرسول عليه الصلاة والسلام وأصحابه يوم هاجروا وآثروها على غيرها . واستدل المسلمون من الحادث الذى جرى لها على أن الحكومة فى بغداد كانت قد بلغت من الضعف حدا جرؤ معه ان يدخل اثنان المدينة فقتلا جماعة من أهلها ، وطالباهم بمال جسيم ، وبلغ الرعب الذى بلغ ذروته حين تعطلت الصلاة فى المسجد النبوى الشريف أربع جمع ، فاغتمت النفوس ، وهان على الناس الموت على ألا تعطل شعيرة من شعائر الاسلام فى هذا البلد شرف باحت خلق الله الى الله ، ولقد قال القائل فى هذا الحدث :

عين : فابكى مقام جبريل والقبر
فبكى والمنبر المحزونا
وعلى المنبر الذى أسه التقـ
ـوى ، خلاء أضحى من العابدينا .

قبــح اللــه معشرا أخــربوها
وأطاعــوا مثبـــرا ملعونـــا

ثم صلح أمر المدينة ورجع الناس اليها وكانت الفرحـــة عظيمة شاملة للمسلمين قاطبة فتردد صداها فى العراق وفارس والهند والشام ومصر والمغرب كله ، وفى كل بقعة ينطق أهلوها بالشهادتين .

تجربة علمية يجريها المسلمون ونجاحها :

وفى هذا القرن الثالث للهجرة تمكن علماء المسلمين فى بغداد من القيام بعمل ســبقوا به الغربيين بأكثر من أحد عشر قرنا هو ما يعبر عنه بقياس دورة الأرض وقياس حصــة الدرجة وذلك على يد « محمد بن موسى بن شاكر الذى كان أحد أخوة ثلاثة انتهى اليهم ما حمل معاصريهم على ان يطلقوا عليهم عبارة « جيل بنى موسى » ، ويفسر المؤرخون ذلك بقولهم ان هؤلاء الاخوة من بنى موسى خاضوا فى العلوم القديمــة وغلب عليهم الهندسة والحيل والموسيقى » .

ذلك أن المأمــون كان قد أراد التــأكد من أن دور الأرض أربعة وعشرون ألف ميل ، فأمر الأخوة بتحرير هذا القول فسالوا عن الأراضى المستوية فأخبروا بصحراء سنجار ووطئوا الكوفة ، فذهبوا مع من يثق المأمون بأقوالهم الى صحراء سنجار وحققوا القطب الشمالى وقالت كتب التاريخ انهم ضربو هناك وتداً ، وربطوا فيه حبلا طويلا ، ومشوا الى الجهة الشمالية على الاستواء من غير انحراف حسب الامكان ، وكانوا كلما فرغ حبل نصبوا فى أرض وتدا وربطوا فيه حبلا آخر كفعلهم الأول ، حتى انتهوا كذلك الى موضع قد زاد فيه ارتفاع القطب الشمالى درجة محققة ، ومسحوا ذلك القدر فكان ستة وستين ميلا وثلثى ميل .

« ثم وقفوا عند موقفهم الأول وربطوا فى الوتد حبلا ومشوا الى جهة الجنوب من غير انحراف وفعلوا ما فعلوه من قبل حتى انتهوا الى موضع قد انحط فيه ارتفاع القطب الشمالى درجة ، ومسحوا ذلك القدر فكان ستة وستين ميلا وثلثى ميل ، فعادوا الى المأمون وأخبروه » .

وأراد المأمون التأكد من صحة ذلك فى موضع آخر فسيرهم الى أرض الكوفة ، ففعلوا الذى فعلوه بسنجار فتوافق الحسابان ، ثم ضربوا الأميال المذكورة فى ثلاث مائة وستين وهى ذرع الفلك فكان الحاصل أربعة وعشرين ألف ميل وهو دور الأرض ، وصح فقيل بل حيث وجدت حصة الدرجة ستة وستين ميلا» .. مما ثبت بعد .

أما محمد بن موسى بن شاكر هذا فقد مات سنة تسع وخمسين ومائتين ، ولم يهتم أحد حتى وقتنا الحاضر بالكتابة عنه ووضعه فى مكانه الذى هو أهل له ودراسته ولو كظاهرة من ظواهر أعلام المسلمين فى العلم البحت الذى قام على التجربة .

كذلك مات فى السنة التالية علم مسيحى من أعلام الطب والترجمة الى العربية وهو وان لم يكن مسلما الا ان الدولة احتضنته وقدمته ككثيرين غيره ممن أغدقت عليهم الأموال فى سخاء ولم تعرف تجاهم تعصبا كالذى كان يلقاه المسلمون حتى فى بلاد تدين بالاسلام ، اما ذلك الطبيب فهو « حنين بن اسحق العبادى » نسبة الى العباد من نصارى العرب القدماء فى الحيرة ، وكان « حنين بن اسحق » هذا يتقن العربية واليونانية وقد عظمت منزلته عند المتوكل ، وترجم من اليونانية كتاب اقليدس وكتاب بطليموس المجسطى وأصلحهما .

هذان مثلان مشرفان لعطف المسلمين على العلم والعلماء دون نظر الى الدين الذى هم عليه ٠

انتصار المسلمين على الزنج أيام الموفق :

ولقد شهد عام سبعين ومائتين للهجـــرة الموفق أبا العباس يضع خطة للقبض على صاحب الزنج الخبيث ، وقد اتخذ الموفق من ناحية فى نهر أبى الخصيب موضعا وفد عليه فيه المطوعة ارتالا ، قدموا عليه من الأهواز والبحرين وكور فارس ، فاختار من بين الجميع ألفى فارس ، ومن الرجالة خمسين ألفا ، ولم يأخذ سواهم لضيق المواضع التى كان الخبيث يعتصم بها ، والتى كانت كثيرة الخنادق والقنوات ، كما كانت كثيرة الأدغال ، ثم أمـــر الموفق الناس الا يتقدم بعضهم بعضا فى الزحف الذى جعل امارته لهم « تحريكه علما أسود نصبه على دار عينها لهم ، وان ينفخ لهم ببوق بعيد الصوت » ٠

وخرج الزنج ، وكانت بينهم وبين المسلمين كرات وكرات ، صبر فيها أصحاب الموفق ، فمن الله عليهم بالنصر ، اذ ولى الأعداء منهزمين بعد مقتل طائفة كبيرة منهم ، وبعد غرق مثلها ٠ أما أصحاب الموفق فقد استولوا على مدينة الفاسق بأسرها وأطلقوا من كان فيها من الأسرى المسلمين ٠

لكن الرواية لم تكن قد تمت فصولا ٠

كانت الخلافة العباسية قد اختارت الموفق أبا العباس لمحاربة الزنج ، وقد صاحبها التوفيق فى هذا الاختيار ، وكان أبو العباس نعم من اختارته لمثل هذا الأمر الجليل ، اذ انطلق فى آثار صاحب الزنج بعد ان ملك مدينة بأسرها وأطلق سراح من بها من أسرى

المسلمين . وفر صاحب الزنج معتصما بجبل وراء نهير اســـمه « اعســاوان » فلم تنله يد الموفق الذى غضب ممن وراءه من ناسه وقومه اذ خالفوا أمره حين أمرهم ان يقيموا بمواضعهم لايبرحونها حتى يحكم الله بينه وبين العدو من الزنج ، فاعتذر اليه أصحابه وسألوه أن يصفح عن زلتهم وزادوا فطلبوا اليه ان يرد السفن التى يعبرون فيها عند خروجهم لحربه حتى تنقطع أطماع الذين يريدون الرجـــوع .

ثم كان صدام بين جند الموفق وصاحب الزنج الخبيث الذى سدت عليه سبل النجاة ففز فأصيب فاحتملوا رأسه الى أبى العباس الموفق فعرضها على من كانوا فى يده من قواد الفاجر فعرفوه ، فخمدت حدتهم ، وبانت عليهم الذلة ، واطمأن خاطر الموفق بموت صاحب الزنج فسجد لله شكرا على ما آتاه من نصر على العدو ، ثم أمر برفع الرأس على قناة طيف بها فى أرجاء المعسكر ليراها الجند .

فت مصرع رأس الفتنة فى عضد أنصــاره وأتباعه ، وأيقنوا ألا قبل لهم ـ من بعده ـ بمحاربة الخلافة ، فتتابع مجىء كبارهم على الموفق مستسلمين فكانوا وحدهم أكثر من خمسة آلاف غير ألف مالوا الى البر فمات أكثرهم عطشا ، واسترق الأعراب باقيهم .

على أنه كان قد بقى من أصحاب اللعين الهالك وأبطالهـــم شيطان مريد يسمونه « درمويه » اتخذ هو ومن معه « زوارق خفافا وسميريات يقطعون بها الطرق على السابلة ، فاذا طلبهم أحد دخلوا الأنهار الضيقة واعتصموا بمواضع الادغال فيها ، فان تعذر عليهم مسلك نهر لشدة ضيقه خرجوا من سفنهم وحملوها على ظهورهم » فلما علموا بهلاك صاحبهم الأكبر بادر « درمويه » الى طلب الأمان

رجاء الصفح عنه فاجيب الى طلبه ، فوافى عسكر الموفق بجميع اتباعه فاحسن أبو العباس اليهم فأظهر «درمويه» كل ما كان في يده وفي أيدي أصحابه من أموال الناس ومتاعهم ، ثم أمر الموفق أن ينادى فى أهل البصرة والأبلة وكور دجلة والأهواز وواسط بالرجوع الى أوطانهم فرجعوا ، ثم بعث الموفق ابنه العباس الى بغداد برأس الخبيث - وكان ذلك فى صفر سنة سبعين ومائتين - فضج الناس بالدعاء لولى العهد اذ رفع الله به عن المسلمين الغمة ، وأزال عنهم الكربة . وكان مما مدح به يومئذ قول يحيى بن خالد :

لقد طابت الدنيـــا وأينع نبتها
بيمن ولى العهد وانصلح الأمر

فعاد الى الأوطان من كان هاربا
ولم يبق للملعون فى موضع اثر

بسيف ولى العهد لاح به الهدى
وأشرق وجه الدين وانهزم الكفر

وجاهدهم فى الله حق جهـاده
بنفس لهـا طول السلامة والنصر

تصحيح خطأ تاريخي عربي وموت باسيل :

ونطالع فى مرجعين عربيين من عيون المراجع العربية وهما تاريخ الطبرى والكامل لابن الاثير انه فى سنة سبعين ومائتين مات « ابن الصقلبية » ويقصدان بذلك الامبراطور باسيل (أو بازيل) الأول البيزنطى وهو خطأ وقع فيه الطبرى ثم نقله عنه ابن الاثير دون تحقيق ، والواقع أن باسيل هذا مات ســـنة ثلاث وسبعين ومائتين أى بعد ذلك بثلاث سنوات ، ثم ورد الخبر الصحيح عنه فى موضع آخر عند الطبرى ذاته حين ذكر أن بعضا من الروم وثبوا على هذا الامبراطور وملكوا أحدهم ، والواقع ان باسيل مات ولم

يتحرك عليه أحد : قريبا كان أو غريبا رغم أن قائده اذ ذاك كان فوكاس فلمـــا مات الامبراطـــور انتقـــل العـرش الى ولديه « ليو السادس » الملقب بالحكيم ثم لاسـكندر ، وكان الامبراطور باسيل الأول او الصقلبي او ابن الصـــقلبية قد حاول عقد حلف مع ملك أرمينية المسمى أشوت باجـــراتد Bagrated لمحاربة الخلافة العباسية والمسلمين فى الشام ، غير أن الامبراطور مات قبل الاتفاق النهائى على الحلف وقبل توكيده بين الطرفين فمات الحلف معه ، ودفع الله عن المسلمين الشر ٠

الحرب بين المعتضد وخمارويه :

وجاء منتصف شوال سنة احدى وسبعين ومائتين ليرى بعين دامية وقلب كسير الوقعة بين المعتضد وبين خمارويه عند ماء بالرملة عند طواحين منصوبة هناك ومن ثم عرفت « بوقعـــة الطواحين » حيث التقى المصافان فانهزمت ميمنة خمارويه ٠ فانطـــلق هاربا وصحبه نفر ممن لم يكن لهم دراية بالحرب ، بل انه هو نفسه لم يكن قد خاض مصافا من قبل ٠

ثم نزل المعتضد مع عسكره العراقى الى خيام خمارويه التى تركها وراءه فباغتهم كمين كان عليه « سعيد الأيسر » وانضم اليه البقية الباقية من جيش خمارويه الذين نادوا بشعارهم ، ووضعوا السيف على غرة فى خصومهم الذين كانوا مشـــغولين بنهب خيام المصريين ٠

ولما فر خمارويه مر على دمشق ثم انطـلق منهـا حتى بلغ طرسوس ٠

وأما سعيد الأيسر « رأس الكمين » فقد أقام أبا العشـــائر (أخا خمارويه) مكان أخيه ، ونادى فى جنده « هذا أخو صاحبكم ،

وهذه الأموال تنفق فيكم !! » ثم وضع العطاء فلم يشغب عليه أحد من العسكر المصرى .

ولما دخل عسكر العراق أرض مصر قال خمارويه لأصحابه : « هؤلاء أضيافكم فاكرموهم » ، فاكرموهم وتذكروا جميعا انهم كلهم أمة واحدة جمع الاسلام بينهم وان فرقتهم الأحداث . ويعلق ابن الأثر على ذلك بقوله « انه فعل فعلة لم يسبقه الى مثلها أحد قبله » . وكان لوقعة « الطواحين » وما فعله الكمين اهمية كبرى لأنها أكدت سلطان البيت الطولونى ، وصدق أبو المحاسن اذ قال « انها ردت الدولة على بيت ابن طولون » .

الحرب الاقتصادية بين بغداد وسامراء سنة ٢٧١ هـ :

وفى رمضان من سنة احدى وسبعين ومائتين كانت هناك حرب من نوع جديد هى حرب اقتصادية بين مدينتين من مدن العراق هما بغداد وسامراء ذاك أن أهل سر من رأى منعوا انحدار السفن بالطعام والدقيق الى بغداد ، فقام أهل بغداد من جانبهم ومنعوا الزيت والصابون والتمر وغير ذلك من مواد الطعام من أن تحمل الى سامراء فاشتد الغلاء وارتفعت الأسعار ارتفاعا فاحشا .

ويرجع الطبرى سبب ذلك كله الى قيام « أحمد بن محمد الطائى » بمنع أرباب الضياع من عرض الطعام وبيعه ، وهو اذ يفعل ذلك انما يفعله حتى ترتفع الأسعار فيبيع ما عنده فيكسب كثيرا . وكان الطائى هذا يلى الكوفة وسوادها وطريق خراسان وسامراء وشيئا من ضياع الخاصة ، وقد أغمضت الخلافة عينها عن نزعته للاثراء وجشعه مما أنساه ما يفرضه عليه الواجب من مراعاة الخلق ، وبلغ من تدنى أعماله أن حمى القرامطة ــ وهم كفار المجتمع .. حين استفحل شرهم بالكوفة ، ووظف كما يقولون « على كل واحد منهم دينارا كل سنة ، فجبا من وراء ذلك أموالا ضخمة » .

اضطراب الأمن فى الربع الأخير من القرن الثالث الهجرى :

وشهد الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة اضطراب حبل الأمن في عدد ليس بالقليـل من بلدان الخلافة ، وليس أدل على ذلك مما حدث سنة أربع وسبعين ومائتين من اختلال ناموس الحياة العامة اذ تحول حامى الطريق الى قاطعه ، فقد كان أحدهم (واسمه صديق الفرغانى) يخفر المسـالك ويؤمن عابريهـا الذين كانـوا يظنون الأمان والطمأنينة فى مسيرهم ليلا أو نهارا ، لكنه ما لبث ان تحول ـ كما يوصف ـ الى لص « مخرب يقطع الطريق » ويستولى على الابل فى الصحراء ، ثم انه دخل سـامراء وأغار على بعض دورها وأطلق من سجنها بعض الأشرار ، ونهب أموالا طائلة من أكثر تجـارها فتفاقم شره ولم يعد ذلك خافيا على أحد ، وضج الناس قاصيهم ودانيهم ، فوجه الطائى اليه وكأنه كره ان ينافسه منافس ، أقول وجه اليه فى سامراء جيشا احتال به عليه حتى نزل اليه مع جماعة من أمثاله « فقطع الطائى يدا واحدة ورجلا واحدة لكل واحد من هذه الجماعة » ثم حملهم فى محامل الى بغداد ، وأمر فابرزت الأرجل المقطوعة والأيدي المبتورة حتى يراها الناس ليطمئنوا فاطمأنـوا .

حين انشأ المعتصم مدينة سامراء ارادها ان تكون عاصـمة تنافس بغـداد عمرانا وازدهـارا واطمئنانا ، فكان له ما أراد وللخلفاء من بعده ، وظل الأمر عن هذه الصورة حقبة من الزمن ، غير ان الوضع تغير سـنة خمس وسـبعين ومائتين ، فاضطرب الأمن ، وبات الناس وجلين لايعرفون لمن يلجئون حين « تصعلك » كما يقولون رجل كان مرموقا ومرجوا يعرف « بفارس العبيدى » ولم يلبث أن التف حوله لفيف « تصعلكوا » هم أيضا مثله وساروا مسيرته العوجاء ، فبثوا واياه الذعر فى النفوس ، وسار بهم كثيرهم

الذى علمهم « الصعلكة » وسنها شريعة لهم الى سر من رآى ، غير ملقين بالا الى أنها من كبرى مدن العراق وبها خيرة جنده وشرطتـــه ، وأنها عاصمة أخرى للخلافة ، فنهبوا ما وصلت اليـــه أيديهم ، وحينذاك سار اليهم الطائى (وكان بيده أمر الأمن) فاقتتل واياهم فهزمهم وهزم كبيرهم ، وأخذ سواده ، ثم ركب سفينة له ليعبر دجلة بما أصابه منه ومنهم ، فأدركه بعض أصحاب العبيدى وتعلقوا بمؤخرة سفينته فخافهم الطائى على نفسه وكره شرهم فرمى بنفسه فى الماء وسبح ، فلما خرج سالما ازدهاه ما استولى عليه من العبيدى وتباهى وقال لأصحابه « ايش ظن العبيدى ‥ ؟ ألست أنا أسبح من سمكة ٠ ؟ » ، ثم نزل الى الجانب الشرقى ونزل الآخر الجانب الآخر وكلاهما يتربص لصاحبه فقال أحدهم -

قد أقبـــل الطائى ، لا أقبـــلا قبح فى الأفعـــال ما أجملا

فـــكره الخليفة أن يضطرب حبل الأمن وهو الحريص على استتبابه ، وكره أكثر من ذلك ان تضطرب الأمور على يد رجل من عماله وهو الطائى فأمر بأن يختم على حواصله وعلى كل ما يملك وزج به هو ذاته فى السجن ، فأعاد بذلك للشرطة هيبتهـــا ‥ والشرطة هى العين التى لا تغفل ولا تنام عن رعاية الرعية وتبث الطمأنينة فى نفوس الناس ، وتظـــل يقظى والنـــاس غافون فى مضاجعهم لا يشـــغل بالهم شـــاغل فان كان للبيت رب يحميه فللناس من الشرطة درع يؤمنهم ويحفظهم ٠

الولاة والعمال يحاربون الروم لحسابهم الخاص :

ونلاحظ فى العقدين الثامن والتاسع من القرن الثالث للهجرة أن بعض حروب الاسلام ضد الروم وغيرهم كانت بتدبير الولاة والعمال لحسابهم الخاص أكثر مما تكون دفعا لشدة من جانب

العدو أو خطر يتهدد الخلافة أو لحماية الثغور والعواصـــم والمدن والمســالك والدروب • ومن الأمثلة على صـــدق هذا المذهب تلك الغزوة التى قام بها أحد كبار رجال الدوله المعروف بيازمان والذى عرفناه من قبل ، وكانت غزوته هذه المرة فى البحر ضد الروم سنة خمس وسبعين ومائتين ، وقد غنم فيهـــا مـــن البيزنطيين أربع مراكب ، كما قام من تلقاء نفسه بعد ذلك بثلاث سنوات على رأس طائفة انضم اليه فيها أحد العمال واسمه « أحمد العجيفى » فوصلا الى « شكند » وكادت أن تسقط فى يد « يازمان » لولا أن أصابته شظية حجر منجنيق فى ضلوعه فحمل الى طرســـوس فمات فى الطريق اليها فأخذوه اليها فدفن بها •

والحق أن « يازمان » هذا كان غرة فى جبين الدولة وممن يعتز بهم الاسلام فى تلك الفترة ، وما حياته الا سلسلة من حروب ضد الكفار حتى ولم يندبه الخليفة اليها •

ويحدثنا التاريخ انه فى سنة ثمانين ومئتين دخل «أحمد بن أبا» طرسوس غازيا من قبل خمارويه ودخل بعده بدر الحمامى وانضم اليهما « العجيفى » فاوغلوا حتى بلغوا « البلقسون » وهكذا انتقل عبء توجيه حركة الجهاد الى الأمراء والعمال والولاة •

كذلك نطالع فى حوليات سنة أربع وثمانين ومائتين قيام أحد الأتراك واسمه « راغب » وكان مولى الموفق بفتح مدينة « قرة » من بلاد الروم ، والعجيب أنه لم يدفعه الى ذلك أحد ولكن دفعته الرغبة فى ضرب أعداء الملة ، وربما كان هدفه الكسب •

بعض وفيـــات هذه الفترة :

ومات فى هذه الحقبة من أعلام الاسلام « ابراهيم بن أسحق الحربى » الذى كان واحدا من أبرز الناس فى الفقه والحديث .

كما أنه جمع الى الزهد العبادة ، وقد وتخرج بالامام أحمد بن حنبل ، بل ان بعضهم كان يقيسه بابن حنبل ذاته فى الزهـــد والورع والعلم ، ونعته الذهبى بالامام الحبر .

كذلك مات في هذه الفترة صاحب المسند « أحمد بن محمد بن عيسي بن الأزهر » وكان له القضـــاء بالجانب الشرقى من بغداد فترة من الزمن ، وقد حمد الناس سيرته فيه ، اذ كان يحق الحق غير عابىء ان تلحقه من وراء ذلك مضرة .

ولم تخل كتب المؤرخين من أمـــور ان صحت كانت عجيبة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، وان كان العقل ينكرها ، ومن أمثلة ذلك ما يرد فى بعض المراجع من انه فى سنة ست وسبعين ومائتين من أن تلا يعرف « بتـل شقيق » عنـد نهر الصلح (وقد يقال له « فم الصلح » فوق واسط بالعراق قد انفرج عن سبعة قبور فيها سبعة أبدان صحيحة ، « والأكفان جدد تفوح منها رائحة المسك » ، وأحدها لشاب له جمة طويلة طرية وقد تدلى شعره من الرأس الى شـحمة أذنه ، والعجيب انه لم يتغير شيء من هـذا الشعر ، ورأى الناس فى خاصرة هذا الشـاب ضربة ــ فعجبوا مما رأوا فردوا على الشاب أكفانه .

هكذا جاءت الرواية فى بعض كتب التـــاريخ . ولنستمع الى ما يقوله الطبرى اذ يعلق على هذا الخبر بأن « بعض أصحابه » حدثوه انه جذب من شعر بعضهم شعرا فوجده « قوى الأصل » . ويلاحظ أن الطبرى لم يؤكد هذا الخبر ولم ينفه ، بل عرضه وقال فيه ما سمعه .

عدالة القاضى يوسف بن يعقوب :

وفى سنة سبع وسبعين ومائتين حمد البغاددة يد والى المظالم عليهم وهو « يوسف بن يعقوب » أما اليد التى شكروه عليها فكانت أمره ان ينادى فى الناس « من كانت له مظلمه ولو عند الأمير الناصر لدين الله الموفق أو عند أحد غيره من الناس • فليحضر » وكان يوسف بن يعقوب صادقا فيما أعلنه فقد كان رجلا لا تأخذه فى الحق لومة لائم : عـرف بهذا من قديم منذ أن عرفه الناس واليا على قضاء البصرة وواسـط والجانب الشرقى من بغداد ، وعرفوا فيه أنه يتحرى الحق ولا يعنيه غير الحق ، كما لا يعنيه أن لا يقع حكمه من أحد ما موقعا لايجد هوى عند هذا الواحد • ومما يذكر له فى هذا الباب ما حدثوا به من أنه جاءه أحد خدم الخليفة المعتضد ذات يوم من الأيام معتزا بما هو عليه من قدرة وجبروت ، وما له من قدر عند صاحب الأمر ، لكنه ترفع فى مجلس القاضى على خصمه وتعالى ادلالا بمكانته عند الخليفة ، فطلب القاضى يوسف من حاجبه ان ينادى على دلال العبيد لبيع غلام الخليفة فى سوق العبيد وليبعث بعد ذلك بثمنه الى الخليفة ، وكان القاضى جـادا فى طلبـه ، فأجلس الحاجب الخـادم حتى اذا فصل فى الأمر عاد الخادم الى الخليفة شاكيا له متذمرا مما جرى عليه من جانب يوسف بن يعقوب ، ولكن الخليفة كان أحرص من ان ينصر خادمه على القاضى فيكون قد نصر الظـلم على العدل اذ قال : « والله لو باعك لأجزت بيعه ، ولما استرجعتك أبدا •• ليست خصوصيتك عنده تزيل مرتبة الشرع فانه عمود السلطان وقوام الأديان » •

لقد وجد أهل بغداد فى هذا القاضى يوسف بن يعقوب خير قاض فى المظالم ، ينصفهم من جور الغلمان والجند والأتراك ، وكان النور الهادى فى الليلة الظلماء •



لقد كانت ولاية المعتضد بن الموفق فى سنة تسع وسبعين ومائتين ، وكان أخذه الولاية بفضل عمه المعتمد اذ أخر ولده وقدمه هو عليه ، ورحب الناس بهذه الخطوة من جانب المعتمد ، كما رحب الناس بالمعتضد وكانوا يأملون فيه خيرا ويرجون ان يكون عهده تجديدا لشباب الخلافة واستقبلوه أحسن استقبال حتى قال أحدهم يهنئه :

ليهنك عقـــد انت فيه المقـدم
حبـــاك به رب بفضـــلك أعلم
فان كنت قد أصبحت والى عهـدنا
فأنت غدا فينـــا الامام المعظـــم
ولازال مـــن والاك فيــه مبلغـــا
منـاه ، ومن عاداك يخزى وينـــدم

بعض من ماتوا فى هذه الفترة :

ومات فى هذه الفترة بعض كبـــار رجالات الدولة فى الفقـه والحديث ، منهم محدث « حـران » التى هى قصبة « ديار مضر » الحافظ « ســـليمان بن ســـيف » أبو داود . كما مات معـه « آحمد بن رستم الحافظ أبو جعفر الأصفهانى الذى كان واحدا من كبار الحفاظ الثقات ، وكانت اليه الرحلة فى طلب العلم وفروعه ، وكان موصوفا بأنه « صاحب صلاة وتعبد راجتهاد ، وكان سخيا بالمال الذى يصل اليه فى سبيل العلم حتى ليقال انه أنفق على تحصيله مائة ألف درهم وهو فرد ، ولذلك سماه الذهبى « بالزاهد ، ولو انه أراد متـــاع الدنيـا لكان له منهـا فوق الذى يطمع فيه الطامعون » .

وممن رحل عن هذه الدنيا من كانت اليه الرحلة فى الحديث والفقه ورجاله « أبو حاتم الرازى » الحنظلى ، وكان عارفا بعلل

الحديث والجرح والتعديل ، وكان لا يسمع بمحدث ثقة حتى يهرع اليه وان بعدت الدار وشط به المزار ، لا يضيره تعب ، ولا تضنيه مشقة ، ولا يحول بينه وبين هذا الذى يسعى اليه عناء ، لذلك نراه يرحل الى خراسان والعراقين والحجاز واليمن والشـــام ومصر ، فاذا وصل الى هناك ونال غايته من لقاء هذا المحدث أو ذاك فقد وجد الراحة العظمى وزال عنه كل تعب ، فلا عجب ان كان علمه بالحديث بغية كل مؤمن ، وغاية كل منشد للصواب ٠

اشتداد النقرس وداء الفيل بالخليفة وولاية المعتضد وجفاف النيل :

ثم لما كانت سنة ثمان وسبعين ومئتين اشتد النقرس بالموفق أخى الخليفة المعتضد ، ثم اعتل فى رجله بداء الفيل فزاد من كربه حتى صار الموت أطيب اليه من العيش الذى لا يخلو لحظة من فادح الألم الذى لايدرى له علاجا ولا يهدأ له بال معه ولا يجد شيئا من الراحة ، وأرجف المرجفون بخبر موته ومنهم من قالوا ان موتــه قريب ، فلبس جند كل أمير سلاحهم ، ثم كانت وفاته التى أراحته من العذاب ، وكانت هذه الوفاة فى شهر صفر من السنة ذاتها وان اختلفت المصادر فمنها من تجعل مفارقتــه الدنيا لثمان بقين من صفر من الســـنة ٠ ومنها ما تجعلها ثانى عشر هذا الشهر ، ومهما يكن الواقــع فقد بايــع القواد والغلمان لأبى العباس بولاية العهد ولقب بالمعتضد بالله ، وقد أخرج للجند العطاء ، وخاف البعض ممن كان اليهم ديوان السواد فاختفوا ، ثم جاءت الأخبار من مصر بأن نيلها غارت مياهه حتى كان الناس يسيرون فيها بلا خوف البلل ولا نقول الغرق ،فنجم عن ذلك الغلاء المفرط الذى امتد بطبيعة الحال الى الريف المصرى ، ومن المعروف ان حياة الناس فى مصر تتوقف على النيل فان أوفى كانت الحيـــاة هنية ، وان جف فقد حلـــت المجـــاعة ٠

وفي سنة تسع وسبعين ومائتين هال المعتضد بالله قول الناس أن أكثر الأقاليم سوف تغرق فى شتاء تلك السنة بالمطر وما شابهها من أقوال يأباها المسلم الذكى الصحيح الفهم للاسلام ، ولذلك فان الخليفة أمر الا « يقعد على الطريق ببغداد ولا فى المساجد قاص ولا صاحب نجوم ولا زاجر » ، وكان المنجمون قد أشاعوا بين الناس أن أكثر الأقاليم سوف تغرق فى شتاء تلك السنة بالمطر والسيول وزيادة الأنهار ، فصدقتهم العامة وخرج الناس الى «الكهوف فى الجبال » فكذب الله ما أشاعه المنجمون ، اذ لم يكن ثم شيء مما الجبال » فكذب الله ما أشاعه المنجمون ، اذ لم يكن ثم شيء مما زعموا زعموا وما كان زعمهم الا رجما بالغيب وفرية كاذب .

منع كتب الفلسفة :

ثم أخذ أبو العباس الايمان الموثقة على باعة الكتب الا يبيعوا كتب الفلاسفة والجدل والكلام ، والحق أن أبا العباس كان رجلا واعيا ، قد تمرس بالحروب وعركها ، كما كان مهيبا عند الناس فسكنت الفتن فى أيامه كما يقول السيوطى لفرط هيبته ، كما أنه أسقط المكوس ، وجدد ملك بنى العباس حتى قال فيه ابن الرومى :

هنيئا بنى العباس ان امامكم
امام الهدى والباس والجود احمد

امام يظل الأمس ينظر نحوه
بلهفة ملهوف ويشتاقه الغد

كما بأبى العباس انشىء ملككم
كذا بأبى العباس أيضا يجدد

تغيير نوروز العجم الى النوروز المعتضدى وحسناته الأخرى :

ولا نحب أن نترك المعتضد قبل أن نقول انه بعد سنوات قلائل (أعنى سنت ثنتين وثمانين ومائتين للهجرة) أمر بتغيير

نوروز العجم الذى هو افتتاح الخراج ، وأخره الى حادى عشر حزيران (يونيو) وسماه « النوروز المعتضدى ، وذكروا ان قصده من ذلك « الرفق بالرعية » • ربما كان فى السنة شىء من الخلط فى كتب المؤرخين •

كما أنه منع الناس مما كانوا يفعلونه فى كل سنة من ايقاد النيران وصبهم الماء على غيرهم من النـاس ، وقال بعض كتاب التاريخ « كان ذلك من أحسن أفعاله » •

ومن حسناته أيضا أنه كتب الى الآفاق أن يورث ذوو الأرحام وأن يبطل ديوان المواريث • وكان العمال يكفون عن المظالم خوفا منه وهيبة له وتقديرا لشهامته •

دخول أبى عبد الله الشيعى داعى دعاة المهدى الى القيروان وظهور الدعوة الشيعية :

ونرجع الى الوراء قليلا لنقول انه لما كانت سنة ثمانين ومائتين دخل داعى المهدى الى القيروان وهو أبو عبد الله الشيعى « الحسن ابن أحمد الصنعانى » نسبة الى صنعاء اليمن والذى قد يرد فى بعض المصادر الاسلامية العربية باسم « الصوفى » نسبة الى لبسه الصوف الخشن ، وقد يسمونه حينا آخر بالمحتسب • وقد ضرب فى كثير من بلاد الاسلام كبغداد ومكة واليمن يدعو بدعوة المهدية سرا ، والسرية أول أركان أى دعوة لاسيما ان كانت فى الغـالب تهدف الى تمرد أو ثورة أو بمصطلحنا الحديث تدعو الى « انقلاب »• واستطاع أبو عبد الله الشيعى هذا أن يستميل اليه فريقـا من حجاج كتامة ، الذين جذبهم اليه ما شاهدوه فيه من ورع ، فألحوا عليه – وهو راغب وان كان يظهر التمنع – أن يصحبهم الى بلادهم بالمغرب وقد استمال اليه فريقا من البربر ، ثم قال لرجال كتامة « أنا صاحب البذر الذى أخبر به أبو سفيان والحلوانى » •

واتخذ هذا الداعية الشيعى من « فج الأخيار » دار هجرة فى كتامـة ٠

ثم تحول هذا الداعية الدينى الشيعى الى مقاتل جمع تحت رايته كثيرا من المحاربين من أهل تلك النواحى واستفحل أمره ٠ على أنه كان من أشد المعـارضين له « ابراهيم الأغلبى » وكانت بينهما مراسلات أظهر فيها أبو عبد الله استهانته بالأغالبة فتطور الحوار بينهما الى قتال ٠٠٠ وكان ذلك كله ـ الى جانب أمور أخرى ـ سببا فى قيام الفاطميين فى المغرب بعد قليل ثم اقامتهم خلافـة مستقلة فى مصر تشغل مساحة زمنية ومساحة جغرافية وليكون لها أثر كبير فى مجريات الأمور فى عالم يومها وفى عالم غدهـا وليكون لها أصدقاء ولها خصوم ٠

موت الترمذى جامع الأحاديث :

ولقد مات من أئمة الحديث النبوى الشريف الترمذى : محمد ابن عيسى ، وكتابه « الجامع » أحد الكتب الستة التى اليها المرجع فى هذا الباب وكانت وفاته سنة تسع وسبعين ومائتين ٠

وقد سمع قتيبة وأبا مصعب وطبقتهما ، وكان ضريرا ولكنه كان ألمعيا ، حافظا ، ثقة ، عالما ، حتى قالوا « تجمعت فيه ثلاث خصال : الأمانة والامامة والعلم » ، فانعكست فيما ترك من آثار موثوق بها ٠ ولما كان فى « سمرقند » ألف كتاب العلل ، وكان بما تركه وراءه من كتب ما جعله ثقة ، حتى لقد ذكره الحافظ أبو حاتم فى « كبارهم » ٠

رحمه الله بقدر ما نفع به المسلمين من علم فى السنة والحديث الشريف ٠

تنازع الولاة فى الأندلس واضطراب البلاد :

وننطلق فى هذه العجالة من الشرق الى الغرب حيث الأندلس، ومن رحاب العلماء الى صراع السياسة والساسة فنرى ان بلاد الأندلس كانت تمر فى هذه الأثناء بدور من الاضطراب من جراء تنازع الولاة فيها فيما بينهم ، وتطلع كل منهم الى ما فى يد الآخر رغم انّ كلا منهم غير قادر على المحافظة على ما فى يده وذلك منذ الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة • ولقد لاحظ ابن الخطيب مؤرخ الأندلس هذه الأمور المؤلمة فقال « ان السبب فى كثرة الثوار بالأندلس ثلاثة وجوه : الأول منعة البلاد وحصانة المعاقل ، وأما الثانى فشموخ الأنوف وقلة الاحتمال لثقل الطاعة ، وأما الثالث فالاستناد ــ عند الضيقة ــ الى المعقل الأعظم من ملك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض » ••• هذا ما يقوله ابن حيان ابن الأندلس وعالمها ومؤرخها ، والقول ما قاله ابن حيان ، وأهل مكة أدرى بشعابها ، فان جئت الى الأندلس فابن حيان ابنها ولا ينبيك مثل خبير •

ويصدق عندنا قوله حين نرى (فى سنة ثمانين ومائتين للهجرة) قيام ألفونسو الثالث ملك « جليقية » النصرانية بالاستيلاء على « سمورة » التى تعتبر من أمنع المدن فى الحدود الشمالية الغربية ، فلما صارت فى يد هذا الصليبى المتعصب الحاقد جعلها نقطة ارتكاز له ولوثوبه العدوانى على الأراضى الاسلامية المجاورة ، وكان يرقب كل ما يجرى فى الساحة الاسلامية بالأندلس ليقذفها بالنار ، لذلك رآى الفرصة مواتية عند قيام أحمد بن معاوية المعروف « بابن القط » بالادعاء بين البربر بأنه المهدى ، وكان ابن القط هذا من ولد هشام بن عبد الرحمن ، ولكى يبرر ابن القط دعواه ويحسن موقفه فى نظر مسلمى الأندلس وعند من يستمعون الى زعمه فانه دعا « الفونسو » الى الاسلام ، فان لم يستجب له حاربه ،

قال هذا وهو يعلم أنه لا يملك القوة الكافيـــة لحربه ، بل انه لا يستطيع ذلك أصلا ، وانما اتخذ ابن القط هذه الدعوى للاستهلاك المحلى فكانت جعجعة بلا طحن ووهما باطلا ، ولم يمش ذلك على الأمراء الأندلسيين فلم يناصره أحد منهم ، ولم يفت الفونسو صدى هذا الدعوة وأدرك أن ابن القط لن يجد له معينا ومن ثم ضربه الفونسو ضربة أصرت به ضررا بليغا فقضى على قواته ، كما سقط هو ذاته قتيلا ، وأراد الفونسو أن يبالغ فى الانتقام من هذا الرجل وليكون عبرة لغيره ممن قد تحدثهم أنفسهم بالوقوف فى وجهه فأمر ـ وهو فى سورة غضبه ـ بحز رأس ابن القط وعلقهـا على أحد أبواب « سمورة » ورسخ ـ للأسفـ ـ نفوذ الملك الجليقى هناك ، لاسيما بعد أن أخذ فى التعاون مع « ابن حفصون » ضد حكومة قرطبـة الاسلامية ، وزاد نفوذ الملك المسيحى الأسبانى حتى ان طليطلة دفعت له الجزية ولم تكن طليطلة بالكافرة حتى تدفع له الجزية ، ولكن لسان حالها يقول :

واذا فرق الرعاة اختلاف   علموا هـارب الذئاب التجرىء



البلغار يحاصرون القسطنطينية سنة ٢٨٣هـ :

وترد فى المراجع الاسلامية الاشارة الى محاصرة القسطنطينية سنة ثلاث وثمانين ومائتين للهجرة من جهة جماعات تسميها هذه المراجع بالصقالية ٠

وتشير هذه السـنة الى أن متولى العرش ببيزنطة كان ليو السادس ٠

وتمضي الرواية العربية فتذكر أن هؤلاء الصقالبة خربوا مدنا كثيرة ، وأن جيوش الروم عجزت عن ردهم ، فاستعان الامبراطور « ليو » بمن عنده من الأسرى المسلمين واعطاهم سلاحا كثيرا فخرجوا وكشفوا الصقالبة ، ثم خاف ليو من المسلمين فردهم وأخذ السلاح منهم .

وأكثر ما يعنينا هنا هو اننا لا نجد ذكرا للصقالبة فى أى هجوم على القسطنطينية فى هذا العقد من القرن الثالث للهجرة ولكنا تطالع فى الحوليات البيزنطية أن البلغار ـ بقيادة ملكهم سيمون وكان مسيحيا ـ كانوا على علاقات غير ودية مع الروم عقب تولى «ليو» العرش البيزنطى ، وأنهم هاجموا عاصمته فاستعان بالمجريين الذين ظهروا على مسرح التاريخ البيزنطى لأول مرة حينذاك ، وعلى هذا فأغلب الظن ـ ان لم يكن الأرجح ـ أن صقالبة المراجع العربية فى هذه الفترة بالذات انما هم « بلغار » سيمون ابن بوريس الذى كان قد تنصر منذ قريب والذى حاول الامبراطور أن يثنيه حتى لا يهاجم عاصمته بحجة الرباط المقدس المسيحى الذى يربط بينهما . وأما المسلمون الذين استعان بهم « ليو » والذين تقدرهم المراجع العربية بثمانى مائة رجل فقط فالأرجح انه أرسلهم ـ وما كان لهم من خيار ـ كربيئة لمعرفة خبر عدوه .

عملية فداء جديدة بين الروم والعرب سنة ٢٨٣ هـ :

ولقد تم فى نفس السنة (سنة ثلاث وثمانين ومئتين للهجرة) عملية تبادل الأسرى بين المسلمين والروم واستغرقت هذه العملية مدة اثنى عشر يوما ، وكان جملة من فودى به من المسلمين من الرجال والنساء والصبيان ألفين وخمس مائة وأربعة أنفس ، وكان ممثل المسلمين « أحمد بن ضوغان » وممثل الروم « سيمون » النائب الامبراطورى ، وتم اللقاء عند « اللامس » ككل مرة قرب طرسوس .

وورد على مقام الخلافة كتاب من طرسوس جاء فيه بعد البسملة بعلمها أن أحمد بن طوغان نادى فى الناس بحضور الفداء يوم الخميس لأربع خلون من شعبان وانه قد خرج الى « لامس » (وهو معسكر المسلمين) يوم الجمعة وأمر الناس بالخروج معه فى هذا اليوم فصلى الجمعة وركب من مسجد الجامع ومعه « راغب » ومواليه ، وخرج معه وجوه البلدة والموالى والقواد والمطوعة بأحسن زى ، فلم يزل الناس خارجين الى « لامس » الى يوم الاثنين لثمان خلون من شعبان فجرى الفداء بين الفريقين اثنى عشر يوما » •

ان كثرة الفداء بين الجانبين بين آن وآخر دليل على ما كان هناك من حروب متعددة بين الجانبين يحزن فيها كل منهما على من فقده : موتا وأسرا •

الحرب فى الشمال الافريقى :

أما المغرب الافريقى فقد كان جزء منه تحت حكم الدولة الرستمية التى بأيعت فى منتصف القرن الثالث الهجرى تقريبا بالأمامة « ابا اليقظان محمدا » الذى وجد البلاد فى حال مفزعة من الفوضى والفتن الداخلية والاضطرابات ، فبذل من جهده ووقته ونشاطه وتدبيره ما قضى على كل هذه المساوىء وأقام قوة اسلامية خالصة ساعدت قائده « أبا المنصور الياس النفوسى » على أن يرد العباس ، وكان ذلك استجابة لاستغاثة أهل طرابلس أتباع الرستميين ، ودارت الدائرة على جيش العباس وترك وراءه من الموتى والسلاح والخيل والعدة الشىء الكثير ، لكن أهل « نفوسة » امتنعوا عن أخذ شىء منها •

أما أبو اليقظان فقد أحسن السيرة وأقام ميزان العدل ، وجعل الايمان شريعة له ، وأنزل الناس من عرب وعجم وبربر على

حكم الملة ، فلم يشغب على امامته شاغب ، بل أحبه الجميع وأكبروه وظل فى الامامة أربعين عاما ٠

★★★

أبو العباس وصقلية سنة ٢٨٧ هـ ودخوله « بلرم » بعد هزيمته قوما من أهلها :

وفى سنة سبع وثمانين ومائتين للهجرة استعمل ابراهيم ابن أحمد الأغلبي أمير أفريقية ابنه أبا العباس على صقلية وأرسله في مائة وعشرين مركبا ، ونزل أبو العباس فى طريقه على طرابلس الغرب فاتحا لها ، فجاءته جماعة من أهل « بالرم » فقاتلوه فهزمهم ففروا من وجهه فانطلق فى آثارهم الى « بلرم » ثم لم يجدوا سبيلا للنجاة الا بالفرار الى بعض بلاد النصرانية فدخل أبو العباس المدينة وأمن أهلها ، ثم بعث بطائفة من وجوه أهلها الى أبيه بأفريقية وراح يزيد من أسطوله حتى اذا اطمأن اليه مضى الى « مسينا » فتغلب على البيزنطيين ، واستولى على بعض مراكب صاحب القسطنطينية ، ثم عاد الى أفريقية استجابة لأمر أبيه الذي ولاه أمرها ، فكتب الى العمال كتابا ليقرأ على العامة يعدهم فيه بالاحسان والعدل والرفق ، ويوصيهم بالجهاد ٠

مهاجمة الروم قلمية فى آسيا الصغرى وخروج أبى ثابت لطردهم وهزيمته وأسره :

وفى ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ومائتين تحرك الروم أيام امبراطورهم ليو المعروف عندهم بالفيلسوف فى آسيا الصغرى ووافوا أبواب « قلمية » واذ ذاك نهض لدفعهم أمير طرسوس وأسمه أبو ثابت وتقدم بمن معه من العسكر الاسلامى حتى بلغ نهرا يسميه العرب « بالريحان » ، وقاتل أبو ثابت الروم فأسروه

هو وجماعــة من المسلمين المجاهــدين والمطوعــة ونقلوهـــم الى القسطنطينية والى حصن « قونية » ، وعجب آسروهم من أن فيهم من لم يجزع ولم يطر قلبه شعاعا ، وازداد تعجبهم من أن البعض منهم لم يتناولوا طعاما فلما سألوهم قالوا أنهم صائمون .

على أن هذه الوقعة لم تكن من الوقائع الفاصلة ولا الكبرى ، ولكنها كانت أقرب ما تكون الى حرب المناوشات .

وربما كان الذى شجع الروم على هذا العدوان الآثم الذى لم يكن له ما يبرره ما كانوا قد علموه من استفحال شأن القرامطة بالبحرين وشأن أذنابهم فى غيرها من البلاد ، وانشغال الخلافة بهم . وعلى أية حال فقد وطن أهل ثغر طرسوس أنفسهم على الجهاد وسرعان ما جمعوا شملهم واجتمع المشايخ من أهل الثغر واتفقوا على أن يولوا عليهم « عليا بن الأمرانى » مكان أبى ثابت ، فأحسنوا الاختيــار .

★★★

وفاة الضحاك والبغوى محدث مكة وخروج وصيف التركى :

ولقد مات فى هذه السنة من أعيان المسلمين الحافظ المحدث أحمد بن عمرو بن أبى عاصم الضحاك الذى جمع بين العلم الشريف وقضاء أصبهان ، وقد أثر عنه أنه كان يقول : « لا أحب أن يحضر مجلسى مبتدع ولا مدعى ، ولا طعـــان ولا لعـــان ، ولا فاحش ولا بذىء » .

كذلك مات محـدث مكة على بن عبد العزيز ، أبو الحسن البغوى ، والاسم فيه منسوب الى بلد من بلاد خراسان ، وقد سمع أبا نعيم وطبقته .

وشهدت سنة سبع وثمانين ومائتين للهجرة اضطراب النواحى الشمالية والشرقية من بلدان الخلافة العباسية كما شهدت وقوع الأمير طرسوس ابن ثابت أسيرا فى يد الروم فغضب المسلمون من ذلك الأمر المحزن وحق لهم أن يغضبوا ، وحق لهم أيضا أن يفكروا فى الانتقام ، غير أنهم اتبعوا طريقا جانبهم فيه الصواب بالنسبة للخلافة وذلك حين أجمع « وصيف التركى » (خادم ابن أبى الساج) على مفارقة سيده فى طائفة من أصحابه وهرب من « برذعة » الى « ملطية » ، ثم كاتب الخليفة المعتضد بالله يسأله أن يوليه أمر الثغور ، وبعث بطلبه هذا مع ثلاثة من أتباعه فامسكهم الخليفة وقررهم على صاحبهم فأقروا عجبا ، اذ قالوا أو قال أحدهم أنه فارق مولاه ابن أبى الساج على مواطأة بينهما انه متى ولى « وصيف » الثغور سار اليه مولاه وقصدا « ديار مضر » وتغلبا عليها فى غفلة من الخلافة » ، حينذاك بعث الخليفة فى ذى القعدة بعثا قاتله وأحضره أسيرا مكبلا ، ثم أمر المعتضد أن ينادى بالأمان فى أصحاب « وصيف » ، وأن يرد اليهم ما أخذ منهم ، فاستمال بذلك قلوبهم ، ثم قبض على رؤساء « طرسوس » لمواطأتهم وصيفا الخادم ، غير ان الخليفة أمر باحراق مراكب طرسوس ظنا منه انه بذلك يكيد أصحابها ، ولكنه لم يكن يكيد فى الواقع الا المسلمين فقد كانت هذه السفن عتادهم فى محاربتهم الروم بحرا ، وكان أهل طرسوس يتحملون العبء الأكبر فى مجاهدة الروم الذين طمعوا فى مسلمى تلك الناحية اذ رأواهم فى ضعف ، وكان ذلك بعد قليل .



قلق الخلافة على مصر :

أما مصر فقد شغلت أحداثها بال الخلافة العباسية فى العقد الأخير من القرن الثالث للهجرة ، اذ تدهورت أحوالها زمن المكتفى

حين عدمت القيادة الحازمة والربان الماهر الذى يأخذ بدفة سفينتها فى بحر الأحداث اللجى، وكان عليها يومذاك «هرون بن خمارويه» ، الذى كانت الوحشة قد دبت بينه وبين الخليفة المعتضد الذى اغتنم فرصة هلاك الكثيرين من رجال خمارويه وانصاره فى حروبهم ضد القرامطة بالشام ، فخلع الخليفة على جماعة من القواد الخلع وندبهم للمسير الى دمشق لأخذ ما كان بيد « هرون بن خمارويه » من الأعمال ، فخرجوا بقيادة « محمد بن سليمان » فى نحو عشرة آلاف مقاتل الى مصر ، وتحارب الجانبان فكانت الغلبة لجند الخلافة ، ودار القتل على هرون وأهله وشيعته ، واستصفت الدولة أموالهم وأملاكهم ، وانتهى البيت الطولونى ليبقى ذكرى فى الأذهان وحادثا من أحداث التاريخ على الرغم من المحاولة التى قام بها « شيبان » عم هرون فى اقامة البيت الطولونى من جديد ، ولكنها محاولة باءت بالفشل حتى قال قائلهم :

أصبحت تطلب شيئا عــز مطلبــه
هيهــــات ··· صـــدع زجاج ليس ينجبر

ثم كتبت الخلافة الى واليها بمصر فى ارسال جميع من بقى من آل طولون وقوادهم الى بغداد ، وألا يترك أحدا منهم بمصر أو الشـــــام ··· ففعل الوالى وصدع للأمر · غير أن واحدا منهم اسمه « ابراهيم الخليجى » أفلت فدخل مصر فحكمها ولكن الى أجل قصير ، ثم كانت نهايته كنهاية جميع الخارجين على شرعية الخلافــة ·

خــزر ما وراء النهرين يهاجمون المســلمين فيهزمــهم اسماعيــل السامانى :

وفى سنة احدى وتسعين ومائتين للهجرة خرج الترك أو قسم من الترك الذين هم من ذلك الفرع الخزرى الوثنى الى بلاد

ما وراء النهر واقتحموا أرض المسلمين هناك ، وقيل انه كان معهم سبع مائة قبة يسمونها بلسانهم « بالخركاة » ولا تكون هذه الحركة الا للأمير منهم ، أو الرئيس فيهم ، أو المتنفذ بينهم فاستنفر « اسماعيل بن أحمد الساماني » المحاربين في خراسان وسجستان وطبرستان ، فاجتمع اليه حشد كثيف منهم باغت بهم هؤلاء الترك الخزر المغيرين الوثنيين ، فقتل الكثيرين منهم ، وانتصر المسلمون انتصارا عظيما ، وامتلأت الأيدى بالغنائم والأسلاب حتى لقد بعث الأمير الساماني هديته الى بغداد على ثلاثمائة جمل محملة بصناديق المسك والعنبر والثياب من كل لون ، وكان في الهدية مائة غلام وأشياء أخرى ثمينة وكثيرة .

زواج أبي أحمد بن المكتفي :

وفي هذه السنة زوج المكتفي ابنه « أبا أحمد » بابنة « القاسم ابن عبد الله » الوزير على صداق قدره مائة ألف دينار ، ثم مات أبوها بعد هذا الزواج ولم يكن أبوها كوزير للخليفة ولا كعامل له بالذى تحمد سيرته ، ولكن الذى قدمه عنده ورفع منزلته لديه أخذه البيعة له وحفظه عليه الأموال ، فكان هذا العمل منه يدا له عند المكتفي لا ينساها .

اضطراب أمور بلدان الخلافة العباسية اضطرابا أطمع الروم في ارسال العسكر :

تشكى المسلمون في الربع قرن الأخير من القرن الثالث الهجرى من الاضطرابات التى سادت البلاد في شتى أرجاء بلاد الخلافة العباسية ، وزادت هذه الاضطرابات والقلاقل حدة في العقدين الأخيرين من ذلك القرن مما أطمع الروم في الهجرة على ما قرب منهم من الثغور الاسلامية .. ـ ففي شعبان من سنة احدى وتسعين ومائتين أرسل الامبراطور « ليو » السادس مائة ألف

محارب نازلوا مدينة « الحدث » فأغاروا وسبوا وغنموا من قدروا عليه من المسلمين ، وأضرموا النيران فيما لم يستطيعوا الاستيلاء عليــه ٠

وكان مع جيش الروم عشرة صلبان ، وتحت كل صليب عشرة آلاف مقاتل من البيزنطيين ٠

وكان رد المسلمين على هذا العدوان كبيرا حيث خرج أحدهم واسمه « غلام زرافة »(وكان من الأتراك المسلمين) من «طرسوس » في جيش كبير هاجم به « أنطاكية » وفتحها بالسيف عنوة وفعل ما فعله الروم مع المسلمين فقتل من العدو خمسة آلاف ، وأسر – كما يقولون – مثلهم ٠ وغنم غنائم كثيرة كما استنقذ من الأسرى أربعة آلاف مسلم ، وجعل ذلك كله في ستين مركبا كانت للروم بعد أن استولى عليها ٠ وقيل أن نصيب كل غاز كان ألف دينار ٠

المكتفي يحارب القرامطة وزعيمهم يحيى بن زكرويه :

على أن من أعظم الأحداث وأبرزها في تلك الفترة ما جرى في تلك السنة (سنة احدى وتسعين ومائتين) من خروج الخليفة المكتفي الى « الرقة » لمحاربة القرمطي الملعون « يحيى بن زكرويه » المعروف في الكتب العربية « بصاحب الشامة » ، وأبلى عرب بني حمدان في ذلك اليوم بلاء كريما اذ كادوا أن يكونوا هم وحدهم الذين اصــطلوا بنــار الحرب والقتــال في ذلك اليوم ، فانهزم القرامطة – وهم ملاحدة – وفر صاحبهم في اثنين آخرين كان أحدهما يدعى « المدثر » والآخر يعرف « بالمطوق » فأدخلوا على الخليفة على فيل وجملين ، ولاقى صاحب الشامة بعض ما يستحقه من عذاب ، ثم قتل فكبر الناس ٠

لكن بقى من القرامطة طائفة فى غير هذا المكان لم تصل اليها يد الخلافة .

الجهاد ضد الروم واتمام الفداء :

على أنه فى محرم سنة ثنتين وتسعين ومائتين خرج البيزنطيون بقيادة « اندرونيكوس » الرومى وأغاروا على مرعش وما حولها ، فاستشعر الناس الخطر وجاشت المطوعة والمحاربون من المصيصة وأهل طرسوس لقتالهم ، وكان على المسلمين أحد القادة الكبار وهو « أبو الرجال بن أبى بكار » فأصيب فى جماعة من المسلمين .

ثم كان الفداء بين المسلمين والروم فى ذى القعدة من السنة نفسها ففودى من المسلمين ألف ومائتا شخص ، ثم غدر الروم ، ثم عادوا لمتابعة الفداء ، وكان متوليه من ناحية الروم رجل اسمه « اسطانه » حبسما تورده المراجع العربية .

على أنهم عادوا لمحاربة المسلمين فى السنة الثالثة والتسعين بعد المائتين من الهجرة وذلك فى شوال منها فأغاروا على « قورس » فقاتلوا أهلها وهزموهم وقتلوا طائفة من رؤوس بنى تميم ، ودخلوا المدينة ، وأسكرهم ما أصابوه من النصر فساروا فى خيلاء وعربدوا ما شاؤوا أن يعربدوا حتى أحرقوا مسجد البلد واستاقوا من صادفوهم من أهله أسرى .

معاودة القرامطة زعزعة الأمن ، ووثوب الروم من جديد واسلام أحد كبارهم وتبادل الأسرى :

على أن مستهل هذه السنة شاهد أول ولاية الحمدانيين بالموصل ، اذ ولى المكتفى بالله الموصل وأعمالها « أبا الهيجاء

عبد الله بن حمدان بن حمدان التغلبى » ، فصادف الوالى الحمدانى مقاومة عنيفة من أكراد الناحية ثم استنزلهم بالأمان ، فاطمأنت البلاد وهدأت الأحوال بعد اضطراب واستقامت الأمور .

وعاد القرامطة فى هذه السنة مرة أخرى ليثيروا الفتنة والاضطراب فقد طمعوا فى دمشق اذ وجدوها خالية من واليها « أحمد بن كيغلغ » وتمكن لهم الأمر فلم يجدوا أحدا يصدهم فنهبوا وقتلوا كدأبهم ثم قصدوا « طبرية » التى لقيت منهم ما هو معروف عنهم من الفظاظة وسوء السيرة المتسمة بالوحشية واللا انسانية ، فلما صبوا نقمتهم عليها وفرغوا منها ساروا نحو الكوفة ، وحينذاك رأى الخليفة أن لابد من معاجلتهم معالجة ترد سفههم ، وأن يضربهم ضربة قوية أعدها لتنزل بهم على أيدى فئة مختارة من قواده فيهم « وصيف الخادم » والفضل بن موسى بن بغا وبشر الخادم الافشينى وراتق الجزرى . وعلى الرغم من انهم دربوا على الحرب وعركوها الا أن القرامطة هزموهم وقتلوا من العسكر الخليفى عددا كبيرا وغنموا منهم شيئا غير قليل ، وكان ذلك سببا لما سوف يحدثونه من تعرضهم للحجاج فى السنة التالية .

وفى سنة أربع وتسعين ومائتين للهجرة رد المسلمون على غدر الروم فى العام المنصرم فخرجوا من طرسوس فأسروا من العدو أربعة آلاف وغنموا دوابا ومواشى كثيرة ومتاعا . على أن أبرز ما امتازت به هذه الغزاة دون سابقتها هو أن قائد الروم واسمه « أندرونيكوس » أسلم طوعا . وكان امبراطور بيزنطة قد عهد اليه بمحاربة أهل الثغور وولاه قتالهم فكتب أندرنيكوس الى القائد المسلم يطلب الأمان فأجابه اليه ، ولكى يظهر هذا القائد البيزنطى تقديره وحسن نيته فانه أخرج من حصنه مائتى أسير ممن عنده وزودهم بالسلاح حين علم ان مولاه عاهل الروم بعث من يقبض عليه ثم خرج هذا « البطريق » العظيم وهو النعت الذى يخلعه

عليه المؤرخون العرب ، وخرج معه من وافقه على رأيه من نصارى الحصن ، وأخرج ماله ومتاعه الى معسكر المسلمين ، فخرب المسلمون « قونية » وعادوا ومعهم أندونيكوس وأصحابه الى طرسوس وقد أسلموا ٠

هذا ما تقوله بعض الروايات العربية وهو قول في حاجة الى تحقيق ٠

على أن المراجع الاسلامية تقرر ان ما حدث اذ ذاك كان ضربه للروم وقد تجلى أثرهـا في أن الامبراطور بعث الى « المكتفى » يسأله الفداء بمن في بلاده من المسلمين بنصارى الروم الذين في بلاد الخلافة ، وبعث مع هذا هدية هي عشرة أسرى من المسلمين ، فقبلت الهدية وكانت خير هدية ، وأجيب الى ما طلبه ٠

وتم الفداء في السنة التالية وكانت عدة من فودى من الرجال والنساء كبيرة تقدرها المراجع العربية بثلاثمائة ألف نفس ، ولاشك ان في الرقم مبالغة لا تستقيم مع سبق أكثر من فداء ، ولو قيل ثلاثة آلاف فلربمـــا كان أقرب الى الواقع وان لم يخل أيضا من مبالغة ٠

المناداة بخلافة المقتدر واضطراب الأمور وانتشـار مرض الكلب والطاعون :

أما فيما يتعلق بالخلافة ذاتها فقد بويع « جعفر بن المعتضد » ولقب بالمقتدر بالله ، وكان غلاما صغيرا في الثالثة عشرة من عمره فكره القادة ان يكون عليهم صبى حدث ، وسـاقوا الخلافة الى « عبد الله بن المعتز » الذى اشترط في قبوله الخلافة وولاية العهد « الا يسفك دم أو يجرد سيف » فكان ذلك اقرارا منه بأن ذلك من ملازمات الاختيار ، ثم لقب بالراضى بالله ٠

على أن الأمور اضطربت في نفس اللحظة وأعيد المقتدر بالله الذى لم يكن أهلا للخلافة اذ يقول « مسكويه » المؤرخ انه « ابتعد عن مجالس الرجال ، وغلب الخدم والحريم على الدوله وأخذ الوزراء يتداولون الوزارة واحدا بعد آخر حتى كانت عدتهم فى عهده أربعة عشر وزيرا » •

وفى هذه الفترة بالذات من القرن الثالث للهجرة ـ وقد أوشك على الانصرام ـ خلع على « مؤنس الخادم » وأخرج فى صائفة الى طرسوس فظفر بالروم وأسر بعض علوجهم وكبارهم ، وتوالت الصوائف والشواتى بعضها فى اثر بعض ، وربما كان من بين العوامل الدافعة الى ذلك الرغبة فى أن ينشغل الجند بالجهاد ويفرغوا له بدلا من المؤامرات التى تسىء ولا تجدى ، ولذلك تم ندب اثنين من الغلمان القواد الترك أحدهما « القاسم بن سيما » والثانى « رستم بن بردوا » فحاصر أولهما حصن مليح الأرمنى وأحرق ارباض ذى الكلاع •

ويبدو أن جيف القتلى كانت كثيرة ببغداد حتى ليذكر المؤرخون أنه فى السنة الخاتمة لهذا القرن كثرت الأمراض والعلل ببغداد ، وحدثوا ـ وكانوا صادقين فيما حدثوا به ـ ان الكلاب والذئاب كلبت فيها بالبادية ، فكانت « تطلب الناس والدواب والبهائم ، وكانت اذا عضت انسانا أهلكته » •

وترتب على ذلك انتشار الطاعون بأرض فارس حتى مات فيه سبعة آلاف نفس •

عجائب المخلوقات :

ومن العجائب التى استلفتت الأنظار وجذبت انتباه الناس ما تحدث به الناس من انه شوهدت امرأة ببغداد لا تستطيع أن

تعمل شيئا بكفيها وانما تعمل برجليها ما تعمله النساء بأيديهن من غزل وتمشيط شعر ، ذلك لأنها ولدت بلا ذراعين وبلا عضدين ، وكان كفاها ملتصقين بكتفيها ".

كذلك كان من عجائب الخليقة ما ذكره ابن كثير من ان هدية حملت من مصر للخليفة ومنها تيس له ضرع يحلب لبنا .

وفاة ثعلب النحوى والمروزى :

ومات فى العقد الأخير من القرن الثالث للهجرة أحمد بن يحيى ابن زيد الملقب بثعلب امام الكوفة فى النحو واللغة ، وكان به صمم فخرج من الجامع وهو ينظر فى كتاب فصدمته فرس فألقته فى حفرة عميقة فاضطرب دماغه فكان ذلك خاتمة حياته .

ومات ببغداد « المروزى محمد بن نصر » الذى كان من أحفظ الناس لأخبار الصحابة والتابعين وأعلمهم بالأحكام ، وكانت له منزلة كبيرة عند اسماعيل بن أحمد الســـامانى صاحب الغزوات الضخمة فى ترك ما وراء النهر ، الذى مات فى نفس السنة التى مات فيها المروزى .

غضب الطبيعة وتاخر المطر :

واذا كان من العجائب التى رآها بعض أهل هذه السنوات عجيبة المرأة التى تعمل بقدميها فهناك عجيبة أخرى ولكنها جغرافية شهدها العراق سنة ست وتسعين أفزعت أهل بغداد ، ففى ربيع الأول من تلك السنة (وهو يعادل شهر نوفمبر من سنة ٩٠٨ م) تساقط ثلج عظيم كبير الحجم ، قيل انه اجتمع منه على الأرض والأسطح قدر أربع أصابع واستمر فى التساقط من الغدوة الى صلاة العصر ، وصحبه برد شديد وجمد الماء والخل حتى «البيض والأدهان» وأدى ذلك الى خسائر جمة فهلك من النخل والشجر الشىء الكثير .

وقالوا انه لم ير مثله أبدا ببغداد من قبل ٠

وقالوا أيضا انه لم تخرج السـنة هذه حتى خرج الناس يستسقون بسبب تأخر المطر عن وقته ٠

الفتن في الأندلس ومنازعات الأسر الكبيرة :

أما اذا انتقلنا الى الأندلس فنرى في ختام هذا القرن اندلاع الفتن التى واجهتها حـكومة قرطبة والتى هبت عليها هذه الفتن من معسكرين أحدهما المتعصبون الكارهون للاسـلام والذين استغلتهم طائفة من أصحاب الأطماع فزادوا في تعصبهم تحت ستار الدين ، وأما ثانيهما فالأمراء المحليون المتطلعون الى مزيد من السـلطة والسـلطان ٠

وكانت باشبيلية (التى تلى قرطبة في المكانة) ثلاث اسرات عربية كبيرة هي : عائلة بنى حجاج وعائلة بنى خلدون وبيت بنى أبى عبده ، وكان بين بعضها والبعض الآخر تنافس كبير شأن الأسر الكبيرة وعمل البربر والمولدون والعلوج على أذكاء م بين هذه الأسر من منافسات ضارية ، على ان واحدا من بنى حجاج (واسمه ابراهيم) تمكن دون غيره من الاستقلال بحكم أشبيلية باتفاق مع أمير قرطبة عبد الله ، وادى له ابراهيم الخراج ولا نقول الجزية كما يقولها بعض المؤرخين ٠ فلما بدأ هذا الوفاق قطع ابن حجاج ما كان بينه وبين ابن حفصون ـ عدو الدولة والاسلام ـ من موادعة ومساعدة ٠

ولقد اصطنع ابراهيم كل مظاهر الحاكم المستقل من حرس خاص وجند وشرطة ودواوين ، وكانت له في الواقع همة الملوك وحزمهم ، فاصلح الأمور ، وساسـها سياسة حسنة فاطمأن اليه الاشبيليون حتى قال قائلهم فيه :

ألا ان ابراهيم لجـة ســاحل — من الجود أرست فوق لجة ساحل
فاشبيلية الزهراء تزهو بوجهه — وقرمونة الغراء ذات فضــائل
اذا ما تحلت تلك من نور وجهه — غدت هذه للناس فى زى عاطل

واتخذ ابن الحجاج من قرمونة مربطا لخيل حربه ، وحصنها أعظم تحصين ، وصفا ما بينه وبين الامارة فى قرطبة فساد الهدوء لكنه ما لبث أن مات سنة ثمان وتسعين ومائتين بعد ان أسس « دولة » وان تكن صغيرة تدين بالولاء لصاحب قرطبة ٠

ظهور الحمدانيين كقوة مؤثرة فى مجريات الشرق وبلدان الخلافة الشرقية :

أما فى المشرق وفى دار الخــلافة العباســية فقد ظهر أثر الحمدانيين قويا ، اذ كانت الدولة وأصحاب المطامع والمتطلعون الى السلطان يستعينون بصورة أو بأخرى بالحمدانيين على ما قد يكون بين بعضهم والبعض الآخر من خلافات ٠

وكان هناك اثنان من هذه الأسرة قد بلغا من النفوذ مبلغا كبيرا ، أما أحدهما فهو الحسين بن حمدان « الذى كان مقامه أكثر ما يكون فى بغداد قرب الخلافة ، وأما الثانى فأخوه « أبو الهيجاء بن حمدان » أمير الموصل ٠

وكان الحسين كبير التشيع ولكنه كان يسعى فى الوقت ذاته لسوق الخلافة الى ابن المعتز رغم ما عرف عن الأخير من انصراف عن تأييده للشيعة ، ولكن السياسة تملى فى بعض الأحيان ما قد يبدو غريبا ، فلما فشل الحسين ومن لف لفه فى مسعاهم لمعونة من يريدون فر ابن حمدون الى الشمال ، فسيرت العساكر فى طلبه وعهد الى أخيه بالقبض عليه ، فسعى أخوه جاهدا لمسكه وتتبعه حتى

دخل البرية وراءه فتقاتل الاخوان فكان النصر لأبى الهيجاء اذ فشل بعض أصـــحاب أخيه وأخذ منه عشرة آلاف دينار ثم مضى الى بغـــداد ٠

وكاتب الحسين الوزير ابن الفرات يسأله أن يسترضى المقتدر نيابة عنه ، فرضى الخليفة عنه وعن ثلة من وجوه الذين معه ، فانحدر الحسين بن حمدان الى بغداد ورد عليه أخوه أبو الهيجاء ما كان قد أخذه منه ، ثم عينه الخليفة واليا على « قم » ٠٠ قيل : « ولما وصل الى هناك أخذ الجرائد التى فيها أسماء من أعان على المقتدر فاغرقها فى دجلة » ٠

هكذا كان مسرح الأحداث فى ذلك الوقت ٠٠٠ وعلى هذه الصورة الكريهة من التمزق والتشتت كانت الأمور ٠

وهكذا كانت أيضا بداية ظهور الحمدانيين ، وان علا أمرهم وصارت لهم قوة يحسب الناس لهم حســـابا ، وأقاموا دولة لهم شغلت مكانا فى التاريخ حين استقر لها الأمر فى حلب ، وحملت لواء الجهاد ضد البيزنطيين على وجه الخصوص ٠

أما اذا تركنا بـلاد الخلافة العباسـية فى الشرق ، وتركنا بنى حمدان يظهرون ، وذهبنا الى الشمال الافريقى فى ختام القرن الثالث للهجرة فانا نرى ان معظم نواحى هذه الناحيــة قد دب فيها الضعف وانتشر بها الفســـاد المؤدى الى التهلكة ان لم تتداركهـا رحمة الله ونية المصـــلحين وأعمـــالهم ، وأدرك ذلك « أبو عبيدة الشيعى » الذى نجح فى استمالة بربر تلك الناحية اليه لا سيما « بربر كتامة » ، كما انتصر على قوات « زيادة الله الأغلبى » الذى نعتت به دولة الأغالبية ليقيم أبو عبيد الله حكومة من عنده واذ ذاك بعث الى الشرق فى استقدام عبيد الله « الذى عرف بالمهدى » ٠ وعلى

الرغم من السرية الخالصة فى خروج عبيد الله الا أن الخلافة العباسية علمت بالأمر فترصدته بعمالها وشرطتها على مختلف الطرق وشتى المسالك ، ولما وصل الى « سجلماسة » فى أطراف صحراء المغرب قبض عليه أميرها وسجنه ، لكن أنقذه أبو عبد الله الشيعى فى رجب سنة ست وتسعين ومائتين ، وكان ذلك فى الواقع خاتمة لدولتى الأغالبة فى تونس والرستمية فى « تاهرت » ٠

ثم دخـل رقادة واســتقر بدار الامارة فكان أول خليفة فاطمى ، وخطب فى الصلاة باسمه ، ثم راح يتخلص ممن لهم فضل عليه لا سيما أبو عبيد الله وأخوه أبو العباس ٠

هكذا قامت الدولة الفاطمية فى المغرب قبل ان يلفظ القرن الثالث الهجرى أنفاسه بأربع سنوات ليمد الفاطميون أبصارهم الى مصر التى سوف يستولون عليها بعد قليل مع مطلع القرن الرابع الهجــرى ٠

★★★

الأحوال المضطربة فى الشرق الاسلامى :

أما فى الشرق فقد تمكن « أحمد بن اسماعيل السامانى » من الاستيلاء على سجستان اذ انتزعها من يد صاحبها واسمه « المعدل بن على بن الليث الصفار » ، كما وقع فى يده القائد « سبكرى » الذى كان فى الأصل حاكما لفارس ٠ ويختلف المؤرخان الكبيران : الطبرى وابن الأثير فى كيفية وقــوعه فى يده ، فيقول الأول ان « سبكرى » فر هاربا من خصومه الى الأمير أحمد بن اسماعيل ومعه أمواله وذخائره ٠

وأما ابن الأثير فيقول ان الأمير أحمد أرسل اليه قوة لقيته هو ومن معه وقد أنهكهم التعب فأسروهم واستولوا لسيدهم على ما كان معهم ، فأنفذه الأمير الى المقتدر كطلبه ، ودخل « سبكرى » بغداد مشهرا به على فيل .

أما اذا جئنا الى ابن كثير نسأله ما عنده عن هذا الخبر فنراه لا يورده ولكنه يشير الى هدية أرسلها الأمير أحمد الساماني الى الخليفة فيها « مائة وعشرون غلاما بحرابهم وأسلحتهم وخمسون بازا ، وخمسون جملا محملة بالثياب ، وخمسون رطلا من المسك » ، ولا نرى ذكرا أو اشارة من قريب أو بعيد الى ما يقوله ابن الأثير ولا لما سبقه اليه المؤرخ الكبير الطبرى .

وكان ذلك كله سنة ثمان وتسعين ومائتين للهجرة .

ابن خاقان يرشي أم المقتدر فتوليه وزارة بغداد بدلا من على بن الفرات واستفحال الفساد فى الادارة :

فاذا كان العام التالى نرى انه تولى الوزارة فى بغداد « محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان » لم يرشحه لها كفاءة فى معالجة الأمور ، ولا خبرة بتصريف الأحوال ، ولكن رشحه لها مال جزيل قدره مائة ألف دينار التزم به لأم المقتدر ان هى مكنته عند ابنها المقتدر الخليفة من الوزارة بدلا من متوليها اذ ذاك وهو « على بن الفرات » فسعت جهدها بالسوء حتى أوغرت قلب الخليفة على ابن الفرات فعزله مولاه ، وترتب على ذلك ان نهبت دوره .

وكان ابن خاقان قد بذل هذا القدر العظيم من المال لأنه يدرك أن الوزارة ـ ان وليها ـ ستعوضه أضعافا مضاعفة . وقد وصفه بعضهم فقال فيه « انه كان ضجورا ، قد تحكم عليه أولاده ، فكل

منهم يسعى لمن يرتشى منه ، فكان يولى العمل الواحد عدة من العمال فى الأيام القليلة ، حتى انه ولى ماء الكوفة فى عشرين يوما سبعة من العمال » ، فقيل فيه :

وزير قد تكامل فى الرقاعه يولى . ثم يعزل بعد ساعه
اذا أهل الرشا اجتمعوا عليه فخير القوم أوفرهم بضاعه

وكان توليه الوزارة دليلا على استفحال الرشوة واستفحال أمر النساء وما صار لهن من سطوة فى الدولة وتسييرهن دفة الأمور وفق أهوائهن ، وكان ذلك من الأسباب التى أدت الى ضعف الحكومة ، حتى لقد قال المؤرخ أبو الفدا « ان خلع المقتدر من الخلافة كان بسبب ما أنكر عليه من استيلاء النساء والخدام على الأمور ، وكثرة ما أخذوا من الأموال والضياع » . وصدق أبو الفدا فيما قال ، وأظهر حقيقة الحال وما يعنيه ذلك من فساد الأخلاق والأمور معا .

★★★

ونعود الى صقلية فتقول انها كانت مركزا من مراكز المسلمين الهامة فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى القرن الثالث الهجرى ، ولما نجح الفاطميون فى بسط سلطانهم على المغرب استطاعت دعوتهم أن تجد سبيلها الى هذه الجزيرة مما كان له أثره فى سنة ست وتسعين ومائتين للهجرة حين قام فريق من أهلها وخلعوا حاكمهم ، وكانت شئون الجزيرة تدار أكثر ما تدار من الناحية التى فيها دولة الأغالبة ، فلما ضعفت هذه الدولة ثم زالت أصبح لأبى عبيد الله الشيعى ثم لعبد الله المهدى النفوذ الواضح ، وكان من أثر ذلك أن قام فريق من أهل الجزيرة فى تلك السنة وخلعوا حاكمهم « الحسن بن رباح » وولوا آخر مكانه اسمه « على بن أبى الفوارس » وكتبوا الى عبيد الله بما أحدثوه فأقرهم على ما فعلوا

وباركه ، ثم ما لبث أبو عبيد الله أن خلع ابن أبي الفوارس وولى على الجزيرة رجلا كتاميا من أنصاره هو « الحسن بن أحمد بن أبى خنزير » فسار فى أهل الجزيرة سيرة المتعصب لمذهبه ، ثم خلعه أبو عبيد الله وجعل مكانه « عليا بن عمر البلوى » فلم يكن حظه أحسن من حظ سابقه الحسن بن أحمد ، فاختار أهل الجزيرة عليهم بدلا منه « أحمد بن قرهب » سنة ثلاثمائة وكان عربيا ٠ ومنذ ذلك الحين أخـــذت الانشـــقاقات والاضـــطرابات فى صـــقلية تنذر بشر مســـتطير يهدد مســـلميها ، لا ســـيما وقد ظهـــرت قوى أوربية جديدة تطمع فى المسلمين وما فى أيديهم ، وتود زوال القوة الاسلامية أيا كانت هذه القوة وأيا كان مذهب أصحابها ، وأخذت الروح الصليبية نملى على الأوربيين ما تملى من نزعة ضارة بالاسلام والمسلمين ٠



ضعف الأدارسة فى ختام القرن الثالث للهجرة :

واذا نظرنا الى الأدارسة الذين قاموا بجهد مشكور فى نشر الاسلام فى المغرب والذين أقاموا منذ قرن ونيف من الســـنوات « فاس » مدينة اسلامية خالصة فانهم قد أصبحوا فى ختام القرن الثالث الهجرى فى ضعف شديد ، وذلك خلال أكثر من نصف قرن كانت البلاد فيه نهبا للفوضى والاضطراب والحروب الداخلية ، فانتشر القحط حتى ليقال « ان الناس أكل بعضهم بعضا » ولم يكن ذلك كما يقولون من باب المجاز والمبالغة ، يستفاد ذلك مما دونه مؤرخو الفترة هذه أمثال السلاوى وابن خلدون وان تأخر به العصر ، ولكنه كان عالما ومؤرخا ومدققا يثبت ما كان حقا ، ويهمل ما تشوبه شائبة تثير الشك فى ذهن السامع ٠

غير أن الأمور تحسنت سنة اثنتين وتسعين ومائتين حين ولى حكم الأدارسة « يحيى بن ادريس بن عمر بن ادريس » الذى يصفه السلاوى بأنه « واسطة عقد البيت الادريسى » ويذكره ابن خلدون فيقول انه « أعلى بنى ادريس ملكا ، وأعظمهم حكما ... لم يبلغ أحد من الادارسة مبلغه فى السلطان والدولة » .

ويتفق هذان المؤرخان المغربيان على أن « يحيى بن ادريس » هذا الذى حكم من سنة اثنتين وتسعين ومائتين للهجرة كان فقيها عارفا بالحديث ، شجاعا وبطلا حازما . وكان ينظر اليه على أنه مجدد شباب أسرته ، لولا ظهور عبد الله الشيعى واهتمامه بمحاربة الأدارسة سنة ثلاثمائة للهجرة وتغلبه عليهم على يد قائده « مصالة بن حبوس » .

★★★

اذا كانت هذه هى أحوال المسلمين فى بلدانهم الكبرى فان بعضا ممن جمعوا بين المخاطرة والجهاد قد حملوا راية الجهاد فى قلب أوربة ذاتها ، ففى مذكرات طبعت حديثا عن تاريخ « دير نوفاليز » ورد أن الهجمات الاسلامية اشتدت سنة ست وتسعين ومائتين للهجرة على سواحل « لانجد وك » وأن المسلمين سيطروا على بعض المسالك الى رومة ، وراحوا يشنون الغارات على سهول « بيمونت » و « مونتفرات » فى سنة تسع وتسعين ومائتين للهجرة . ومن العجيب أننا لا نجد ذكرا لهذه التحركات الهامة فى الكتب الاسلامية لأنها كانت مشغولة بالأحداث الداخلية فى كل من الأندلس والشمال الافريقى وبلدان الخلافة الاسلامية الأخرى .

لقد أخـذ القرن الثـالث الهجرى يودع الدنيا بعين دامعة بســبب الشرور التى أصابت العالم الاسلامى ، وودع هذا القرن الدنيا وودعتها معه طائفة من أعلام الفقه والحديث والتاريخ والتفسير وشتى علوم المعرفة الانسانية الكريمة ، وكان هؤلاء الأعلام أصحاب مؤلفات لاتزال أكثرها حتى اليوم شاهدا على ما أجداه اهتمامهم بالنظر فى الدين واللغة ، فمات من الشعراء على بن العباس المعروف « بابن الرومى » وكان من فطـاحل من نظموا الشـعر الرصـين وأحسنوا فكان مليئا بالمعانى

كذلك مات « البحترى » أبو عبادة الذى يقال انه أمير شعراء عصره وحامل لواء القريض فى وقته ، وسماه المبرد « بشاعر دهره » وقد ترك مما نظم ما ألقى الضوء على كثير من أحداث هذه الفترة المتأخرة من القرن الثالث فى الأمور السياسية وشئون الخلافة ، كما مات « المبرد » النحوى البصرى محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، وكان اماما فى اللغة وأدابها حتى قال فيه الذهبى « انه امام أهل النحو فى زمانه » وقد تصدر للاشتغال ببغداد حينا من الدهر كان مذكـــورا .

انتهى مجمل احداث القرن الثالث للهجرة .

الفهـــرس

صدر فى هذه السلسلة

١ ـ مصطفى كامل فى محكمة التاريخ،
د . عبد العظيم رمضان، ط ١، ١٩٨٧، ط ٢، ١٩٩٤.

٢ ـ على ماهر،
رشوان محمود جاب الله، ١٩٨٧.

٣ ـ ثورة يوليو والطبقة العاملة،
عبد السلام عبد الحليم عامر، ١٩٨٧.

٤ ـ التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة،
د . محمد نعمان جلال، ١٩٨٧.

٥ ـ غارات أوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى،
د. علية عبد السميع الجنزورى، ١٩٨٧.

٦ ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ١،
لمعى المطيعى، ١٩٨٧.

٧ ـ صلاح الدين الأيوبى،
د . عبد المنعم ماجد، ١٩٨٧.

٨ ـ رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية،
د . على بركات، ١٩٨٧.

٩ ـ صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل،
د . محمد أنيس، ١٩٨٧.

١٠ ـ توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية،
محمود فوزى، ١٩٨٧.

١١ ـ مائة شخصية مصرية وشخصية،
شكرى القاضى، ١٩٨٧.

١٢ ـ هدى شعراوى وعصر التنوير،
د . نبيل راغب، ١٩٨٨.

١٣ ـ أكذوبة الاستعمار المصرى للسودان: رؤية تاريخية،
د . عبد العظيم رمضان، ط ١ ١٩٨٨، ط ٢، ١٩٩٤

١٤ ـ مصر فى عصر الولاة، من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية،
د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٨.

١٥ ـ المستشرقون والتاريخ الإسلامى،
د . على حسنى الخربوطلى، ١٩٨٨.

١٦ ـ فصول من تاريخ حركة الإصلاح الاجتماعى فى مصر: دراسة عن دور الجمعيات الخيرية ([illegible])،
د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٨.

١٧ ـ القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى،
د . محمد نور فرحات، ١٩٨٨.

١٨ ـ الجوارى فى مجتمع القاهرة المملوكية،
د . على السيد محمود، ١٩٨٨

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين،
د . أحمد محمود صابون، ١٩٨٨.

٢٠ ـ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩: المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى،
د . محمد أنيس، ط ٢، ١٩٨٨.

٢١ ـ التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى جـ١،
د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.

٢٢ نظرات فى تاريخ مصر

جمال بدوى، ١٩٨٨

٢٣ - التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى

جـ٢، إمام التصوف فى مصر: الشعرانى،

د. توفيق الطويل، ١٩٨٨.

٢٤ - الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩-١٩٣٦)،

د. نجوى كامل، ١٩٨٩.

٢٥ - المجتمع الإسلامى والغرب،

تأليف: هاملتون جب وهارولد بوون،

ترجمة . د . أحمد عبد الرحيم مصطفى، ١٩٨٩.

٢٦ - تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة،

د . سعيد إسماعيل على، ١٩٨٩.

٢٧ - فتح العرب لمصر جـ١،

تأليف : ألفريد ج. بتلر، ترجمة : محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.

٢٨ - فتح العرب لمصر جـ٢،

تأليف : ألفريد ج. بتلر، ترجمة : محمد فريد أبو حديد، ١٩٨٩.

٢٩ - مصر فى عهد الإخشيديين،

د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٨٩.

٣٠ - الموظفون فى مصر فى عهد محمد على،

د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٨٠.

٣١ - خمسون شخصية مصرية وشخصية،

شكرى القاضى، ١٩٨٩.

٣٢ - هؤلاء الرجال من مصر جـ٢،

لمعى المطيعى، ١٩٨٩.

٣٣ - مصر وقضايا الجنوب الافريقى: نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية،

د . خالد محمود الكومى، ١٩٨٩.

٣٤ - تاريخ العلاقات المصرية المغربية، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢،

د . يونان لبيب رزق، محمد مزين، ١٩٩٠.

٣٥ - أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة،

عبدالحميد توفيق زكى، ١٩٩٠.

٣٦ - المجتمع الإسلامى والغرب جـ ٢،

تأليف : هاملتون بروون، ترجمة : د. أحمد عبدالرحيم مصطفى، ١٩٩٠.

٣٧ - الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد: تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن،

تأليف : د . سليمان صالح، ١٩٩٠.

٣٨ - فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى،

د . عبدالرحيم عبدالرحمن عبدالرحيم، ١٩٩٠.

٣٩ - قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤-١٨٢٧)،

د. جميل عبيد، ١٩٩٠.

٤٠ - الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين [illegible]،

د . عبدالمنعم الدسوقى الجميعى، ١٩٩٠.

٤١ - محمد فريد: الموقف والمأساة، رؤية عصرية،

د . رفعت السعيد، [illegible].

٤٢ - تكوين مصر عبر العصور،

محمد شفيق غربال، ط٢، ١٩٩٠.

٤٣ - رحلة فى عقول مصرية،

إبراهيم عبد العزيز، ١٩٩٠.

٤٤ - الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى،

د . محمد عفيفى، ١٩٩١.

٤٥ - الحروب الصليبية جـ ١،

تأليف : وليم الصورى، ترجمة وتقديم: د . حسن حبشى، ١٩٩١.

٤٦ - تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ : ١٩٥٧)،

ترجمة: د . عبدالرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩١.

٤٧ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث،

د . لطيفة محمد سالم، ١٩٩١.

٤٨ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الإسلامى،

د . زبيدة عطا، ١٩٩١.

٤٩ ـ العلاقات المصرية الإسرائيلية (١٩٤٨ـ١٩٧٩)،

د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ـ١٩٥٤)،

د . سهير إسكندر، ١٩٩٢.

٥١ـ تاريخ المدارس فى مصر الإسلامية،

(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، فى إبريل ١٩٩١)،

أعدها للنشر: د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٢.

٥٢ . [illegible]

الدارسين فى القرن الثامن عشر،

د . إلهام محمد على ذهنى، ١٩٩٢.

٥٣ـ أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،

د . محمد كمال الدين عز الدين على، ١٩٩٢

٥٤ـ الأقباط فى مصر فى العصر العثمانى،

د . محمد عفيفى، ١٩٩٢.

٥٥ـ الحروب الصليبية جـ٢،

تأليف : وليم الصورى ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٢.

٥٦ ـ المجتمع الريفى فى عصر محمد على: دراسة عن إقليم المنوفية،

د . حلمى أحمد شلبى، ١٩٩٢.

٥٧ـ مصر الإسلامية وأهل الذمة،

د . سيدة إسماعيل كاشف، ١٩٩٢.

٥٨ـ أحمد حلمى سجين الحرية والصحافة،

د . إبراهيم عبدالله المسلمى، ١٩٩٣.

٥٩ الرأسمالية الصناعية فى مصر، من التمصير إلى التأميم (١٩٥٧ـ١٩٦١)،

د . عبد السلام عبدالحليم عامر، ١٩٩٣.

٦٠ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية،

عبد الحميد توفيق زكى، ١٩٩٣.

٦١ـ تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث،

د . عبد العظيم رمضان، ١٩٩٣.

٦٢ـ هؤلاء الرجال من مصر جـ٣،

لمعى المطيعى، ١٩٩٣.

٦٣ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر الإسلامية،

تأليف: د. سيدة إسماعيل كاشف، جمال الدين سرور، وسعيد عبدالفتاح عاشور، أعدها للنشر:

د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣.

٦٤ ـ مصر وحقوق الإنسان، بين الحقيقة والإفتراء: دراسة وثائقية،

د . محمد نعمان جلال، ١٩٩٣.

٦٥ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ـ١٩١٧)،

د . سهام نصار، ١٩٩٣.

٦٦ـ المرأة فى مصر فى العصر الفاطمى،

د . نريمان عبد الكريم أحمد، ١٩٩٣.

٦٧ ـ مساعى السلام العربية الإسرائيلية: الأصول التاريخية،

(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة، بالإشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس، فى إبريل ١٩٩٣)، أعدها للنشر د. عبدالعظيم رمضان، ١٩٩٣.

٦٨ـ الحروب الصليبية جـ٣،

تأليف : وليم الصورى

ترجمة وتعليق : د . حسن حبشى، ١٩٩٣

٦٩ـ نوبة موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ـ١٩٥١)،

د . محمد أبو الإسعاد، ١٩٩٤

٧٠ـ أهل الذمة في الإسلام،
تأليف: أ. س. ترتون
ترجمة وتعليق: د. حسن حبشي، ط ٢، ١٩٩٤.
٧١ـ مذكرات اللورد كليرن (١٩٣٤-١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة: د. عبد الرؤوف أحمد عمرو، ١٩٩٤.
٧٢ـ رؤية الرحالة المسلمين للأحوال المالية والاقتصادية في العصر الفاطمي (٣٥٨-٥٦٧هـ)،
د. أمينة أحمد إمام، ١٩٩٤.
٧٣ تاريخ جامعة القاهرة،
د. رؤوف عباس حامد، ١٩٩٤.
٧٤ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية، جـ ١، في العصر الروماني،
د. سمير يحيى الجمال، ١٩٩٤.
٧٥ـ أهل الذمة في مصر، في العصر الفاطمي الأول،
د. سلام شافعي محمود، ١٩٩٥.
٧٦ـ دور التعليم المصري في النضال الوطني (زمن الاحتلال البريطاني)،
د. سعيد إسماعيل علي، ١٩٩٥.
٧٧ـ الحروب الصليبية جـ ١،
تأليف: وليم الصوري، ترجمة وتعليق: د حسن حبشي، ١٩٩٤.
٧٨ تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣-١٨٩٩)،
نعمات أحمد عتمان، ١٩٩٥.
٧٩ـ تاريخ الطرق الصوفية في مصر، في القرن التاسع عشر،
تأليف: فريد دي يونج، ترجمة: عبد الحميد فهمي الجمال، ١٩٩٥.
٨٠ـ قناة السويس والتنافس الاستعماري الأوروبي (١٨٨٢-١٩٠٤)،
د. السيد حسين جلال، ١٩٩٥
٨١ـ تاريخ السياسة والصحافة المصرية من هزيمة يونيو إلى نصر أكتوبر،
د. رمزي ميخائيل، ١٩٩٥
٨٢ـ مصر في فجر الإسلام، من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية،
د. سيدة إسماعيل كاشف، ط ٢، ١٩٩٤.
٨٣ـ مذكراتي في نصف قرن جـ ١،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٤.
٨٤ـ مذكراتي في نصف قرن جـ ٢ ـ القسم الأول،
أحمد شفيق باشا، ط ٢، ١٩٩٥.
٨٥ ـ تاريخ الإذاعة المصرية: دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢)،
د. حلمي أحمد شلبي، ١٩٩٥.
٨٦ ـ تاريخ التجارة المصرية في عصر الحرية الاقتصادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤)،
د. أحمد الشربيني، ١٩٩٥.
٨٧ ـ مذكرات اللورد كليرن: جـ ٢، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦)،
إعداد: تريفور إيفانز، ترجمة وتعليق: د. عبدالرؤوف أحمد عمرو ١٩٩٥.
٨٨ ـ التذوق الموسيقي وتاريخ الموسيقى المصرية،
عبدالحميد توفيق زكي، ١٩٩٥.
٨٩ ـ تاريخ الموانئ المصرية في العصر العثماني،
د. عبدالحميد حامد سليمان، ١٩٩٥.
٩٠ ـ معاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية،
د. نريمان عبدالكريم أحمد، ١٩٩٦.
٩١ ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط،
تأليف: بيتر مانسفيلد، ترجمة: عبدالحميد فهمي الجمال، ١٩٩٦.
٩٢ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦)،
جـ ٢، د. نجوى كامل، ١٩٩٦

٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨)،
د. نبيه بيومى عبدالله، ١٩٩٦.
٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤)،
د. سهير إسكندر، ١٩٩٦.
٩٥ ـ مصر وأفريقيا الجذور التاريخية للمشكلات الأفريقية المعاصرة (أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة)،
إعداد أ. د. عبد العظيم رمضان
٩٦ ـ عبدالناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠)،
تأليف: مالكولم كير، ترجمة د. عبدالرؤوف أحمد عمرو.
٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر،
د. إيمان محمد عبد المنعم عامر.
٩٨ ـ مصر والسياسة الأثيوبية،
د. محمد سيد محمد.
٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) جـ ٢،
د. سمير يحيى الجمال
١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور: تاريخ مصر القديمة،
أ. د. عبد العزيز صالح، أ. د. جمال مختار، أ. د. محمد ابراهيم بكر، أ.د. ابراهيم نصحى، أ. د. فاروق القاضى، أعدها للنشر: أ. د. عبدالعظيم رمضان
١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة،
اللواء/ مصطفى عبدالمجيد نصير، اللواء/ عبدالمجيد كفافى،
اللواء/ سعد عبدالحفيظ، السفير/ جمال منصور
١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢
د. تيسير أبو عرجة
١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره
د. على بركات
١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢)
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد
١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديموقراطية ١٨٠٥ ـ ١٩٨٧.
د. أحمد فارس عبدالمنعم
١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد (تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن).
د. سليمان صالح
١٠٧ ـ الأصولية الإسلامية.
تأليف: دليب هيرو، ترجمة: عبدالحميد فهمى الجمال.
١٠٨ ـ مصر للمصريين جـ ٤.
سليم النقاش
١٠٩ ـ مصر للمصريين جـ ٥.
سليم النقاش
١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ١.
د. البيومى اسماعيل الشربينى.
١١١ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية (عصر سلاطين المماليك) جـ ٢.
د. البيومى إسماعيل الشربينى.
١١٢ ـ إسماعيل باشا صدقى
د. محمد محمد الجوادى.
١١٣ ـ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى)
د. عز الدين إسماعيل.
١١٤ ـ دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى
تأليف أحمد رشدى صالح

١١٥ - مذكراتي في نصف قرن جـ ٣.
أحمد شفيق باشا.
١١٦ - أديب إسحق (عاشق الحرية)
علاء الدين وحيد
١١٧ - تاريخ القضاء في مصر العثمانية
(١٥١٧ - ١٧٩٨)
عبد الرازق إبراهيم عيسى
١١٨ - النظم المالية في مصر والشام
د. البيومي إسماعيل الشربيني
١١٩ - النقابات في مصر الرومانية
حسين محمد أحمد يوسف
١٢٠ - يوميات من التاريخ المصري الحديث
لويس جرجس
١٢١ - الجلاء ووحدة وادي النيل (١٩٤٥ - ١٩٥٤)
د. محمد عبد الحميد الحناوي
١٢٢ - مصر للمصريين جـ٦
سليم خليل النقاش
١٢٣ - السيد أحمد البدوي
د. سعيد عبد الفتاح عاشور
١٢٤ - العلاقات المصرية الباكستانية في نصف قرن
د. محمد نعمان جلال
١٢٥ - مصر للمصريين جـ٧
سليم خليل النقاش
١٢٦ - مصر للمصريين جـ ٨
سليم خليل النقاش
١٢٧ - مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ - ١٩٥٨)،
إبراهيم محمد محمد إبراهيم .
١٢٨ - معارك صحفية،
بقلم/ جمال بدوي.
١٢٩ - الدين العام (وأثره في تطور الدين المصري) (١٨٧٦-١٩٤٣).
د. يحيى محمد محمود

١٣٠ - تاريخ نقـــابات الفنانين في مــــصــــر (١٩٨٧-١٩٩٧).
سمير فريد.
١٣١ - الولايات المتحدة وثورة يوليه ١٩٥٢م.
ترجمة/ د. عبدالرءوف أحمد عمر.
١٣٢ - دار المندوب السامي في مصر جـ١ .
د. ماجدة محمد حمود.
١٣٣ - دار المندوب السامي في مصر جـ٢ .
د. ماجدة محمد حمود.
١٣٤ - الحملة الفرنسية على مصر في ضوء مخطوط عثماني للقازدغلي.
بقلم/ عزت حسن أفندي القازدغلي
ترجمة/ جمال سعيد عبد الغني.
١٣٥ - اليهود في مصر المملوكية
(في ضوء وثائق الجنيزة)
(٦٤٨ - ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م) د. محاسن
محمد الوقاد
١٣٦ - أوراق يوسف صديق
تقديم/ أ. د. عبد العظيم رمضان
١٣٧ - تجار التوابل في مصر في العصر المملوكي
د. محمد عبد الغني الأشقر
١٣٨ - الإخــوان المسلمــون وجــذور التطرف الديني والإرهاب في مصر
السيد يوسـف
١٣٩ - موسوعة الغناء المصري في القرن العشرين
بقلم محمد قابيل
١٤٠ - سياسة مصر في البحر الأحمر في النصف الأول من القـرن التاسع عـشـر ١٢٢٦ - ١٢٦٥هـ / ١٨١١ - ١٨٤٨م.
طارق عبد العاطي غنيم بيومي
١٤١ - وسائل الترفيه في عصر سلاطين المماليك.
لطفي أحمد نصار
١٤٢ - مذكراتي في نصف قرن جـ٣
أحمد شفيق باشا ط٢، ١٩٩٩.

١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثالث والأول ق . م
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٤ ـ كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل
د. عبدالعليم خلاف
١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥م)
د. منيرة محمد الهمشرى
١٤٦ ـ المرأة فى مصر المملوكية
د. أحمد عبدالرازق
١٤٧ ـ حسن البنا متى.. كيف ولماذا؟
د. رفعت السعيد
١٤٨ ـ القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية
تأليف / د. سمير فوزى
ترجمة / نسيم مجلى
١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية
فى القرن الثامن عشر
حسام محمد عبد المعطى
١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)
د. سمير يحيى الجمال
١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة
السيد يوسف
١٥٢ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. مجاسن محمد الوقاد
١٥٣ـ الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٤ـ هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية فى العصور الوسطى
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٥ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر
(١٨٠٥ ـ ١٨٨٣م)
د. عبد الحميد البطريق
١٥٦ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الثالث
فى العصر الإسلامى
د. سمير يحيى الجمال
١٥٧ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية
الجزء الرابع
فى العصر الإسلامى والحديث
د. سمير يحيى الجمال
١٥٨ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر
(٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٥٩ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الأول
د. محمد فريد حشيش
١٦٠ـ حزب الوفد (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢)
الجزء الثانى
د. محمد فريد حشيش
١٦١ـ السيف والنار فى السودان
تأليف / سلاطين باشا
١٦٢ـ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ـ ١٩٥٣م)
د. تمام همام تمام
١٦٣ـ مصر والحملة الفرنسية
المستشار/ محمد سعيد العشماوى
١٦٤ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ
(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة) بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧م.
إعداد / د. عبدالعظيم رمضان
١٦٥ـ التعليم والتغير الاجتماعى فى مصر
(فى القرن التاسع عشر)
سامى سليمان محمد السهم

١٦٦ـ مذكرات معتقل سياسى (صفحة من تاريخ مصر)
السيد يوسف
١٦٧ـ الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط منذ الفتح العربى إلى نهاية الدولة الأخشيدية
د. سفى على محمد عبدالله
١٦٨ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات
يسرى عبد الغنى
١٦٩ـ مدن مصر الصناعية فى العصر الإسلامى إلى نهاية عصر الفاطميين (٢١ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١م)
د. سفى على محمد عبد الله
١٧٠ـ القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)
مجدى عبد الرشيد بحر
١٧١ـ تاريخ الجالية الأرمنية فى مصر القرن التاسع عشر
تأليف / محمد رفعت
١٧٢ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى)
الجزء الأول
[illegible]
١٧٣ـ تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية (من الفتح العربى إلى نهاية العصر الفاطمى)
الجزء الثانى
تأليف / فاطمة مصطفى عامر
١٧٤ـ مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م
د. أحمد عبد الحليم دراز
١٧٥ ـ محمد توفيق نسيم باشا ودوره فى الحياة السياسية
عادل إبراهيم الطويل
١٧٦ ـ الملاحة النيلية فى مصر العثمانية ١٥١٧ - ١٧٩٨م
د. عبدالحميد حامد سليمان
١٧٧ ـ سياسة مصر العسكرية إزاء حروب الشرق الأوسط
لواء دكتور/ صلاح سالم
١٧٨ ـ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى فى القرن الثامن عشر
د. سحر على حنفى
١٧٩ ـ دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر (١٥٦٤ ـ ١٦٠٩ م)
د. عفاف مسعد السيد العبد
١٨٠ ـ الحقيقة التاريخية حول قرار تأميم شركة قناة السويس
بقلم / د. عبدالعظيم رمضان
١٨١ ـ الحروب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ١)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشى
١٨٢ ـ الحروب الصليبية الثالثة (صلاح الدين وريتشارد جـ٢)
ترجمة وتحقيق وتعليق / أ. د. حسن حبشى
١٨٣ ـ شاهد على العصر
مذكرات محمد لطفى جمعة
١٨٤ ـ المنوفية فى القرن الثامن عشر
ياسر عبد المنعم محاريق
١٨٥ ـ تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى
د. أحمد أحمد سيد أحمد

١٨٦ ـ العقائد الدينية فى مصر الاسلامية (بين الاسلام والتصوف)

د· أحمد صبحى منصور

١٨٧ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م/ ٦٤٨ ـ ٨٢٣ هـ) جـ ١

د· عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٨ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ) جـ ٢

د· عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٩ ـ يهود مصر منذ عصر الفراعنة حتى عام ٢٠٠٠ م

عرفه عبده على

١٩٠ ـ العلاقات السياسية بين مصر والعراق ١٩٥١ ـ ١٩٦٣م ·

د· عبد الحميد عبد الجليل أحمد شلبى ·

١٩١ ـ اليهود فى مصر العثمانية حتى اوائل القرن التاسع عشر جـ ١

د· محسن على شومان

١٩٢ ـ اليهود فى مصر العثمانية اوائل القرن التاسع عشر جـ٢·

د· محسن شومان

١٩٣ ـ الامام محمد عبده (بين المنهج الدينى والمنهج الاجتماعى)

د· عبد الله شحاته

١٩٤ ـ تاريخ الآلات الموسيقية الشعبية المصرية

د· فتحى الصنفاوى

١٩٥ ـ مجتمع افريقية فى عصر الولاة

د· نريمان عبد الكريم أحمد

١٩٦ ـ تاريخ تطور الرى فى مصر (١٨٨٢ ـ ١٩١٤م)

عبد العظيم محمد سعودى

١٩٧ ـ القدس الخالدة

د· عبد الحميد زايد

١٩٨ ـ العلاقات السياسية بين الدولة الايوبية والامبراطورية الرومانية المقدسة زمن الحروب الصليبية ·

د· عادل عبد الحافظ حمزة

١٩٩ ـ المعبد فى الدولة الحديثة فى مصر الفرعونية

د· بهاء الدين ابراهيم محمود

٢٠٠ ـ تاريخ سواحل مصر الشمالية عبر العصور
(أعمال الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة • بالاشتراك مع كلية الآداب جامعة الاسكندرية من ٢٢ ـ ٢٣ ابريل ١٩٩٨)
اعداد : د• عبد العظيم رمضان •

٢٠١ ـ امارة الحج فى مصر العثمانية
(٩٢٣ـ١٢١٣هـ / ١٥١٧ـ ١٧٩٨ م)
سميرة فهمى على عمر

٢٠٢ ـ المندوبون الساميون فى مصر
د• ماجدة محمد حمود

٢٠٣ ـ الصراع الدولى على عدن والدور المصرى
فتحى أبو طالب

٢٠٤ ـ العلاقات الاقتصادية بين مصر (١٩٣٥ ـ ١٩٤٥م)
مرفت صبحى غالى

٢٠٥ ـ تاريخ الغربية واعمالها فى العصر الاسلامى
(٢١ ـ ٥٦٧هـ / ٦٤٢ ـ ١١٧١م)
السيد محمد احمد عطا

٢٠٦ ـ مصر للمصريين ج ٩
سليم خليل النقاش

٢٠٧ ـ الظاهر بيبرس
د• سعيد عبد الفتاح عاشور

٢٠٨ ـ الدور المصرى والعربى فى حرب تحرير الكويت ج ١
لواء / د• كمال أحمد عامر

٢٠٩ ـ الدور المصرى والعربى فى حرب تحرير الكويت ج ٢
لواء / د• كمال أحمد عامر

٢١٠ ـ قبرص والحروب الصليبية
د• سعيد عبد الفتاح عاشور

٢١١ ـ امارة الرها الصليبية
د• علية عبد السميع الجنزورى

٢١٢ ـ العامة فى مصر فى العصر الأيوبى
(٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ / ١١٧١ ـ ١٢٥٠م)
شلبى ابراهيم الجعيدى

٢١٣ ـ **الأزمات الاقتصادية فى مصر فى العصر المملوكى واثرها السياسى والاقتصادى والاجتماعى (٦٤٨ هـ ـ ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م)**
عثمان على محمد عطا

٢١٤ - الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية فى العصور الوسطى
د٠ علية عبد السميع الجنزورى

٢١٥ - الفتح الاسلامى لمدينة كابول (٣١هـ / ٦٥١م)
د٠ اصلاح عبد الحميد ريحان

٢١٦ - الرأسمالية الاجنبية فى مصر (١٩٣٧ - ١٩٥٧) الجزء الاول
د٠ فرغلى تسن هريدى ٠

٢١٧ - العيب فى الذات الملكية (١٨٨٢ - ١٩٥٢)
د٠ سيد عشماوى

٢١٨ - اقليم الغربية فى عصر الأيوبيين والمماليك (٥٦٧ - ٩٢٣هـ/١١٧١ - ١٥١٧م)
د٠ السيد محمد أحمد عطا

٢١٩ - ثورة ١٩١٩ فى ضوء مذكرات سعد زغلول (١٩٥٣ - ١٩٦١) ٠
د٠ عبد العظيم رمضان

٢٢٠ - التنظيمات السياسية لثورة يوليو
د٠ حمادة حسنى أحمد محمد

٢٢١ - حرب النهر
ونستون تشرشل ٠ ترجمة عز الدين محمود

٢٢٢ - مصر الخالدة (مقدمة فى تاريخ مصر الفرعونية منذ اقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق٠م الجزء الأول
د٠ عبد الحميد زايد

٢٢٣ - مصر الخالدة (مقدمة فى فى تاريخ مصر الفرعونية منذ اقدم العصور حتى عام ٣٣٢ ق٠م ، ج ٢
د٠ عبد الحميد زايد

٢٢٤ - الدور الوطنى للكنيسة المصرية عبر العصور
(أعمال ندوة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة)
اعداد وتقديم ٦د٠ عبد العظيم رمضان

٢٢٥ ـ مصر ودول حوض النيل

د. سيد محمد موسى حمد

٢٢٦ ـ السخرة في حفر قناة السويس

د. عبد العزيز محمد الشناوي

٢٢٧ ـ العلاقات المصرية العثمانية على عهد الاحتلال البريطاني (١٨٨٢ ـ ١٩١٤)

د. أمل محمد فهمي

٢٢٨ ـ تاريخ العالم الاسلامي ، الجزء الأول

د. حسن حبشي

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٢/١٦٩٧٨

I.S.B.N. 977 — 01 — 8209 — 5

هذا الكتاب تاريخ العالم الإسلامى الذى كتبه العالم الجليل الأستاذ الدكتور حسن حبشى أستاذ تاريخ العصور الوسطى والعالم الإسلامى بجامعة عين شمس.

والكتاب يتناول التاريخ الإسلامى منذ هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وما ترتب عليها من آثار شملت كل مرافق الحياة الفكرية، والدينية، والعقائدية، والاجتماعية، والعمرانية، والأخلاقية، والاقتصادية.

وقد اتخذ المؤلف من تاريخ الهجرة نقطة إنطلاق لدراسة تاريخ العالم الإسلامى قرناً بعد قرناً سواء فى الشرق أو فى الغرب.

وتعرض للشعوب التى دخلت الإسلام فى الشر والغرب.



مطابع الهيئة المصرية ال

٥٠٠ قرش